التدبر والبيان

في

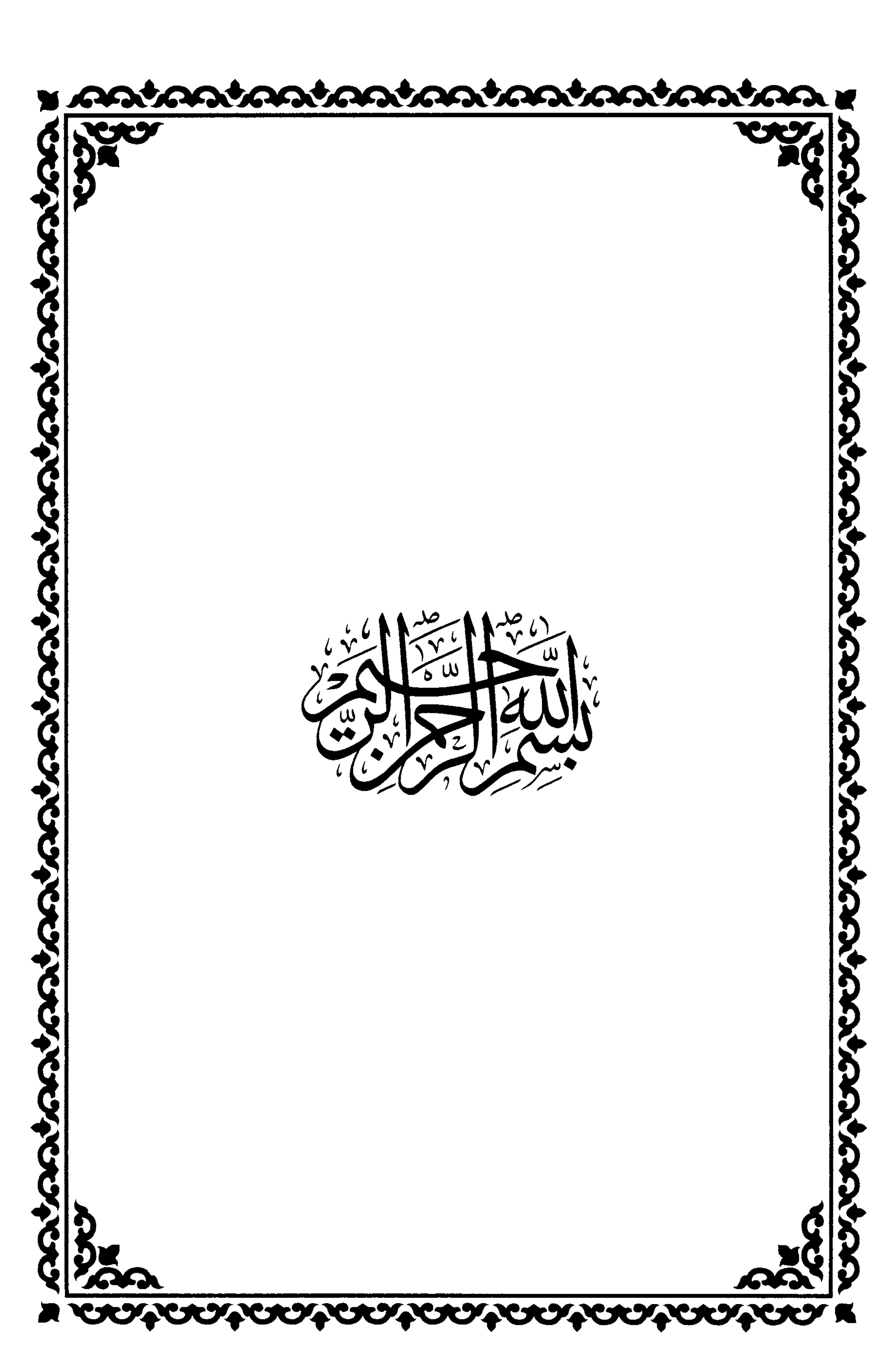
تفسير القرآن بصحيح السنن

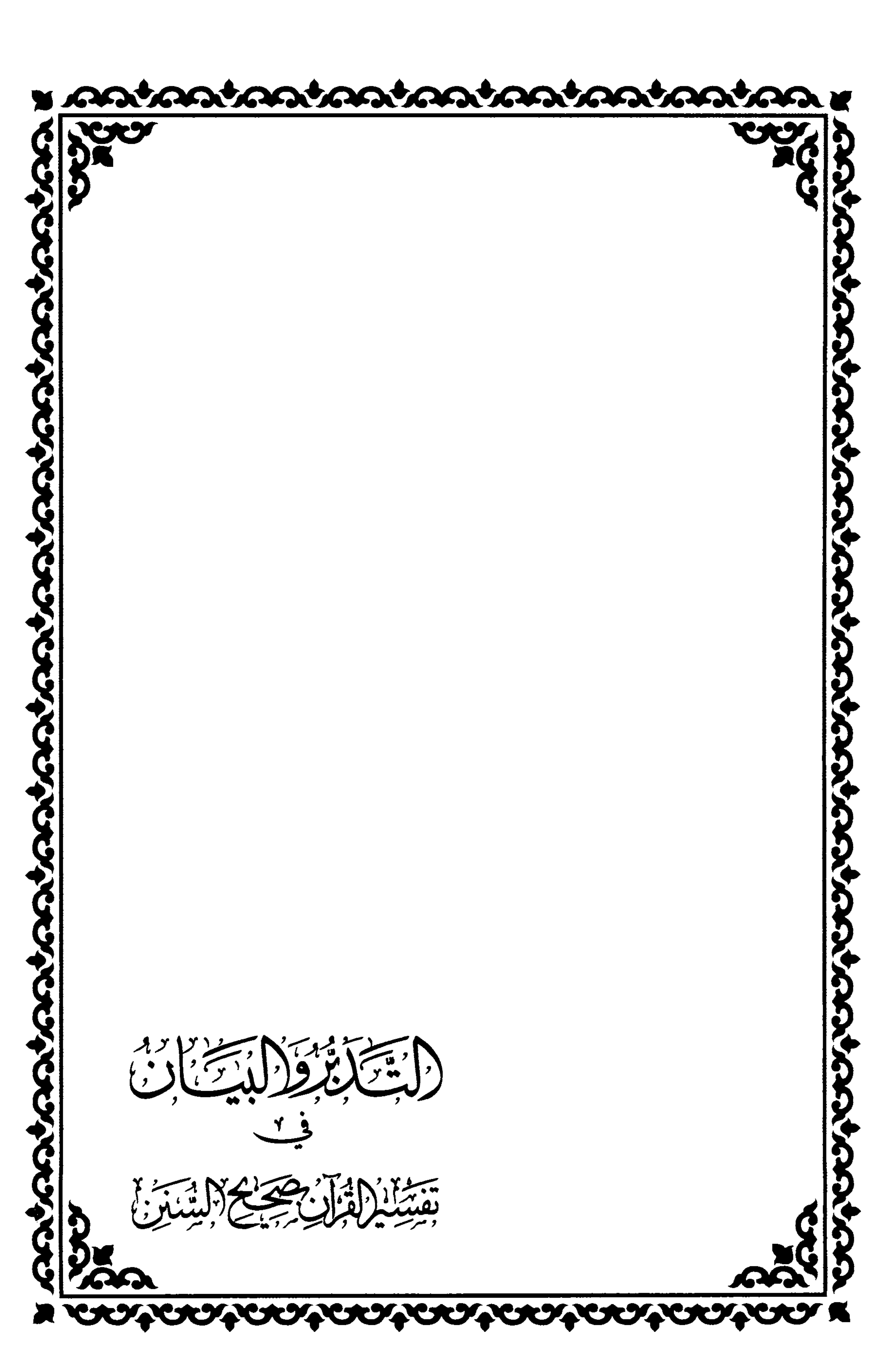
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثاني والعشرون

الحج - المؤمنون


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

التصنيف : تفسير
Classification: Exegesis

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨







سورة الحج

قال القاسمي: «سميت به لاشتمالها على أصل وجوبه، والمقصود من أركانه، وهو الطواف إذ الإحرام نية، والوقوف بعرفات من استعداده، والسعي من تتمته، والحلق خروج عنه، وذكر فيها منافعه وتعظيم شعائره، وغير ذلك مما يشير إلى فوائده وأسراره. أفاده المهايمي»[1].

قال ابن عاشور: «وجه تسميتها سورة الحج أن اللّٰه ذكر فيها كيف أمر إبراهيم ﷺ بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران»[2].

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «ومن أغراض هذه السورة:

خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا اللّٰه ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد اللّٰه تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس

---

(١) محاسن التأويل (١٢/ ٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٩).

الشياطين، وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس.

وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه، وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن اللَّه أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطوارا.

وأن اللَّه ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات، فاللَّه هو القادر على كل ذلك. فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته، وهم يخالفونه في أصل الدين.

وتذكير لهم بما من اللَّه عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته.

وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب.

وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب، فإنه إملاء من اللَّه لهم كما أملى للأمم من قبلهم. وفي ذلك تأنيس للرسول -عليه الصلاة والسلام- والذين آمنوا، وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق.

وأن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة.

وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الهدى وجزاء أهل الضلال.

وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر اللَّه فكان لكل فريق جزاؤه.

وسلى اللَّه رسوله -عليه الصلاة والسلام- والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في

قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل، ولكن اللَّه يحكم دينه ويبطل ما يلقي الشيطان، فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن.

وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر. ووصف الكفار بكراهيتهم القرآن وبغض المرسل به. والثناء على المؤمنين وأن اللَّه يسر لهم اتباع الحنيفية وسماهم المسلمين.

والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم.

وختمت السورة بتذكير الناس بنعم اللَّه عليهم وأن اللَّه اصطفى خلقا من الملائكة ومن الناس، فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى اللَّه زلفى، وأن اللَّه هو مولاهم وناصرهم»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٣-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾

★ **غريب الآية:**

زلزلة: الزلزلة: الحركة الشديدة، مأخوذة من زَلَّ عن المكان: إذا زال عنه وتحرك. قال الشاعر:

يعرف الجاهل المضلل أن الد   هر فيه النكراء والزلزال

تذهل: يقال: ذهل عن الشيء: إذا انشغل عنه بشاغل. والذهول: الدهش والتَّحَيُّر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ نداء للناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة ليتلقوا الأمر بتقوى اللَّه وخشيته أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى اللَّه عنه والتفريط فيما أمر به ليستبدلوا ذلك بضده. وأول فريق من الناس دخولا في خطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هم المشركون من أهل مكة حتى قيل إن الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم. وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته بالخالقية وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيد. وتعليق التقوى بذات

الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام. وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائض وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية. وجملة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيد حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردد للسامع فيه. والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها.. قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر كبير وخطب جليل وطارق مفظع وحادث هائل وكائن عجيب. والزلزال هو: ما يحصل للنفوس من الفزع والرعب كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢] ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن ولهذا قال مفسرا له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل (مرضع) وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وقرئ (سكرى) أي: من شدة الأمر الذي صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»[٣].

قال السعدي: «يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره، مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) الأحزاب: الآية (١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٩).

القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيبا مهيلا، ثم كانت هباء منبثا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصا في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي: تحسبهم -أيها الرائي لهم- سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار.

في ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. و﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[1]. وهناك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[2] وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم. وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾[3] ويقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾[4] وإذا نادوا ربهم

(١) عبس: الآيات (٣٤-٣٧).
(٢) الفرقان: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٣) الفرقان: الآيتان (١٢و١٣).
(٤) الفرقان: الآية (١٤).

ليخرجهم منها قال: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[١] قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها لم يفقدوا منها نقيرا ولا قطميرا.

هذا والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون. فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عدته، وأن لا يلهيه الأمل فيترك العمل، وأن تكون تقوى اللَّه شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة اللَّه وذكره روح أعماله»[٢].

قال ابن القيم: «المرضع من لها ولد ترضعه والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام؛ فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع. وتأمل رحمك اللَّه تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومبادئه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ لم يكن إلا لمن ظهر حملها وصلح للوضع كاملا أو سقطا، كما يقال: ذات ولد فأتي في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو هي عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من القبور؟

فقالت جماعة من أهل العلم: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وممن قال بهذا القول: علقمة، والشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، وابن جريج. وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكنه لم يثبت

(١) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٧٠-٢٧٢).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٢١-٢٢).

ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه؛ وهو القول الآخر. . وأما حجة أهل القول الآخر القائلين: بأن الزلزلة المذكورة كائنة يوم القيامة بعد البعث من القبور، فهي ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من تصريحه بذلك، وبذلك تعلم أن هذا القول هو الصواب كما لا يخفى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهوال يوم القيامة

* عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ قال: أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال: «**أتدرون أي يوم ذلك؟** فقالوا: اللَّه ورسوله أعلم! قال: ذلك يوم يقول اللَّه لآدم: ابعث بعث النار. فقال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، قال: فأنشأ المسلمون يبكون. فقال رسول اللَّه ﷺ: قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط، إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت، وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبروا! ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فكبروا! ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبروا! قال: لا أدري قال الثلثين أم لا؟»[٢].

★ **غريب الحديث:**

بعث: البعث بمعنى المبعوث وأصلها في السرايا التي يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها ومعناها هنا ميز أهل النار من غيرهم.

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٩-١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٥) والترمذي (٥/ ٣٠٢-٣٠٣/ ٣١٦٨-٣١٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٠/ ١١٣٤٠) والحاكم (١/ ٢٨-٢٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بطوله. والذي عندي أنهما قد تحرجا من ذلك خشية الإرسال وقد سمع الحسن من عمران بن حصين، وهذه الزيادات التي في هذا المتن أكثرها عند معمر عن قتادة عن أنس وهو صحيح على شرطهما جميعا ولم يخرجاه ولا واحد منهما» ووافقه الذهبي.

الرقمة: الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل وهما رقمتان في ذراعيها.

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه ﷻ: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول اللَّه، أينا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل. قال: ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة، فحمدنا اللَّه وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فحمدنا اللَّه وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة. إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. أو كالرقمة في ذراع الحمار»[(١)].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «قال ابن العربي: لما نبأ النبي ﷺ بذكر الزلزلة التي تكون عن النفخة الأولى، ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام التي يعظمها قوله: ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ومن فزعها ما لا تطيق حمله النفوس، وهو قوله لآدم ابعث بعث النار فيكون ذلك في أثناء ذلك اليوم، ولا يقتضي أن يكون ذلك متصلا بالنفخة الأولى التي يشيب فيها الوليد وتضع الحوامل وتذهل المراضع، ولكن يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون آخر الكلام منوطا بأوله، تقديره: يقال لآدم ابعث بعث النار، أثناء يوم يشيب فيه الوليد وتضع الحوامل وتذهل المراضع من أوله.

الثاني: أن شيب الوليد ووضع الحوامل وذهول المراضع يكون في النفخة الأولى حقيقة، وفي هذا القول الثاني تكون صفته بذلك إخبارا عن شدته، وإن لم يوجد عن ذلك الشيء فيه، وهذه طريقة العرب في فصاحتها»[(٢)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢-٣٣) والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨) ومسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢/ ٢٢٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩).

(٢) التذكرة (ص١٩٤).

قوله: «**من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**» وفي حديث أبي هريرة: «**من كل مائة تسعة وتسعون**»[١]: **قال الحافظ**: «أجاب الكرماني بأن مفهوم العدد لا اعتبار له، فالتخصيص بعدد لا يدل على نفي الزائد، والمقصود من العددين واحد، وهو تقليل عدد المؤمنين وتكثير عدد الكافرين. قلت: ومقتضى كلامه الأول تقديم حديث أبي هريرة على حديث أبي سعيد فإنه يشتمل على زيادة، فإن حديث أبي سعيد يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف واحد، وحديث أبي هريرة يدل على عشرة فالحكم للزائد، ومقتضى كلامه الأخير أن لا ينظر إلى العدد أصلا بل القدر المشترك بينهما ما ذكره من تقليل العدد، وقد فتح اللَّه تعالى في ذلك بأجوبة أخر، وهو حمل حديث أبي سعيد ومن وافقه على جميع ذرية آدم فيكون من كل ألف واحد وحمل حديث أبي هريرة ومن وافقه على من عدا يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد دون حديث أبي هريرة، ويحتمل أن يكون الأول يتعلق بالخلق أجمعين والثاني بخصوص هذه الأمة، ويقربه قوله في حديث أبي هريرة «**إذا أخذ منا**» لكن في حديث ابن عباس «**وإنما أمتي جزء من ألف جزء**»[٢] ويحتمل أن تقع القسمة مرتين: مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمة، فيكون من كل ألف واحد، ومرة من هذه الأمة فقط فيكون من كل ألف عشرة، ويحتمل أن يكون المراد ببعث النار الكفار ومن يدخلها من العصاة، فيكون من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كافرا ومن كل مائة تسعة وتسعون عاصيا والعلم عند اللَّه تعالى»[٣].

قوله: «**فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها**» **قال الحافظ**: «ظاهره أن ذلك يقع في الموقف، وقد استشكل بأن ذلك الوقت لا حمل فيه ولا وضع ولا شيب، ومن ثم قال بعض المفسرين: إن ذلك قبل يوم القيامة، لكن الحديث يرد عليه، وأجاب الكرماني بأن ذلك وقع على سبيل التمثيل والتهويل، وسبق إلى ذلك النووي فقال: فيه وجهان للعلماء فذكرهما وقال: التقدير أن الحال ينتهي إلى أنه لو كانت النساء حينئذ حوامل لوضعت كما تقول العرب «**أصابنا أمر**

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٨) والبخاري (١١/ ٤٦٠/ ٦٥٢٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه: الحاكم (٤/ ٥٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح»، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٤): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».

(٣) الفتح (١١/ ٤٧٥).

يشيب منه الوليد». وأقول: يحتمل أن يحمل على حقيقته، فإن كل أحد يبعث على ما مات عليه فتبعث الحامل حاملا، والمرضع مرضعة، والطفل طفلا، فإذا وقعت زلزلة الساعة وقيل ذلك لآدم، ورأى الناس آدم وسمعوا ما قيل له وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحمل ويشيب له الطفل وتذهل به المرضعة، ويحتمل أن يكون ذلك بعد النفخة الأولى وقبل النفخة الثانية، ويكون خاصا بالموجودين حينئذ وتكون الإشارة بقوله: «فذاك» إلى يوم القيامة، وهو صريح في الآية، ولا يمنع من هذا الحمل ما يتخيل من طول المسافة بين قيام الساعة واستقرار الناس في الموقف ونداء آدم لتمييز أهل الموقف لأنه قد ثبت أن ذلك يقع متقاربا كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[1] يعني أرض الموقف، وقال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾[2] والحاصل أن يوم القيامة يطلق على ما بعد نفخة البعث من أهوال وزلزلة وغير ذلك إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار»[3].

* عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلًا قالت عائشة ﵂: فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك»[4].

★ غريب الحديث:

حفاة: ليس عليهم نعال ولا خفاف.

عراة: ليس عليهم لباس للجسد.

غرلا: لم ينقص من خلقهم شيء والغرل جمع أغرل وهو الذي لم يختن، أي أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة.

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث عند الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

---

(١) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).

(٢) المزمل: الآيتان (١٧و١٨).

(٣) الفتح (١١/ ٤٧٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣) والبخاري (١١/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٦٥٢٧) ومسلم (٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٥٩) والنسائي (٤/ ٤٢١/ ٢٠٨٣) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٩/ ٤٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

★ غريب الآية:

مَريد: أي خارج عن الحق متجرد للفساد. ومرد الرجل يمرد مرودًا: إذا خرج عن الطاعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من الناس بعضا يجادل في اللَّه بغير علم: أي يخاصم في اللَّه بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله، كالذي يدعي له الأولاد والشركاء، ويقول إن القرآن أساطير الأولين، ويقول: لا يمكن أن يحيي اللَّه العظام الرميم، كالنضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل بن هشام وأمثالهم من كفار مكة الذين جادلوا في اللَّه ذلك الجدال الباطل بغير مستند، من علم عقلي، ولا نقلي، ومع جدالهم في اللَّه ذلك الجدال الباطل يتبعون كل شيطان مريد: أي عات طاغ من شياطين الإنس والجن ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي كتب اللَّه عليه كتابة قدر وقضاء ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي كل من صار وليا له: أي للشيطان المريد المذكور، فإنه يضله عن طريق الجنة إلى النار، وعن طريق الإيمان إلى الكفر، ويهديه إلى عذاب السعير: أي النار الشديدة الوقود.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهال كالكفار يجادل في اللَّه بغير علم: أي يخاصم فيه بغير مستند من علم، بينه في غير هذا الموضع كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية وقوله تعالى في لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾[(١)] فقوله في آية لقمان هذه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، كقوله في الحج: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ وهذه الآية الكريمة التي هي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٢)] الآية يدخل فيما تضمنته من الوعيد والذم: أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزل اللَّه على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤساء الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء، بقدر ما فعلوا من ذلك، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومن الآيات الدالة على مجادلة الكفار في اللَّه بغير علم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[(٣)] وقوله في أول النحل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[(٥)] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[(٦)] وقوله تعالى: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(٧)] وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٨)] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وما ذكره اللَّه -جلّ وعلا- في هذه الآية الكريمة، من أنه قدر وقضى أن من تولى الشيطان، فإن الشيطان يضله ويهديه إلى عذاب السعير، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٩)] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(١٠)] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾[(١١)] وقوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) لقمان: الآيتان (٢٠و٢١).
(٢) الحج: الآية (٨).
(٣) يس: الآيتان (٧٧و٧٨).
(٤) النحل: الآية (٤).
(٥) الكهف: الآية (٥٦).
(٦) الشورى: الآية (١٦).
(٧) الزخرف: الآية (٥٨).
(٨) الأنعام: الآية (٢٥).
(٩) فاطر: الآية (٦).
(١٠) لقمان: الآية (٢١).
(١١) مريم: الآية (٤٥).

يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم مخالفتها: أن من يجادل بعلم على ضوء هدى كتاب منير، كهذا القرآن العظيم، ليحق الحق، ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة أن ذلك سائغ محمود لأن مفهوم قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنه إن كان بعلم، فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]»[٤].

قلت: رحم اللّٰه الشيخ الأمين على بيانه للمجادلة بغير علم، وأنها تشمل أصحاب البدع الذين جادلوا بالباطل، ولا شك أن أهل البدع طريقتهم في تأصيل بدعهم ونشرها والدعوة إليها هو تتبع الشبه والمتشابهات من كتاب اللّٰه وسنة رسوله ﷺ، ويحاولون التمسك بكل ما يؤيد بدعهم ولو كان من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتجدهم يتجهون اتجاهات كثيرة كلها مبنية على استحسان عقولهم المنكوسة، وفي الوقت الحاضر مسايرة الحضارات البراقة التي جاءت للأمم بكثير من المضار وأنستهم الشرائع وكتب اللّٰه وأنبياءه، وتمرد أكثر أتباعها على الديانات والشرائع وأصلوا حياتهم على الدينار والدرهم، وعلى القوة وعلى العدد والعدد، وعلى أن القوي يفتك بالضعيف ولا يبالي به، وأضرار هذه الحضارات لا تحصى مع ما فيها من نفع وخيرات لو وجهت واستغلت لما يخدم الشرائع.

فلهذا لو تتبع المتتبع بداية تاريخ كل بدعة لوجد مصداق قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وكتب أهل السنة التي ناقشت هذه الفرق مصداق كبير لهذه الآية ككتاب (درء تعارض العقل والنقل) للإمام ابن تيمية، وكتاب (الصواعق المرسلة) للعلامة ابن القيم، وكتب السابقين كـ(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي.

والمبتدعة المعاصرون هم امتداد لسلفهم لا يخرجون عن ذلك قيد أنملة،

---

(١) النور: الآية (٢١). (٢) النحل: الآية (١٢٥).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٦).
(٤) أضواء البيان (٥/ ١٥-١٧).

ولذلك نجد كل من ألف في نصرة البدع تجده يجادل في اللَّه بغير علم، فواقع البدع والمبتدعة هو جعل البدع مطية لمصالحهم ونزواتهم وشهواتهم ورئاستهم، فلهذا يمضون في الدفاع عنها ويزينونها للناس، وحكامهم ينفقون عليها الأموال الطائلة، ويبنون لها المراكز ويزخرفونها بأغلى أنواع الزخارف حتى تُستشرف ويقبل عليها الجهال؛ لأن الجاهل دائمًا يغلِّب المظاهر والمناظر وينسى الفحوى والأصل.

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذاما لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة اللَّه على إحياء الموتى، معرضا عما أنزل اللَّه على أنبيائه متبعا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله اللَّه على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] أي علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: (يعني الشيطان) يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق»[2].

قال المراغي: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ومن الناس من يتعاطى الجدل فيما يجوز على اللَّه من الصفات والأفعال، وما لا يجوز عليه، غير متبع في ذلك حجة ولا برهانا بل يجهل بحقيقة ما يقول، فيزعم أن اللَّه غير قادر على إحياء من بلي وصار ترابا. وأن لله ولدا، وأن القرآن ما هو إلا أسطورة من أساطير الأولين، إلى نحو ذلك من الترهات والأباطيل. وقد ذم المجادلة بغير علم فأومأ إلى أن الجدل إذا كان مع العلم والحجة والبرهان فلا يذم ولا يقبح، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3].

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ المريد المتجرد للفساد العاري عن الخير، من قولهم شجرة مرداء إذا كان لا ورق لها، ورملة مرداء إذا لم تنبت شيئا، أي ومن

---

(١) لقمان: الآية (٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٩).

(٣) النحل: الآية (١٢٥).

الناس من يتبع في كل ما يأتي وما يذر من شؤونه وأهوائه، شياطين من شياطين الإنس والجن الذين يزينون له طرق الغواية، ويسلكون به الطرق التي تزلق به في المهاوي، ويقودونه إلى الأعمال التي تصل به إلى النار، من شرك باللَّه وعبادة للأوثان والأصنام، وشرب للخمر، ولعب للميسر، إلى نحو أولئك مما يحسنون له عمله، ويكونون له فيه القادة الذين لا يرد لهم قول، ولا يقبح منهم فعل.

ثم وصف سبحانه ذلك الشيطان بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ أي قدر سبحانه أن من اتبع ذلك الشيطان وسلك سبيله أضله في الدنيا بما يوسوس له ويدسي به نفسه، ويزين لها من اتباع الغواية والفجور، وسلوك سبيل المعاصي والآثام التي توبقه في جهنم وبئس القرار. وخلاصة ذلك أنه يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، مما يجترح من السيئات، ويرتكب من الآثام»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٧/ ٨٦-٨٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

⋆ غريب الآية:

نطفة: النطفة هنا المني المخلوق منه البشر. وأصلها الماء الصافي، فعبر بها عن ماء الفحل.

علقة: دم عبيط جامد، وسميت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به.

مضغة: المضغة من اللحم قدر ما يمضغ. وهي اسم للحالة التي يصير إليها الجنين بعد العلقة.

مخلقة: أي تامة الخلقة.

هامدة: أي جافة يابسة لا نبات فيها. وأصل الهمود: السكون والبِلَى. ومنه: ثوب هامِد: أي بَلِيَ ودَرَسَ. قال الأعشى:

قالتْ قُتَيْلَةُ: ما لِجِسْمِكَ شَاحِبا ... وَأَرَى ثِيَابَكَ بِالِيَاتٍ هُمَّدا؟

ربت: من الربا وهو الزيادة. والمعنى هاهنا أنها زادت على ما حولها من الأرض.

بهيج: البهيج: الحسن الصورة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها ثم تنقلب علقة حمراء بإذن اللّه، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: (هو السقط مخلوق وغير مخلوق) فإذا مضى عليها أربعون يوما وهي مضغة أرسل اللّه تعالى إليها ملكا فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء اللّه عز وجل، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.. وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه اللّه القوة شيئا فشيئا ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: في حال شبابه وقواه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهرم، وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1]

---

(١) الروم: الآية (٥٤).

. . وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة وقال السدي: ميتة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون؛ من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[٢]. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٣] والآيات في هذا كثيرة»[٤].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها، تدل على أن جدال الكفار المذكور في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٥] يدخل فيه جدالهم في إنكار البعث، زاعمين أنه -جل وعلا- لا يقدر أن يحيي العظام الرميم، ﷻ عما يقولون علوا كبيرا، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[٦] وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[٧] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[٨] ونحو ذلك من الآيات كما قدمنا الإشارة إليه قريبا.

---

(١) فصلت: الآية (٣٩).
(٢) يس: الآية (٨٢).
(٣) يس: الآيات (٧٨-٨٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٠-٣٩٣).
(٥) لقمان: الآية (٢٠).
(٦) يس: الآية (٧٨).
(٧) الأنعام: الآية (٢٩).
(٨) الدخان: الآية (٣٥).

ولأجل ذلك أقام تعالى البراهين العظيمة على بعث الناس من قبورهم أحياء إلى عرصات القيامة للحساب والجزاء، فقال -جل وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فمن أوجدكم الإيجاد الأول، وخلقكم من التراب لا شك أنه قادر على إيجادكم، وخلقكم مرة ثانية، بعد أن بليت عظامكم، واختلطت بالتراب، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من ابتداء الفعل.

وهذا البرهان القاطع على القدرة على البعث: الذي هو خلقه تعالى للخلائق المرة الأولى المذكورة هنا، جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1] الآية وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[6] وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[7] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[8] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا، وقد أوضحنا ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما، ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث بين -جل وعلا- أن من أنكر البعث فهو ناس للإيجاد الأول كقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾[9] الآية، إذ لو تذكر الإيجاد الأول، على الحقيقة، لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني، وكقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[10] إذ لو تذكر ذلك تذكرا حقيقيا لما أنكر الخلق الثاني، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي في شك من أن الله يبعث الأموات، فالريب في القرآن يراد به الشك، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ قد قدمنا في سورة طه: أن التحقيق في معنى خلقه

---

(١) الروم: الآية (٢٧).
(٢) يس: الآية (٧٩).
(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٤) الإسراء: الآية (٥١).
(٥) ق: الآية (١٥).
(٦) الواقعة: الآية (٦٢).
(٧) القيامة: الآية (٣٧).
(٨) القيامة: الآية (٤٠).
(٩) يس: الآية (٧٨).
(١٠) مريم: الآيتان (٦٦و٦٧).

للناس من تراب، أنه خلق أباهم آدم منها، ثم خلق منه زوجه، ثم خلقهم منهما عن طريق التناسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[1] الآية، فلما كان أصلهم الأول من تراب، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب لأن الفروع تبع للأصل.

وقد بينا في طه أيضا أن قول من زعم أن معنى خلقه إياهم من تراب: أنه خلقهم من النطف، والنطف من الأغذية، والأغذية راجعة إلى التراب غير صحيح، وقد بينا هناك الآيات الدالة على بطلان هذا القول.

وقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أطوار خلق الإنسان، فبين أن ابتداء خلقه من تراب كما أوضحنا آنفا، فالتراب هو الطور الأول.

والطور الثاني هو النطفة، والنطفة في اللغة: الماء القليل، ومنه قول الشاعر وهو رجل من بني كلاب:

وما عليك إذا أخبرتني دنفا وغاب بعلك يوما أن تعوديني

وتجعلي نطفة في القعب باردة وتغمسي فاك فيها ثم تسقيني

فقوله: وتجعلي نطفة: أي ماء قليلا في القعب، والمراد بالنطفة في هذه الآية الكريمة: نطفة المني، وقد قدمنا في سورة النحل: أن النطفة مختلطة من ماء الرجل، وماء المرأة، خلافا لمن زعم: أنها من ماء الرجل وحده.

الطور الثالث: العلقة: وهي القطعة من العلق، وهو الدم الجامد فقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة دم جامدة، ومن إطلاق العلق على الدم المذكور قول زهير:

إليك أعملتها فتلا مرافقها شهرين يجهض من أرحامها العلق

الطور الرابع: المضغة: وهي القطعة الصغيرة من اللحم، على قدر ما يمضغه الآكل، ومنه قوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»[2] الحديث.

---

(١) آل عمران: الآية (٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٠) والبخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩) وابن ماجه (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤). وأخرجه دون موضع الشاهد: أبو داود (٣/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣٣٢٩) والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥) والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥) كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ في معناه أوجه معروفة عند العلماء، سنذكرها إن شاء الله، ونبين ما يقتضي الدليل رجحانه، منها أن قوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة للنطفة وأن المخلقة: هي ما كان خلقا سويا، وغير المخلقة: هي ما دفعته الأرحام من النطفة، وألقته قبل أن يكون خلقا، وممن روي عنه هذا القول عبد الله بن مسعود ﷺ نقله عنه ابن جرير وغيره، ولا يخفى بعد هذا القول، لأن المخلقة وغير المخلقة من صفة المضغة، كما هو ظاهر.

ومنها: أن معنى مخلقة: تامة، وغير مخلقة: أي غير تامة، والمراد بهذا القول عند قائله: أن الله -جل وعلا- يخلق المضغ متفاوتة، منها: ما هو كامل الخلقة، سالم من العيوب، ومنها: ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس، في خلقهم، وصورهم، وطولهم. وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم.

وممن روي عنه هذا القول: قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره، وعزاه الرازي لقتادة والضحاك. ومنها: أن معنى مخلقة مصورة إنسانا، وغير مخلقة: أي غير مصورة إنسانا كالسقط الذي هو مضغة، ولم يجعل له تخطيط وتشكيل، وممن نقل عنه هذا القول، مجاهد، والشعبي، وأبو العالية كما نقله عنهم ابن جرير الطبري. ومنها: أن المخلقة: هي ما ولد حيا، وغير المخلقة: هي ما كان من سقط.

وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس ﷺ. وقال صاحب الدر المنثور: إنه أخرجه عنه ابن أبي حاتم وصححه ونقله عنه القرطبي وأنشد لذلك قول الشاعر:

أفي غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء

وقال أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: المخلقة: المصورة خلقا تاما. وغير المخلقة: السقط قبل تمام خلقه، لأن المخلقة، وغير المخلقة من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقا سويا إلا التصوير. وذلك هو المراد بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ خلقا سويا، ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير، ولا ينفخ الروح. انتهى منه.

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير: اختاره أيضا غير واحد من أهل العلم.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري

-رحمه الله تعالى-، لا يظهر صوابه، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك وهي قوله -جل وعلا- في أول الآية ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى: ثم خلقناكم من مضغة مخلقة، وخلقناكم من مضغة غير مخلقة. وخطاب الناس بأن اللّٰه خلق بعضهم من مضغة غير مصورة، فيه من التناقض، كما ترى فافهم.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة: السقط، لأن قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يفهم منه أن هناك قسما آخر لا يقره اللّٰه في الأرحام، إلى ذلك الأجل المسمى، وهو السقط.

فالجواب: أنه لا يتعين فهم السقط من الآية، لأن اللّٰه يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر، وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء.

أما السقط: فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ الآية، لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتا، ولو بعد التشكيل والتخطيط، لم يخلق اللّٰه منه إنسانا واحدا من المخاطبين بقوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية. فظاهر القرآن يقتضي أن كلا من المخلقة، وغير المخلقة: يخلق منه بعض المخاطبين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآية.

وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية، هو القول الذي لا تناقض فيه، لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضا، لا ليتناقض بعضه مع بعض، وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشاف ولم يحك غيره: وهو أن المخلقة: هي التامة، وغير المخلقة: هي غير التامة.

قال الزمخشري في الكشاف: والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه. من قولهم صخرة خلقاء، إذا كانت ملساء، كأن اللّٰه تعالى يخلق المضغ متفاوتة.

منها: ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب. ومنها: ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم. انتهى منه.

وهذا المعنى الذي ذكره الزمخشري معروف في كلام العرب، تقول العرب: حجر أخلق: أي أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء، وصخرة خلقاء بينة الخلق: أي ليس فيها وصم، ولا كسر، ومنه قول الأعشى:

قد يترك الدهر في خلقاء راسية وهيا وينزل منها الأعصم الصدعا

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر لي، لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض، واللَّه -جل وعلا- أعلم.

وقوله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أي لنبين لكم بهذا النقل من طور إلى طور، كمال قدرتنا على البعث بعد الموت، وعلى كل شيء، لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا، مع ما بين النطفة والتراب من المنافاة والمغايرة، وقدر على أن يجعل النطفة علقة، مع ما بينهما من التباين والتغاير، وقدر على أن يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاما، فهو قادر بلا شك على إعادة ما بدأه من الخلق، كما هو واضح. وقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ الظاهر أنه متعلق بخلقناكم، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية: أي خلقناكم خلقا من بعد خلق على التدريج المذكور: لنبين لكم قدرتنا على البعث وغيره.

وقال الزمخشري مبينا نكتة حذف مفعول: لنبين لكم ما نصه: ورود الفعل غير معدى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر، ولا يحيط به الوصف. انتهى منه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي نقر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها، من الأحمال، والأجنة إلى أجل مسمى: أي معلوم معين في علمنا، وهو الوقت الذي قدره اللَّه لوضع الجنين، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاؤه اللَّه -جل وعلا-، فتارة تضعه أمه لستة أشهر، وتارة لتسعة، وتارة لأكثر من ذلك. وما لم يشأ اللَّه إقراره من الحمل مجته الأرحام وأسقطته، ووجه رفعه: ونقر أن المعنى: ونحن نقر في الأرحام، ولم يعطف على قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لأنه ليس علة لما قبله، فليس المراد: خلقناكم

من تراب، ثم من نطفة، لنقر في الأرحام ما نشاء، وبذلك يظهر لك رفعه، وعدم نصبه، وقراءة من قرأ: ونقر بالنصب عطفا على: لنبين، على المعنى الذي نفيناه على قراءة الرفع، ويؤيد معنى قراءة النصب قوله بعده: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ﴾ وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي وذلك بعد أن يخلق اللَّه المضغة عظاما، ثم يكسو العظام لحما، ثم ينشئ ذلك الجنين خلقا آخر، فيخرجه من بطن أمه في الوقت المعين لوضعه في حال كونه طفلا: أي ولدا بشرا سويا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ﴾ أي لتبلغوا كمال قوتكم، وعقلكم، وتمييزكم بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم في غاية الضعف وعدم علم شيء.

وقد قدمنا أقوال العلماء في المراد بالأشد، وهل هو جمع أو مفرد مع بعض الشواهد العربية في سورة الأنعام، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي ومنكم أيها الناس من يتوفى من قبل: أي من قبل بلوغه أشده، ومنكم من ينسأ له في أجله، فيعمر حتى يهرم فيرد من بعد شبابه وبلوغه غاية أشده إلى أرذل العمر، وهو الهرم، حتى يعود كهيئته في حال صباه من الضعف، وعدم العلم.

وقد أوضحنا كلام العلماء في أرذل العمر ومعنى ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ في سورة النحل، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وهذا الذي ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته، على بعث الناس بعد الموت، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة إلى آخر الأطوار المذكورة، ذكره -جل وعلا- في مواضع من كتابه مبينا أنه من البراهين القطعية على قدرته، على البعث وغيره.

فمن الآيات الذي ذكر فيها ذلك من غير تفصيل لتلك الأطوار قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ

(١) المعارج: الآية (٣٩).

خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[١] أي طورا بعد طور كما بينا، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾[٢] وقوله في آية الزمر هذه في ظلمات ثلاث: أي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض وكساها اللحم، وجعل فيها العروق والعصب، وفتح مجاري البول والغائط، وفتح العيون والآذان والأفواه، وفرق الأصابع وشد رؤوسها بالأظفار، إلى غير ذلك من غرائب صنعه وعجائبه، وكل هذا في تلك الظلمات الثلاث، لم يحتج إلى شق بطن أمه وإزالة تلك الظلمات.

سبحانه -جل وعلا- ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾[٣]، ولأجل هذه الغرائب والعجائب من صنعه تعالى، قال بعد التنبيه عليها: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ ومن الآيات التي أوضح فيها تلك الأطوار على التفصيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾[٤] وقد ذكر تعالى تلك الأطوار مع حذف بعضها في قوله في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٥] وقوله تعالى في الكهف: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ

---

(١) نوح: الآيتان (١٣و١٤).
(٢) الزمر: الآية (٦).
(٣) آل عمران: الآية (٦).
(٤) المؤمنون: الآيات (١٢-١٦).
(٥) غافر: الآية (٦٧).
(٦) الكهف: الآية (٣٧).
(٧) النحل: الآية (٤).
(٨) يس: الآية (٧٧).

﴿أَمْشَاجٍ﴾[١] الآية وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات وقد بينت السنة الصحيحة القدر الذي تمكثه النطفة قبل أن تصير علقة، والقدر الذي تمكثه العلقة، قبل أن تصير مضغة، والقدر الذي تمكثه المضغة مضغة»[٤].

قال ابن القيم: «يقول سبحانه إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقا جديدا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟

وقد أعاد اللّه سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات وأدلها وأفصحها وأقطعها للعذر وألزمها للحجة كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾[٥] فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق القدرة بكل واحدة منهما»[٦].

وقال أيضا عند قوله تعالى في آية الباب: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: «جعل اللّه سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

---

(١) الإنسان: الآية (٢).
(٢) العلق: الآية (٢).
(٣) طه: الآية (٥٥).
(٤) أضواء البيان (٥/ ١٩-٢٨).
(٥) الواقعة: الآيات (٥٨-٦٢).
(٦) إعلام الموقعين (١/ ١٤٠-١٤١).

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارا لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرة وذكرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾[1] فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصر به»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾

* عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[3].

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«وكل الله بالرحم ملكا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب، ذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»**[4].

* عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول: **«إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة»**.

وفي لفظ: **«إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها**

---

(١) ق: الآيتان (٧و٨). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٤٤-١٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢ و٤٣٠) والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣) وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) مختصرا.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦-١١٧) والبخاري (١١/ ٥٨٣/ ٦٥٩٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٨/ ٢٦٤٦).

وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب، أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب، رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص».

وفي لفظ: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد؟ فيكتبان فيقول: أي رب، أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص»[1].

★ **فوائد الأحاديث:**

تقدمت فوائد هذه الأحاديث في سورة الأعراف الآية (٣٠) وفي سورة الرعد الآيتان (٨و٩).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٦-٧) ومسلم (٤/ ٢٠٣٧/ ٢٦٤٤) و(٤/ ٢٠٣٧/ ٢٦٤٥[٣])، و(٤/ ٢٠٣٨/ ٢٦٤٥[٤]).

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

عطفه: العطف : الجانب . وهو كناية عن التكبر ، نحو : لوى جيده ، وصعر خده . وعطف الإنسان جانباه يمينًا وشمالًا من عند رأسه إلى وركه .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي بلا عقل صحيح ولا نقل صحيح صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى . وقوله : ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس وغيره : مستكبرا عن الحق إذا دعي إليه . وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي : لاوي عنقه ، وهي رقبته . يعني : يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكبارا كقوله تعالى : ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[2] وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[3] وقال لقمان لابنه :

---

(١) الذاريات : الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) النساء : الآية (٦١).

(٣) المنافقون : الآية (٥).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[(١)] أي تميله عنهم استكبارا عليهم وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾[(٢)].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل اللّه. ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات اللّه لقاه اللّه المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له هذا تقريعا وتوبيخا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ㊼ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ㊽ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ㊾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ㊿﴾[(٣)]»[(٤)].

قال السعدي: «المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يجادل رسل اللّه وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صحيح ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: واضح بين، فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحيها إليه الشيطان ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[(٥)] ومع هذا ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق. فقد فرح بما معه من العلم الغير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات اللّه العجيبة، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

---

(١) لقمان: الآية (١٨).
(٢) لقمان: الآية (٧).
(٣) الدخان: الآيات (٤٧-٥٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٤-٣٩٥).
(٥) الأنعام: الآية (١٢١).

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي. وما فيه من معنى البعد، وهو معنى اللام في ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوعة للدلالة على البعد، للدلالة على كون الكافر في الغاية القصوى من الهول والفظاعة. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبيده بغير ذنب من قبلهم.

والمعنى الإجمالي أنه يقال للكافر الموصوف بتلك الأوصاف في الآيتين السابقتين: ذلك الذي تلقاه من خزي وعذاب، إنما كان بسبب افترائك وتكبرك، لأن اللّه عادل لا يظلم، ولا يسوي بين المؤمن والكافر، والصالح والفاجر، بل يجازي كلا منهم بعمله»[1].

قال ابن القيم: «إن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ليس عندهم علم ولا هدى ولا كتاب مبين فمعارضتهم باطلة وهم فيها أتباع كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾. فهذه حال كل من عارض آيات اللّه بمعقوله ليس عنده إلا الجهل والضلال ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب فبدأ بالأعم وهو العلم وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله ثم انتقل منه إلى ما هو أخص وهو الهدى ثم انتقل إلى ما هو أخص وهو الكتاب المبين فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل وأخص منه الكتاب الذي أنزله اللّه على رسوله فإن الهدى قد يكون كتابا وقد يكون سنة وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعا أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل فقد قالوا إنه لا يفيد علما ولا يقينا والمعقول يعارضه فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة وبقي العلم فهم يدعونه واللّه تعالى قد نفاه عنهم وقد قام البرهان والدليل العقلي المستلزم لمدلوله على صدق الرب في خبره فعلم قطعا أن هذا الذي عارضوا به الوحي ليس بعلم إذ لو كان علما لبطل دليل العقل الدال على صدق الرب تعالى في خبره فهذا يكفي في العلم بفساد كون ما عارضوا به علما فكيف وقد قام الدليل العقلي الصحيح المقدمات على فساد تلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

المعارضة وأنها تخص الجهل المركب فكيف وقد اتفق على فساد تلك المعارضة العقل والنقل ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من ثلاث إما كتاب منزل أو أثارة من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء أو معقول صحيح المقدمات وقد اتفق العقلاء على صحة مقدماته، وهم يعلمون والله شهيد عليهم بأنهم عاجزون عن هذا وهذا فترك ما علمناه من كتاب ربنا وسنة نبينا وما نزل به جبريل من رب العالمين على قلب رسوله الأمين بلسان عربي مبين لوحي الشياطين وشبه الملحدين وتأويلات المعطلين»[1].

قال شيخ الإسلام: «أصل طريق من يعارض النصوص النبوية برأيه وعقله هي طريق أهل النفاق والإلحاد وطريق أهل الجهل والارتياب، لا طريق ذي عقل ولا ذي دين.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

فإنه قد يقال: هذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله، فإنه لا علم عنده، إذ ذلك المعارض وإن سماه معقولا فإنه جهل وضلال، فليس بعلم ولا عقل ﴿وَلَا هُدًى﴾، إذ لا إيمان عنده ليكون مهتديا، فإن المهتدين الذين على هدى من ربهم هم مؤمنون بما جاء به الرسول، ﴿وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، فإن الكتاب المنير لا يناقض كتاب الله. وهؤلاء المعارضون ليس عندهم لا علم ولا إيمان ولا قرآن، فهم يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

واسم (العلم) يتناول هذا وهذا، لكن هو من باب عطف الخاص على العام، ولهذا ذكر تارة وحذف أخرى، وذلك أنه قد يقال: إنه سبحانه ذكر ثلاثة أصناف:

صنف يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد مكتوب عليه إضلال من تولاه، وهذه حال المتبع لمن يضله.

وصنف يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاني عطفه ليضل عن

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٦-١٠٨٨).

سبيل اللَّه، وهذه حال المتبوع المستكبر الضال عن سبيل اللَّه.

ثم ذكر حال من يعبد اللَّه على حرف، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عبد اللَّه، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه، فهذه حال من كان مريضا في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء.

ولهذه ذكر اللَّه ذلك في العبادة التي أصلها القصد والإرادة، وأما الأولان: فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد والجدال بالباطل. فإنه تعالى يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا بد للعبد من معرفة الحق وقصده. كما قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾[1] فمن لم يعرفه كان ضالا، ومن علم ولم يتبعه كان مغضوبا عليه.

كما أن أول الخير الهدى، ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة من اتباع الأهواء كما جمع بينهما في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[2].

فقال أولا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وكل من جادل في اللَّه بغير هدى ولا كتاب منير فقد جادل بغير علم أيضا، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علما بأي طريق حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلا بهدى أو كتاب منير، ولكن هذه حال الضال المتبع لمن يضله، فلم يحتج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، كتب على ذلك الشيطان أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير. وهذه حال مقلد أئمة الضلال بين أهل الكتاب وأهل البدع، فإنهم يجادلون في اللَّه بغير علم، ويتبعون من شياطين الجن والإنس من يضلهم.

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثني عطفيه تكبرا كما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[3] وقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝﴾[4].

---

(١) الفاتحة: الآيتان (٦و٧).
(٢) النجم: الآية (٢٣).
(٣) لقمان: الآية (٧).
(٤) القيامة: الآيات (٣١-٣٣).

وهذا النوع يجادل ليضل عن سبيل اللَّه، وجداله بغير علم أيضا، ولكن فصل حاله، فبين أنه لا يجادل بهدى كإيمان المؤمن، ولا بكتاب منير كالجدال بكتاب منزل من السماء، فليس معه علم من هذا الطريق ولا من غيرها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾(١) وكل من لم يصدق لم يصل. وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(٣).

ومثل هذا كثير، قد ينفى الشيء الذي نفيه يستلزم نفي غيره، لكن تذكر تلك اللوازم على سبيل التصريح للفرق بين دلالة اللوازم ودلالة المطابقة، كما قد ذكرنا نحو ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾(٤) وأن كل من لبس بالباطل فلا بد أن يكتم بعض الحق، وبينا أن هذا ليس من باب النهي عن المجموع المقتضي لجواز أحدهما، ولا من باب النهي عن فعلين متباينين، حتى لا يعاد فيه حرف النفي، بل هو من باب النهي عن المتلازمات. كما يقال: لا تكفر وتكذب بالرسول، ولا تجادل في اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

والمقصود أن كل من عارض كتاب اللَّه بمعقوله أو وجده أو ذوقه، وناظر على ذلك، فقد جادل في اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ليضل عن سبيل اللَّه، فإن كتاب اللَّه هو سبيل الله»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المتكبرين ورثة إبليس والمتواضعين ورثة الأنبياء والرسل والصالحين

* عن حارثة بن وهب الخزاعي عن النبي ﷺ قال: **ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على اللَّه لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**(٦).

---

(١) القيامة: الآية (٣١).
(٢) المدثر: الآيات (٤٣-٤٦).
(٣) الحاقة: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) البقرة: الآية (٤٢).
(٥) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٦٢-٢٦٧).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٦) والبخاري (١٠/ ٦٠٠/ ٦٠٧١) ومسلم (٤/ ٢١٩٠/ ٢٨٥٣) وأبو داود (٥/ ١٥١/ ٤٨٠١) والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٥) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٥) وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٦).

* وفي رواية مسلم: «**كل ضعيف متضعف**».

★ غريب الحديث:

ضعيف متضعف: ضبطوا قوله متضعف بفتح العين وكسرها، والمشهور الفتح ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا. يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر فمعناها: متواضع متذلل خامل واضع من نفسه[١].

عتل: بضم العين والتاء هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظ الغليظ.

جواظ: بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة فهو الجموع المنوع: وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل: الفاخر بالخاء.

* عن أنس بن مالك قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[٢].

★ فوائد الحديثين:

قوله: «**كل ضعيف متضعف**»، **قال القاضي عياض**: «هو صفة نفي الكبرياء والجبروت التي هي صفة أهل النار ومدح التواضع والخمول والتذلل لله ﷻ وحض عليه. وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها، وإجابتها للإيمان كما قال: «**أتاكم أهل اليمن أضعف قلوبًا**»[٣]. ويروى «ألين» و«أرق أفئدة». وقد يكون المراد أنها لأكثر أهل الجنة؛ أي: ضعف الناس عامتهم، والمستضعفون المحتقرون في الدنيا عند أهلها منهم، وهو الأظهر بالحديث كما قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[٤]، وكقولهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾[٥]، وهم سواء المؤمنين وجمهورهم كما قدمناه؛ ولأن أهل الظهور في الدنيا والرياسة يحجبهم ذلك عن الإيمان؛ لقساوة قلوبهم وشموخ نفوسهم، واستكبارهم ورغبتهم في

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٦٠٠/ ٦٠٧٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٢)، والبخاري (٨/ ١٢٤/ ٤٣٩٠)، ومسلم (١/ ٧١/ ٥٢)، والترمذي (٥/ ٦٨٢/ ٣٩٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) الشعراء: الآية (١١١).
(٥) الأنعام: الآية (٥٣).

الاتباع، ولأن أكثر الكفار والعتاة والمترفين بخلاف هذه الصفة التي وصف بها أهل الجنة، وبالصفة التي وصف بها أهل النار، فالحال راجعة في الوجهين إلى الأكثر الأغلب»[١].

قال القرطبي: «يعني بذلك أن الغالب على صفة أهل الجنة الضعيف عن نيل الدنيا، ومالها وجاهها ومناصبها، وإيثار الخمول والتواضع فيها، يلبسون زري الملابس، ولا يلتفتون إلى فاخر المراكب، ولا إلى صدور المجالس، علما منهم بأنهم على جادة سفر، وأن الدنيا ليست بمقر، فأحوالهم أحوال المسافرين المرملين. فهم كما وصفهم النبي ﷺ بقوله: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على اللَّه لأبره**»[٢]، والأشعث المتلبد الشعر، والأغبر الذي علته غبرة الغبار، والأطمار الثياب الرثة، ولا يؤبه له لا يلتفت إليه، يقال: فلان لا يؤبه، ولا يؤبه له أي: لا يبالى به. ابن السكيت: ما وبهت به، وما وبهت له، أي: ما فطنت له. وأنت تيبه بكسر التاء مثل تيجل، أي: تبالي. فإن قيل: كيف تكون هذه أوصاف أهل الجنة، وكيف تحمد هذه الأوصاف، وقد أمر الشرع بالنظافة والزينة في الجمع والأعياد والتطيب، وكان النبي ﷺ يتطيب ويتنظف، ويتزين للوفود وللجمع والأعياد. قلنا: لا تناقض بين هذا، وبين ما وصف به النبي ﷺ أهل الجنة، فإنه ﷺ إنما وصف هؤلاء القوم بأغلب أحوالهم. وغالب أحوالهم ملازمة الأسفار الشرعية من الحج والجهاد، والسياحة في الأرض، والفرار بأديانهم من الفتن. ومع ذلك كله فيتنظفون النظافة الشرعية، ويتزينون التزين الشرعي إذا حضر وقته، وأمكنهم ذلك ويحضرون جماعات المسلمين وجمعاتهم. فهم مع الناس كائنون، وعنهم بائنون، داخلون في غمارهم، ومستترون بخمولهم وأطمارهم، وقد توجهوا إلى الحق، وأعرضوا عن الخلق. وعلى الجملة فمقصود هذا الحديث أن أحوال أهل الجنة على النقيض من أحوال أهل النار، ألا ترى أنه قابل أهل الجنة وذكر نقائضها في أهل النار»[٣].

قال الشيخ محمد صالح بن عثيمين: «أما المستكبر فهو الذي جمع بين وصفين:

---

(١) إكمال المعلم (٨/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) أخرجه: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أحمد (٣/ ١٤٥) والترمذي (٥/ ٦٥٠/ ٣٨٥٤) وقال: «حديث صحيح حسن».

(٣) المفهم (٧/ ١٦٩-١٧٠).

غمط الناس، وبطر الحق، لأن النبي ﷺ قال: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)] وبطر الحق: يعني رده، وغمط الناس: يعني احتقارهم، فهو في نفسه عال على الحق، وعال على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله. فهذه علامات أهل النار»[(٢)].

وقال أيضا: «فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله، وربما يكون صاحب النار لين الجانب للناس، حسن الأخلاق، لكنه جبار بالنسبة للحق، مستكبر عن الحق، فلا ينفعه لين جانبه وعطفه على الناس، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء، ولو كان لين الجانب للناس، لأنه تجبر واستكبر عن الحق»[(٣)].

قال الحافظ بخصوص الحديث الثاني: «والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد. وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: «**حيث شاءت**» أي من الأمكنة. والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ»[(٤)].

* * *

(١) طرف من حديث عن عبد الله بن مسعود أخرجه بطوله مع ذكر الشاهد: مسلم (١/ ٩٣/ ٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٩) وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وبطوله دون ذكر محل الشاهد: أبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٢٢-٢٣/ ٥٩).
وأخرجه بطوله مع ذكر الشاهد لكن باختلاف لفظه: «..**الكبر من سفه الحق، وازدرى الناس**»: أحمد (١/ ٣٩٩).

(٢) شرح رياض الصالحين (٥/ ٥٨).

(٣) شرح رياض الصالحين (٥/ ٦٢).

(٤) الفتح (١٠/ ٦٠١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

⋆ غريب الآية:

على حرف: أي على طرف. وحرف الشيء جانبه وطرفه.

اطمأن: الاطمئنان: السكون والاستقرار.

فتنة: محنة ومصيبة.

انقلب: رجع ونكص على عقبيه.

العشير: الصاحب والخليل، المُعَاشِر: قَرُبَ أم بَعُدَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ على شك. وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أي: طرفه أي دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر.. وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن وقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس

هذا الذي دعاه من دون اللّه مولى يعني وليا وناصرا ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام واللّه أعلم»[1].

قال السعدي: «أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي: إن استمر رزقه رغدا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن اللّه يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي: ارتد عن دينه، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أما في الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأسا لماله، وعوضا عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: الواضح البين. ﴿يَدۡعُواْ﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون اللّه، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ الذي بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ أي: هذا المعبود ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم»[2].

قال المراغي: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، فهو في قلق واضطراب فيه لا في سكون وطمأنينة، فمثله مثل الذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٧٩-٢٨٠).

يكون على طرف من العسكر إن أحس بغنيمة قر وسكن، وإن كانت هزيمة فر وهام على وجهه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي فإن أصابه رخاء وسعة في العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد اللّه، وإن أصابه شر وبلاء في جسمه أو ضيق في معيشته ارتد ورجع إلى الكفر.

والثبات في الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر في السراء ويختفي لدى الضراء، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾(١) وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾(٢).

وخلاصة ذلك أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو مرجحن(٣) مضطرب مذبذب، يعبد اللّه على وجه التجربة انتظارا للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمنا، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال أو فقد ولد ترك دينه وارتد كافرا.

ثم بين سوء عاقبة عمله فقال: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ أي ضيع نفعهما وزالت عنه فائدتهما فإنه خسر في الدنيا العز والكرامة وإصابة الغنيمة، وخسر في الآخرة الثواب الدائم، بل حل به العقاب اللازب. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الخسران الذي لا خسران مثله لمن تدبر فيه وتفكر. ثم أكد عظم ذلك الخسران بقوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ﴾ أي يعبد من دون اللّه آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا، ولا منفعة له في الآخرة إن عبدها.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون اللّه هو السير على غير استقامة والذهاب على غير هدى، فما مثله إلا مثل من أبعد في التيه ضالا، وبعدت مسافة ضلاله، فلم يهتد إلى الصراط السوي، ولم ينل ما يبتغى وبلغت به الحيرة كل مبلغ»(٤).

---

(١) النساء: الآية (١٤٣). (٢) النساء: الآية (١٤١).

(٣) قال في اللسان: ارجحن الشيء: اهتز. وارجحن: وقع بمرة. وارجحن: مال. قال الأصمعي: المرجَحِن: المائل.

(٤) تفسير المراغي (١٧/ ٩٤-٩٥).

قال عبدالكريم الخطيب: «قوله تعالى: أي: أن هذا الضال الذي دعا غير اللَّه لكشف ضره، إنما يدعو من يضر ولا ينفع، وفيه يصدق قول القائل:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فالالتجاء إلى غير اللَّه مضلة إذ لا يملك أحد معه من الأمر شيئًا ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1]، وهؤلاء الذين يلجأ إليهم المكروبون من أصنام أو حيوان أو إنسان، إنما ضرهم أقرب وأكثر من نفعهم، ذلك أنهم إن وجد فيها عابدوهم بعض الراحة النفسية بما يداعب خيالهم من آمال كاذبة، وهم يفزعون إليهم، ويضرعون تحت أقدامهم، فإن الأمر سينجلي عن خيبة، وينكشف عن حسرة إذ كان قد فاتهم أن يعملوا جهدهم في علاج البلاء الذي وقع بهم، أو أن يوطنوا النفس على احتماله، فإذا انكشف الأمر عن عجز هؤلاء المعبودين عن مد العون في هذا الموقف، كان الخطب أفدح، والمصيبة أعظم.

وهكذا شأن كثير من الذين يفزعون إلى الأضرحة، ويتعلقون بأبوابها وأستارها، ويتمسحون بأعتابها وترابها، كلما مسهم ضر، أو كربهم كرب. فتراهم هناك يقضون أيامهم ولياليهم في ترديد عبارات الرجاء، وطلب الغوث، غير ناظرين إلى ما طرفهم من أحداث، وما جل بهم من ضر، فلا يعالجونه بالجد والعمل، ولا يلقونه بالأسباب العاملة في دفعه، أو تخفيف أثره، منتظرين هذه القوى الخفية التي يلمحونها من وراء تلك الأضرحة أن تقوم عنهم بما كان يجب أن يقوموا هم به، وأن تتولى عنهم ما كان ينبغي أن يتولوه هم بأنفسهم.

ومن غير دخول أو تعرض إلى ما تضم هذه الأضرحة من صلاح وتقوى فيمن أودعوا فيها من عباد اللَّه لصالحين، ومن غير اعتراض أو تعرض لما لأولياء اللَّه من كرامات في الدنيا، ومن غير بحث أو جدل فيما قد يكون أو لا يكون من اتصال كراماتهم في حياتهم وبعد موتهم؛ فإن الذي يقضي به العقل وتوجبه سنن الحياة هو أن تعالج الأمور بأسبابها، وأن تؤتى إليها من أبوابها، وأن يلقاها الأحياء بواقع الحياة، والآ يسلموها إلى ذلك الغيبيات التي لا يرون مجرياتها، ولا يدرون ما تأتي وما تدع من أمور.

هذا ما يقضي به العقل، وما تفرضه سنن الحياة، وهو عين ما يقضي به الإيمان

(١) يونس: الآية (١٠٧).

باللَّه، حيث أوجب الإيمان على المؤمنين أن يعملوا، وأن يواجهوا الحياة بعقولهم وحواسهم وقواهم العقلية والجسدية معا، وأن يتقبلوا بعد هذا ما يعطيهم جهدهم من ثمر قليل أو كثير، فإن أصابهم خير حمدوا اللَّه وشكروا له، وإن أصابهم ضر استعانوا اللَّه بالصبر عليه، والتمسوا العافية وكشف الضر منه.

هذا هو سبيل المؤمنين، الذين يمتثلون أمر اللَّه سبحانه بالعمل، كما يقول سبحانه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾[1] ثم يسلمون أمورهم كلها له سبحانه، غير ناظرين إلى غيره، أو طامعين في غير فضل من فضله أو رحمة من رحمته.

هذا وقد أشرنا إلى هذا في مبحث تحت عنوان «الوسيلة والتوسل» فليرجع إليه من شاء.

وفي قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ هو ذم لهؤلاء المعبودين لا من حيث ذواتهم وأشخاصهم، وإنما من حيث العون الذي ينتظره العابدون منهم، فهم لا يملكون اهم من اللَّه شيئا، كما يقول ﷻ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[2] فالذم متجه إلى الثمرة المرجوة من هؤلاء المعبودين، إنها سراب ينخدع له أولئك الذين تتعلق أبصارهم به، وتنعقد آمالهم عليه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حالة المنافقين الشاكين الذين إذا أعطوا رضوا وإن لم يعطوا سخطوا

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «إن اللَّه يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج من عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية اللَّه

---

(١) التوبة: الآية (١٠٥).
(٢) فاطر: الآية (١٤).
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٦-٩٩٨).
(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٥٦٥/ ٤٧٤٢).

على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد اللَّه على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه، فإما أن يخرج تبرا أحمر، وإما أن يخرج زغلا محضا. وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهبا خالصا، فلو علم العبد أن نعمة اللَّه عليه في البلاء ليست بدون نعمة اللَّه عليه في العافية، لشغل قلبه بشكره ولسانه. اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه، وصيره تبرا خالصا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر، فنسأل اللَّه أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه»[1].

* * *

(١) طريق الهجرتين (ص٢٧٧,-٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات ولما ذكر أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾»(١).

قال أبو السعود: «استئنافٌ جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنينَ العابدينَ له تعالى، وأنَّ اللَّه ﷻ يتفضَّل عليهم بما لا غايةَ وراءه، من أجلِّ المنافعِ وأعظمِ الخيراتِ إثرَ بيانِ غايةِ سوءِ حالِ الكفرةِ ومآلِهم من فريقَيْ المجاهرينَ والمذبذبينَ، وأنَّ معبودَهم لا يُجديهم شيئاً من النَّفع، بل يضرُّهم مضرَّةً عظيمةً، وأنَّهم يعترفون بسوءِ ولايتِه وعشرتِه، ويذمونه مذمة عامة.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنَّاتٍ، فإن أُريد بها الأشجارُ المتكاثفة السائرة لما تحتها؛ فجريانُ الأنهارِ من تحتها ظاهرٌ، وإنْ أُريد بها الأرضُ فلا بُدَّ من تقدير مضافٍ، أي: من تحت أشجارِها، وإن جُعلت عبارةً عن مجموعُ الأرضِ والأشجارِ فاعتبارُ التَّحتيَّةِ بالنَّظرِ إلى الجزءِ الظاهرِ المصحِّح لإطلاقِ اسمِ الجنَّةِ على الكلِّ، كما مر تفصيله في أوائل سورةِ البقرةِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليلٌ لما قبلَه، وتقريرٌ له بطريقِ التَّحقيقِ، أي يفعلُ البتة كلَّ ما يريدُه من الأفعالِ المتقنةِ اللائقةِ المبنيَّةِ على الحكمِ الرَّائقةِ، التي من جُملتها إثابةُ مَن آمنَ به وصدق رسول اللَّه ﷺ، وعقابُ مَن أشركَ به وكذب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٧).

برسولِ اللَّه ﷺ»[١].

قال المراغي: «لما ذكر في الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبوديهم، عطف على ذلك بذكر حال المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، وعملوا الصالحات وتركوا المنكرات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ أي إن اللَّه سبحانه يتفضل على المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال، ويكافئهم لقاء إحسانهم، بدخول الجنات التي تجري من تحت أشجارها الأنهار جزاء وفاقا على ما قاموا به من جليل الأعمال، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال.

ولما بين سبحانه حال الفريقين ذكر أنه قادر على أن يفعل بهما ما يشاء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه، لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه، فهو يعطي المتقين ضروبا من الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾[٢] ويدخل الكافرين نارا وقودها الناس والحجارة، لما دسوا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق»[٣].

قال عبدالكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ إشارة إلى سلطان اللَّه وقدرته ومشيئته المطلقة، وأنه يفعل ما يريد دون معترض أو معوق أو معقب، وفي هذا تعريض بالآلهة التي يعبدها الضالون من دون اللَّه حيث هي في قيد العجز، لا تملك ضرا ولا نفعا»[٤].

* * *

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٩٨-٩٩).

(٢) النساء: الآية (١٧٣).

(٣) تفسير المراغي (١٧/ ٩٦).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٩).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ينصره: النصرة: المعونة. والنصرة أيضًا: الرزق. يقال: نصره الله: إذا أعطاه. قال الشاعر:

وإنك لا تعطي امرءا فوق حظه ... ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره

أي: معطيه.

سبب: السبب: كل ما يتوصل به إلى الشيء. ومنه قيل للحبل سبب، وللطريق سبب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم. وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدا من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من ظن أن الله ليس بناصر محمدا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾[1] ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ

(١) غافر: الآيتان (٥١و٥٢).

كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من اللَّه على الناس ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»[2].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة أوجه من التفسير معروفة عند العلماء، وبعضها يشهد لمعناه قرآن.

الأول: أن المعنى: من كان من الكفرة الحسدة له ﷺ، يظن أن لن ينصره الله: أي أن لن ينصر اللَّه نبيه محمدا ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل إلى السماء: أي سماء بيته، والمراد به السقف: لأن العرب تسمي كل ما علاك سماء كما قال:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

كما أوضحناه في سورة الحجر.

والمعنى: فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بالحبل، فيشده في عنقه، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت، وإنما أطلق القطع على الاختناق، لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه، ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس: قطع، فلينظر إذا اختنق ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر اللَّه نبيه ﷺ، في الدنيا والآخرة.

والمعنى: لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر اللَّه لنبيه محمد ﷺ.

قال الزمخشري: وسمي فعله كيدا، لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده، إنما كاد به نفسه،

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٧).

والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ا ه منه.

وحاصل هذا القول: أن اللَّه يقول لحاسديه ﷺ، الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره: موتوا بغيظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم، وممن قال بهذا القول: مجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير، وهو أظهرها عندي.

ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[1].

الوجه الثاني: أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر اللَّه نبيه محمدا ﷺ في الدنيا والآخرة، والحال أن النصر يأتيه ﷺ من السماء، فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي بذلك السبب، حتى يصعد إلى السماء، فيقطع نزول الوحي من السماء، فيمنع النصر عنه ﷺ.

والمعنى: أنه وإن غاظه نصر اللَّه لنبيه. فليس له حيلة، ولا قدرة على منع النصر، لأنه لا يستطيع الارتقاء إلى السماء ومنع نزول النصر منها عليه ﷺ. وعلى هذا القول: فصيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ للتعجيز ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ ذلك الحاسد العاجز عن قطع النصر عنه ﷺ: هل يذهب كيده إذا بلغ غاية جهده في كيد النبي ﷺ، ما يغيظه من نصر اللَّه لنبيه ﷺ.

والمعنى: أنه إن أعمل كل ما في وسعه، من كيد النبي ﷺ ليمنع عنه نصر اللَّه، فإنه لا يقدر على ذلك، ولا يذهب كيده ما يغيظه من نصر اللَّه لنبيه ﷺ.

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾[2] وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة الحجر.

ولبعض أهل العلم قول ثالث في معنى الآية الكريمة: وهو أن الضمير في ﴿لَّن يَنصُرَهُ﴾ عائد إلى (من) في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق، وأن المعنى: من كان يظن أن لن ينصره اللَّه أي لن يرزقه، فليختنق، وليقتل

---

(١) آل عمران: الآية (١١٩).

(٢) ص: الآيتان (١٠و١١).

نفسه، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق اللّٰه وعونه، أو فليختنق، وليمت غيظا وغما، فإن ذلك لا يغير شيئا مما قضاه اللّٰه وقدره، والذين قالوا هذا القول قالوا: إن العرب تسمي الرزق نصرا، وعن أبي عبيدة قال: وقف علينا سائل من بني بكر، فقال: من ينصرني نصره اللّٰه، يعني: من يعطيني أعطاه اللّٰه، قالوا: ومن ذلك قول العرب: أرض منصورة: أي ممطورة، ومنه قول رجل من بني فقعس:

وإنك لا تعطي امرأ فوق حقه ولا تملك الشق الذي ألفيت ناصره

أي معطيه.

قال مقيده عفا اللّٰه عنه وغفر له: وهذا القول الأخير ظاهر السقوط، كما ترى، والذين قالوا: إن الضمير في قوله: ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ راجع إلى الدين، أو الكتاب، لا يخالف قولهم قول من قال: إن الضمير للنبي ﷺ، لأن نصر الدين، والكتاب هو نصره ﷺ كما لا يخفى، ونصر اللّٰه له ﷺ في الدنيا، بإعلائه كلمته، وقهره أعداءه، وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه، ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾[1] فإن قيل: قررتم أن الضمير في ينصره، عائد إليه ﷺ، وهو لم يجر له ذكر، فكيف قررتم رجوع الضمير إلى غير مذكور.

فالجواب: هو ما قاله غير واحد: من أنه ﷺ، وإن لم يجر له ذكر فالكلام دال عليه، لأن الإيمان في قوله في الآية التي قبلها تليها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾ الآية. هو الإيمان باللّٰه، وبمحمد ﷺ، والانقلاب عن الدين المذكور في قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ انقلاب عما جاء به محمد ﷺ»[2].

* * *

---

(١) غافر: الآية (٥١).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٩-٥٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الفصل بين هؤلاء المنافقين الذين يعبدون الله على حرف، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام، والذين هادوا وهم اليهود والصابئين والنصارى والمجوس الذين عظموا النيران وخدموها، وبين الذين آمنوا بالله ورسله إلى الله، وسيفصل بينهم يوم القيامة بعدل من القضاء، وفصله بينهم إدخاله النار الأحزاب كلهم والجنة المؤمنين به وبرسله، فذلك هو الفصل من الله بينهم.. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول: إن الله على كل شيء من أعمال هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله جل ثناؤه وغير ذلك من الأشياء كلها شهيد لا يخفى عنه شيء من ذلك»[1].

قال ابن عاشور: «لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مثارا لأن يتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان. وأن يسأل عن الدين الحق، لأن كل أمة تدعي أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك. فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة. إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا.

وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض. ومثله يكون كناية عن تصويب المتكلم طريقته وتخطئته طريقة خصمه. لأن مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلا من الواثق بأنه على الحق، وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2] وذلك من قبيل الكناية التعريضية.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٢٩).

(٢) الشورى: الآية (١٥).

وذكر المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين تقدم في آية البقرة وآية العقود. وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين، لأن الآيتين المتقدمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان باللَّه واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمة. وزيد في هذه السورة ذكر المجوس والمشركين، لأن هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى اللَّه في الحكم بين أهل الملل، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان باللَّه واليوم الآخر»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد بقلبك فتعلم أن اللّه يسجد له من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق من الجن وغيرهم، والشمس والقمر والنجوم في السماء، والجبال والشجر والدواب في الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس، وحين تزول، إذا تحول ظلّ كل شيء فهو سجوده.. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون باللّه.. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بالعطف على قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ويكون داخلا في عداد من وصفه اللّه بالسجود له ويكون قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ من صلة كثير، ولو كان الكثير الثاني ممن لم يدخل في عداد من وصف بالسجود كان مرفوعا بالعائد من ذكره في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وكان معنى الكلام حينئذ: وكثير أبى السجود لأن قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يدل على معصية اللّه، وإبائه السجود، فاستحق بذلك العذاب.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يهنه اللّه من خلقه فيشقه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بالسعادة يسعده بها، لأن الأمور كلها بيد اللّه، يوفق من يشاء لطاعته ويخذل من يشاء، ويشقي من أراد ويسعد من أحب.

و قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللّه يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد كرامته، لأن الخلق خلقه، والأمر

أمره، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال الرازي: «أما قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ ففيه أسئلة:

السؤال الأول: ما الرؤية ههنا الجواب: أنها العلم أي ألم تعلم أن اللَّه يسجد له من في السموات ومن في الأرض وإنما عرف ذلك بخبر اللَّه لا أنه رآه.

السؤال الثاني: ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه:

أحدها: قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[(٣)]، ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٤)]، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[(٥)]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٦)]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[(٧)] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي يحدثها اللَّه تعالى فيها من غير امتناع ألبتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل هذا التأويل يبطله قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصًا من غير فائدة والجواب من وجوه:

أحدها: أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عامًا في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر، فهذا الشخص وإن كان ساجدًا بذاته لكنه متمرد بظاهره، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر.

وثانيها: أن نقطع قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن نقول تقدير الآية: ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، وإنما فعلنا ذلك لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه جميعًا. الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٢) جامع البيان (١٧/ ١٣٠-١٣١).
(٣) فصلت: الآية (١١).
(٤) النحل: الآية (٤٠).
(٥) البقرة: الآية (٧٤).
(٦) الإسراء: الآية (٤٤).
(٧) الأنبياء: الآية (٧٩).

﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾، والثالث: أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب.

وثالثها: أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعًا يقول: المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد، ومن ينكر ذلك يقول إن اللَّه تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين، فعنى بها في حق العقلاء، الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد.

السؤال الثالث: قوله: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ الجواب: لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين أن كثيرًا منهم يسجدون طوعًا دون كثير منهم فإنه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب..

وأما قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ فقال ابن عباس في رواية عطاء ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ يوحده ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ ممن لا يوحده، وروى عنه أيضًا أنه قال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ في الجنة. وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ مبتدأ وخبره محذوف، وقال آخرون: الوقف على قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ أي وجب بإبائه وامتناعه من السجود.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرمًا لهم، ثم بين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أنه الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب، واللَّه أعلم»[1].

قال المراغي: «بعد أن أبان فيما سلف أنه تعالى يقضي بين أرباب الفرق السالفة يوم القيامة وهو شهيد على أقوالهم وأفعالهم، أردف هذا ببيان أنه ما كان ينبغي لهم أن يختلفوا، ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها، شمسها وقمرها ونجومها، وجبالها وحيوانها ونباتها، خاضعة لجبروته مسخرة لقدرته، وقد كان في هذا مقنع لهم لو أرادوا، ولكن من يهنه اللَّه ويكتب عليه الشقاء فلا

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٢٠-٢١).

يستطيع أحد أن يسعده، فاللَّه وحده هو القدير على الإشقاء والإسعاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها، وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعا أو كرها فهي مفتقرة في وجودها وبقائها إليه، فهو الذي أنشأها ورتبها، وأكمل وجودها على النحو الذي أراده، والحكمة التي قدرها لها في البقاء.

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر لأنها قد عبدت من دون اللَّه، فعبدت الشمس حمير، والقمر كنانة، والشعرى لخم، والثريا طيء، والمصريون عبدوا العجل (أبيس)، وعبدت العزى شجرة غطفان.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي وكثير منهم لا يسجدون فاستحقوا بذلك العذاب ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي ومن يهنه اللَّه من خلقه فيكتب له الشقاء لسوء استعداده فما له من مكرم يسعده، لأن الأمور كلها بيده يوفق من يشاء لطاعته. ويخذل من يشاء لتدسيته نفسه، واجتراحه للسيئات وارتكابه للآثام والمعاصي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي إن اللَّه يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد إكرامه، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن جميع العوالم خاضعة لقدرة اللَّه تعالى

* عن أبي ذر ﷺ قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: **أتدري أين تذهب؟** قلت: اللَّه ورسوله أعلم قال: **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾**[2][3].

(١) تفسير المراغي (١٧/ ١٠٠-١٠١). (٢) يس: الآية (٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢ و١٧٧) والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣١٩٩) ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩) وأبو داود (٤/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٤٠٠٢) والترمذي (٥/ ٣٣٩/ ٣٢٢٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال ابن العربي: أنكر قوم سجودها وهو صحيح ممكن، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم، ولا مانع أن تخرج عن مجراها فتسجد ثم ترجع. قلت: إن أراد بالخروج الوقوف فواضح، وإلا فلا دليل على الخروج»[1].

وانظر تتمة فوائد هذا الحديث في سورة الأنعام الآية ١٥٨ وفي سورة يس الآية ٣٨ وفي سورة الرحمن الآية (٥).

* * *

(١) الفتح (٦/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

خصمان: الخصم: يستوي فيه المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث. يقال: رجل خصم ورجلان خصم ورجال خصم ونساء خصم. والخصومة: المنازعة.

الحميم: الماء المغلي الذي بلغت حرارته أقصى الغاية.

يصهر: الصهر: الإذابة. من صهرت الشيء أصهره: إذا أذبته. قال الشاعر:

تروي لقى ألقي في صفصف   تصهره الشمس فما ينصهر

مقامع: جمع مِقْمَعَة. وهي المِقْرَعَة. سميت بذلك لأنها تقرع رأس الفاجر.

الحريق: بمعنى المُحْرِق، كالأليم بمعنى المُؤْلِم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، من أنواع عذاب أهل النار، أعاذنا اللَّه وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، جاء مبينا في آيات أخر من كتاب اللَّه، فقوله هنا: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي قطع اللَّه لهم من النار ثيابا، وألبسهم إياها تتقد عليهم كقوله فيهم: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾[1] والسرابيل: هي الثياب التي هي القمص، كما قدمنا إيضاحه، وكقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[2] والغواشي: جمع غاشية: وهي غطاء كاللحاف، وذلك هو معنى قوله هنا: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾

(١) إبراهيم: الآية (٥٠).   (٢) الأعراف: الآية (٤١).

وقوله تعالى هنا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ ذكره أيضا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾[1] والحميم: الماء البالغ شدة الحرارة، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[2] الآية. وقوله هنا: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي يذاب بذلك الحميم، إذا سقوه فوصل إلى بطونهم، كل ما في بطونهم من الشحم والأمعاء وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[3]»[4].

وقال أيضا عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من أن أهل النار كلما أرادوا الخروج منها، لما يصيبهم من الغم فيها عياذا بالله منها، أعيدوا فيها، ومنعوا من الخروج منها، بينه في غير هذا الموضع، كقوله في المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾[5] وقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[6] الآية، وقوله في آية الحج هذه: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ حذف فيه القول.

والمعنى: أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق، وهذا القول المحذوف في الحج صرح به في السجدة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[7] والمفسرون يقولون: إن لهب النار يرفعهم، حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم خزنة النار بمقامع الحديد، فتردهم في قعرها، نعوذ بالله منها، ومن كل ما يقرب إليها من قول وعمل»[8].

قال ابن كثير: «ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في بدر[9]. لفظ البخاري عند

---

(١) الدخان: الآيتان (٤٨و٤٩).
(٢) الكهف: الآية (٢٩).
(٣) محمد: الآية (١٥).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٥٢-٥٣).
(٥) المائدة: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٦) السجدة: الآية (٢٠).
(٧) السجدة: الآية (٢٠).
(٨) أضواء البيان (٥/ ٥٥-٥٦).
(٩) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٦٧/ ٤٧٤٣) ومسلم (٤/ ٢٣٢٣/ ٣٠٣٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٠/ ١١٣٤١) وابن ماجه (٢/ ٩٤٦/ ٢٨٣٥).

تفسيرها، ثم قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[1]. انفرد به البخاري.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ وكذا روى العوفي عن ابن عباس وقال شعبة عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: مصدق ومكذب. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث. وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون. وقال عكرمة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة وقالت الجنة: اجعلني للرحمة.

وقول مجاهد وعطاء: (إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون) يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن. ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبير: (من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي) ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: (هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء). قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم، وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: (تساقط). . وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٦٧/ ٤٧٤٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٥-١٩٦/ ٨٦٥٠).

قال: (يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور).

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال: (النار سوداء مظلمة، لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾) وقال زيد بن أسلم في هذه الآية ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ قال: (بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون). وقال الفضيل بن عياض: (والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها) وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[١] ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا»[٢].

قال ابن جرير: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية: قول من قال: عنى بالخصمين: جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا، وجميع المؤمنين. وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأنه -تعالى ذكره- ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له، قد حق عليه العذاب. فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ وقال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[٣] فكان بيّنا بذلك أن ما بين ذلك خبر عنهما.

فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما روي عن أبي ذر في قوله: (إن ذلك نزل في الذين بارزوا يوم بدر) قيل: ذلك إن شاء الله كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب، وهذه من تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل

(١) السجدة: الآية (٢٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠١-٤٠٣).
(٣) الحج: الآية (٢٣).

الإيمان خصم، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خصم.

فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين ربهم، واختصامهم في ذلك معاداة كل فريق منهما الفريق الآخر، ومحاربته إياه على دينه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه كان يقسم فيها قسما: إن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. نزلت في: حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر(٢).

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة(٣).

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إشارة إلى الفريقين اللذين ذكرهما أبو ذر، وهما: علي وحمزة وعبيدة وهم المؤمنون، والفريق الآخر: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة. التقيا يوم بدر في أول الحرب، فافتخر المشركون بدينهم، وانتسبوا إلى شركهم، وافتخر المسلمون بالإسلام، وانتسبوا إلى التوحيد. ولما خرج المشركون ودعوا إلى البراز، خرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد اللَّه بن رواحة الأنصاري، فلما انتسبوا لهم قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد قومنا، فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث وعلي رضي الله عنهم، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما فقتلاهما، واختلفت بين عبيدة وشيبة ضربتان، كلاهما

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٣٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٦٧/ ٤٧٤٣) ومسلم (٤/ ٢٣٢٣/ ٣٠٣٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٠/ ١١٣٤١) وابن ماجه (٢/ ٩٤٦/ ٢٨٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٦٧/ ٤٧٤٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٠/ ١١٣٤٢).

أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي على شيبة، فقتلاه، واحتملا صاحبيهما، فمات من جرحه ذلك بالصفراء عند رجوعه»[١].

قال الطحاوي: «تأملنا هاتين الآيتين المذكورتين في هذه الآثار، فوجدنا قول اللّه ﷻ: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ قد جاء بلفظ العدد الذي فوق الاثنين وكان مثل ذلك مما تقوله العرب التقى العسكران فقتل بعضهم بعضا ووجدنا الذين كفروا المذكورين فيهما قد سموا في هذه الآثار وهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ابن ربيعة ووجدنا الذين آمنوا المذكورين فيهما قد سموا لنا في هذه الآثار وهم حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ﷺ وكان الذي أوعد اللّه الذين كفروا المذكورين فيهما كائنا منه فيهم، ووجدنا ما وعده الذين آمنوا المذكورين فيهما كائنا لا محالة ؛ لأنه وعد من اللّه، واللّه ﷻ لا يخلف الميعاد، وذلك مما لا يخالفه نسخ؛ لأن النسخ إنما يلحق الشرائع فينسخ منها ما كان حراما إلى أن يجعله حلالا، وما كان منها حلالا إلى أن يجعله حراما، فأما ما أخبر منها أنه فاعله ثوابا على عمل قد كان ممن عمله فهذا مما لا يلحقه نسخ، فهذه أحوال هذين الفريقين في الآخرة ثم وجدناه ﷻ قد أتبع وعده الذين آمنوا المذكورين في هاتين الآيتين بقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[٢] فكان ذلك إخبارا منه عن أحوالهم التي يكونون عليها في الدنيا رضوان اللّه عليهم، وهي الأحوال المحمودة التي لا ذم معها، ووجدنا قوله ﷻ عند أهل العلم باللغة وهدوا بمعنى ثبتوا كمثل قوله ﷻ في فاتحة الكتاب: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ أي: ثبتنا للصراط المستقيم، ومن كانت أحواله في الدنيا هذه الأحوال المحمودة وأحواله في الآخرة الأحوال التي ذكرها ﷻ في هاتين الآيتين كان بذلك من أهل المنازل العليا في الدنيا وفي الآخرة، وباللّه التوفيق»[٣].

* * *

(١) المفهم (٧/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) الحج: الآية (٢٤).

(٣) شرح مشكل الآثار (٤/ ٣٦٤-٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أساور: جمع سوار، وهو ما تجعله المرأة في معصمها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذا بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة -نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة- فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي في أيديهم كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»[(١)]. . وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير؛ إستبرقه وسندسه كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[(٢)] وفي الصحيح: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[(٣)]»[(٤)].

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) الإنسان: الآيتان (٢١و٢٢).

(٣) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠٣-٤٠٤).

قال البقاعي: «لما ذكر ما لأحد الخصمين وهم الكافرون، أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون، وغير السياق بالتأكيد لمن كأنه سأل عنه، معظما له بإثبات الاسم العلم الجامع إيذانا بالاهتمام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عبر في الإيمان بالماضي ترغيبا في المبادرة إلى إيقاعه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تصديقا لإيمانهم، وعبر بالماضي إشارة إلى أن من عمل الصالح انكشف له ما كان محجوبا عنه من حسنه فأحبه ولم ينفك عنه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ أي دائما ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي المياه الواسعة، أينما أردت من أرضها جرى لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق رؤوس أهل النار ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

ولما كان مقصودها الحث على التقوى المعلية إلى الإنعام بالفضل، شوق إليه بأغلى ما نعرف من الحلية فقال: ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وقراءة نافع وعاصم بنصبه دليل على عطفه بالجر على «أساور» ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار في الدنيا حريرا، ولباس المؤمنين دون ذلك»[١].

قال السعدي: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذلك، من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر»[٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي وجميع ما يلبسونه من فرشهم ولباسهم وستورهم حرير، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير.

وروى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ومن شرب في**

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣١-٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٨٥-٢٨٦).

آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها في الآخرة -ثم قال رسول الله ﷺ- لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة».

فإن قيل: قد سوى النبي ﷺ بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يحرمها في الآخرة، فهل يحرمها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها حرمها في الآخرة وإن دخل الجنة، لاستعجاله ما حرم الله عليه في الدنيا.

لا يقال: إنما يحرم ذلك في الوقت الذي يعذب في النار أو بطول مقامه في الموقف، فأما إذا دخل الجنة فلا، لأن حرمان شيء من لذات الجنة لمن كان في الجنة نوع عقوبة ومؤاخذة، والجنة ليست بدار عقوبة، ولا مؤاخذة فيها بوجه.

فإنا نقول: ما ذكرتموه محتمل، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويرده من ظاهر الحديث الذي ذكرناه.

وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ «**من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة**».

والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نص يدفعه، بل قد ورد نص على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا هشام عن قتادة عن داود السراج عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو**». **وهذا نص صريح وإسناده صحيح**.

فإن كان «**وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو**» من قول النبي ﷺ فهو الغاية في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال، ومثله لا يقال بالرأي، والله أعلم.

وكذلك «**من شرب الخمر ولم يتب**» و«**من استعمل آنية الذهب والفضة**» وكما لا يشتهي منزلة من هو أرفع منه، وليس ذلك بعقوبة، كذلك لا يشتهي خمر الجنة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة»[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حلية المؤمن

* عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة. فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه. فقلت له: يا أبا هريرة! ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء. سمعت خليلي ﷺ يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»[1].

★ **غريب الحديث:**

بني فروخ: قال النووي: «قال صاحب العين: فروخ بلغنا أنه كان من ولد إبراهيم عليه السلام، من ولد كان بعد إسماعيل وإسحاق، كثر نسله ونما عدده، فولد العجم الذين هم في وسط البلاد. قال القاضي عياض: أراد أبو هريرة هنا الموالي وكان خطابه لأبي حازم»[2].

★ **فوائد الحديث:**

بين الحديث أن أساور الذهب واللؤلؤ التي يحلى بها أهل الجنة في أيديهم تبلغ المكان الذي يبلغ الوضوء، لذلك كان أبو هريرة يطيل في غسل يديه في الوضوء إلى الآباط. لكن لم يذهب إلى إيجابه أحد من الأئمة.

قال السندي: «(الحلية) بكسر مهملة وسكون لام وخفةياء: يطلق على السيما فالمراد ههنا التحجيل من أثر الوضوء يوم القيامة، وعلى الزينة والمراد ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ والله تعالى أعلم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن لبس الحرير للرجال

* عن عمر قال: قال النبي ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧١) ومسلم (١/ ٢١٩/ ٢٥٠) والنسائي (١/ ١٠٠-١٠١/ ١٤٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ١١٣-١١٤). (٣) حاشية السندي على المسند (١/ ١٠٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦) والبخاري (١٠/ ٣٥٠/ ٥٨٣٤) ومسلم (٣/ ١٦٤١-١٦٤٢/ ٢٠٦٩[١١]) والترمذي (٥/ ١١٣/ ٢٨١٧) والنسائي (٨/ ٥٨٧/ ٥٣٢٠)، وفي الباب عن أبي هريرة وعبد الله بن الزبير وأبي سعيد الخدري وأبي أمامة وعلي وحذيفة وأنس رضي الله عنهم.

* عن ابن أبي ليلى قال: كان حذيفة بالمدائن فاستسقى فأتاه دهقان بماء في إناء من فضة فرماه به وقال: إني لم أرمه إلا أني نهيته فلم ينته، قال رسول اللَّه ﷺ: «**الذهب والفضة والحرير والديباج هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن بطال: «قال الطبري: اختلف أهل العلم في معنى هذه الأخبار، فقال بعضهم بعموم خبر عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**»[٢]. وقال: الحرير كله حرام، قليله وكثيره، مصمتا كان أو غير مصمت، في الحرب وغيرها، على الرجال والنساء، لأن التحريم بذلك قد جاء عاما فليس لأحد أن يخص منه شيئا، لأنه لم يصح بخصوصه خبر.

وقال آخرون: بل هذه الأخبار التي وردت عن النبي ﷺ بالنهي عن لبس الحرير أخبار منسوخة، وقد رخص فيه رسول اللَّه بعد النهي عن لبسه وأذن لأمته فيه.

وقال آخرون ممن قال بتحليل لبسه: ليست هذه الأخبار منسوخة، ولكنها بمعنى الكراهة لا بمعنى التحريم.

وقال آخرون: بل هذه الأخبار وإن كانت وردت بالنهي عن لبس الحرير فإن المراد بها الخصوص، وإنما أريد بها الرجال دون النساء، وما عني به الرجال من ذلك فإنما هو ما كان منه حريرا مصمتا، فأما ما اختلف سداه ولحمته أو كان علما في ثوب فهو مباح.

وقال آخرون ممن قال بخصوص هذه الأخبار: إنما عني بالنهي عن لبس الحرير في غير لقاء العدو، فأما عند لقاء العدو فلا بأس بلبسه مباهاة وفخرا. . قال الطبري: والصواب في حديث عمر عن النبي ﷺ أنه على الخصوص، وقوله: «**إنما هذه لباس من لا خلاق له**» يعني: من الحرير المصمت من الرجال، في غير حال المرض والحرب، لغير ضرورة دعته إلى لبسه تكبرا واختيالا في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ولباس ذلك كذلك لباس من لا خلاق له.

---

(١) أخرجه: البخاري (١٠/ ٣٤٩/ ٥٨٣١) ومسلم (٣/ ١٦٣٧/ ٢٠٦٧[٤]) وأبو داود (٤/ ١١٢/ ٣٧٢٣) والترمذي (٤/ ٢٦٤-٢٦٥/ ١٨٧٨) والنسائي (٨/ ٥٨٥-٥٨٦/ ٥٣١٦) وابن ماجه (٢/ ١١٣٠/ ٣٤١٤).
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٦) والبخاري (١٠/ ٣٥٠/ ٥٨٣٥) والنسائي (٨/ ٥٨٧-٥٨٨/ ٥٣٢١).

وإنما قلنا عنى به من الحرير المصمت، لقيام الحجة بالنقل الذي يمتنع منه الكذب أنه لا بأس بلبس الخز، والخز لا شك سداه حرير ولحمته وبر، فإذا كانت الحجة ثابتة بتحليله، فسبيل كل ما اختلف سداه ولحمته سبيل الخز، أنه لا بأس به في كل حال للرجال والنساء، وإنما قلنا عنى به ما كان ثوبا دون ما كان علما في ثوب، لصحة الخبر عن النبي ﷺ أنه استثني من الحرير، إذ نهى عن لبسه ما كان منه قدر أصبعين أو ثلاث أو أربع[1].

وقلنا عنى به من لم تكن به علة تضطره إلى لبسه، لصحة الخبر عن النبي ﷺ أنه أرخص للزبير بن العوام في الحرير وعبد الرحمن لحكة كانت بجلودهما[2] فكان معلوما بذلك، إذ كل علة كانت بالإنسان يرجى بلبس الحرير خفتها أن له لبسه معها، وأن من قصد إلى دفع ما هو أعظم أذى من الحكة وذلك كأسلحة العدو، أن له من ذلك ما كان لعبد الرحمن والزبير بسبب الحكة.

وقلنا: الخبر خاص للرجال دون النساء، لصحة خبر أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الذهب والحرير حرام على ذكور أمتي، حل لإناثها**»[3].

فبان أن جميع الأخبار المروية في الحرير غير دافع منها خبر غيره، ولا ناسخ فيها ولا منسوخ، ولكن يعضد بعضها بعضا»[4].

الخطاب في الحديثين خاص للرجال دون النساء. قال النووي عن حديث عمر: «إنما ورد في لبس الرجال لوجهين:

أحدهما: أنه خطاب للذكور، ومذهبنا ومذهب محققي الأصوليين أن النساء لا يدخلن في خطاب الرجل عند الإطلاق.

---

(١) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: أحمد (١/ ٥١) ومسلم (٣/ ١٦٤٣-١٦٤٤/ ٢٠٦٩(١٥)) والترمذي (٤/ ١٨٩-١٩٠/ ١٧٢١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٧٥/ ٩٦٣٠).

(٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١٢٢) والبخاري (٦/ ١٢٥/ ٢٩١٩) والترمذي (٤/ ١٩٠/ ١٧٢٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٧٦/ ٩٦٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤) والترمذي (٤/ ١٨٩/ ١٧٢٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٥٧٥/ ٥٢٨٠) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وإسناده منقطع، فسعيد بن أبي هند لم يلق أبا موسى كما ذكره أبو حاتم في المراسيل إلا أن الحديث صحيح بشواهده، انظرها في غاية المرام (ص٦٤,-٦٥) للشيخ الألباني.

(٤) شرح البخاري (٩/ ١٠٦-١١١).

والثاني: أن الأحاديث الصحيحة التي ذكرها مسلم قبل هذا وبعده صريحة في إباحته للنساء، وأمره ﷺ عليا وأسامة بأن يكسواه نساءهما، مع الحديث المشهور أنه قال في الحرير والذهب: بأن «**هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثها**»[١] والله أعلم»[٢].

قال القرطبي في المفهم: «اختلف الناس في لباس الحرير فمن مانع ومن مجوز على الإطلاق، وجمهور العلماء على منعه للرجال وإباحته للنساء وهو الصحيح»[٣].

قال المناوي: ««**من لبس الحرير في الدنيا**» أي من الرجال كما أفاده الحديث المار «**حرم الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم**».

«**لم يلبسه في الآخرة**» أي جزاؤه أن لا يلبسه فيها لاستعجاله ما أمر بتأخيره ووعد به، فحرمه عند ميقاته كوارث قتل مورثه ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٤] وهذا وعيد مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف لمانع، وقد دلت النصوص القرآنية على أن التوبة تمنع لحوق الوعيد، وكذا الحسنات الماحية والمصائب المكفرة والدعاء والشفاعة، بل وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه ولمالك الجزاء إسقاطه»[٥].

قال ابن دقيق العيد: «اختلف في تعليل المنع منهما، فقيل للسرف والخيلاء. وقيل لتقليل النقدين حيث إن الحكمة دعت إلى المنفعة بهما في المعاملات، فلا يضيق على الناس في ذلك بجعلهما في غيره والله أعلم. وفيه التنبيه على منع التشبيه بالكفار، وفيه التحضيض على الصبر عن ذلك احتسابا لنيله في الآخرة، حيث إنها الباقية وما عداها فان. والتعليل بالباقي خير من التعليل بالزائل الفاني. والله أعلم»[٦].

* * *

---

(١) أخرجه من حديث علي بن أبي طالب ﷺ: أحمد (١/ ١١٥) وأبو داود (٤/ ٣٣٠/ ٤٠٥٧) والنسائي (٨/ ٥٣٩/ ٥١٥٩) وابن ماجه (٢/ ١١٨٩/ ٣٥٩٥) وابن حبان (١٢/ ٢٤٩-٢٥٠/ ٥٤٣٤ الإحسان) بلفظ: «إن هذين حرام على ذكور أمتي» سوى ابن ماجه فقد زاد: «**حل لإناثهم**».

(٢) شرح صحيح مسلم (١٤/ ٣٧).

(٣) المفهم (٥/ ٣٨٦).

(٤) الأحقاف: الآية (٢٠).

(٥) فيض القدير (٦/ ٢١٨).

(٦) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٤/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[2] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾[3]. فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[4] لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يروعون به ويقرعون به يقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[5].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الصحيح: «**إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس**»[6] وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة. ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم»[7].

قال السعدي: «﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله،

(١) إبراهيم: الآية (٢٣).
(٢) الرعد: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٣) الواقعة: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٤) الفرقان: الآية (٧٥).
(٥) الحج: الآية (٢٢).
(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨٤) ومسلم (٤/ ٢١٨٠-٢١٨١/ ٢٨٣٥). وأخرجه: أبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤١) دون ذكر محل الشاهد كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠٤).

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود، وذلك لأن جميع الشرع كله مُحتوٍ على الحكمة والحمد، وحسن المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو وهدوا إلى صراط اللَّه الحميد؛ لأن اللَّه كثيرا ما يضيف الصراط إليه؛ لأنه يوصل صاحبه إلى اللَّه، وفي ذكر ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ هنا، ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أهل الجنة

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**»[3].

⋆ غريب الحديث:

جشاء: صوت مع ريح يخرج من الفم عند الشبع.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام؛ لأن الجنة ليست محل تكليف، وإنما هي محل جزاء، وإنما هو عن تيسير وإلهام»[4].

وقال أيضا: «وجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا بد له منه، ولا كلفة، ولا مشقة عليه في فعله. وآحاد التنفيسات مكتسبة للإنسان، وجملتها ضرورية في حقه، إذ يتمكن من ضبط قليل الأنفاس، ولا يتمكن من جميعها، فكذلك يكون ذكر اللَّه تعالى على ألسنة أهل الجنة، وسر ذلك أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم

---

(١) الأعراف: الآية (٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٦و٣٦٤) ومسلم (٤/ ٢١٨٠-٢١٨١/ ٢٨٣٥). وأخرجه أبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤١) مقتصرا على قوله: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون**».

(٤) المفهم (٧/ ١٨١).

قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته، فألسنتهم ملازمة ذكره، ورهينة بشكره، فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره»[١].

* * *

(١) المفهم (٧/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العاكف: المقيم الملازم للمكان.

البادي: القادم من البادية.

إلحاد: الإلحاد: الميل عن الحق. يقال ألحد فلان عن كذا أي مال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].. وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية كما قال في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[2] وقال هاهنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3] أي ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

---

(١) الأنفال: الآية (٣٤).

(٢) البقرة: الآية (٢١٧).

(٣) الرعد: الآية (٢٨).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام، وقال مجاهد: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد، وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة: (سواء فيه أهله وغير أهله). وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضا. فذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري عن علي ابن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أتنزل غدا في دارك بمكة؟ فقال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع؟ ثم قال: لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»[١] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق ابن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبي حسين عن عثمان ابن أبي سليمان عن علقمة بن نضلة قال: (توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن)[٢].

وقال عبدالرزاق عن ابن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها)[٣]. وقال أيضا عن ابن جريج: (كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة، لأن ينزل

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٧) والبيهقي (٦/ ٣٥) والدارقطني (٣/ ٥٨) وهو حديث ضعيف.

(٣) أخرجه عبدالرزاق (٥/ ١٤٨/ ٩٢١٤).

الحاج في عرصاتها. فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري قال: فذلك إذا)[١]. وقال عبدالرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: (يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء)[٢]. قال: وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ قال: (ينزلون حيث شاؤوا). وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح عن عبد اللّه بن عمرو موقوفا «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا»[٣] وتوسط الإمام أحمد فقال: (تملك وتورث ولا تؤجر) جمعا بين الأدلة واللّه أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادٍۭ بِظُـلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء ههنا زائدة كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[٤] أي تُنْبِت الدهن وكذا قوله: ﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادٍ﴾ تقديره إلحادا وكما قال الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ... بين المراجل والصريح الأجرد

وقال الآخر:

بواد يمان ينبت الشث صدره ... وأسفله بالمرخ والشبهان

والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهم، ولهذا عداه بالباء فقال: ﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادٍ﴾ أي: يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار: وقوله: ﴿بِظُـلْمٍ﴾ أي: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج عن ابن عباس: هو التعمد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿بِظُـلْمٍ﴾ بشرك. وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير اللّه. وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿بِظُـلْمٍ﴾ هو أن تستحل من الحرام ما حرم اللّه عليك من لسان أو قتل فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال مجاهد: ﴿بِظُـلْمٍ﴾ يعمل فيه عملا سيئا. وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٥/ ١٤٦-١٤٧/ ٩٢١٠).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٥/ ١٤٧/ ٩٢١١).

(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٥٧/ ٢٢٥) والبيهقي (٦/ ٣٥).

(٤) المؤمنون: الآية (٢٠).

البادي فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه.. وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل اللَّه عليهم طيرا أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾[1] أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر باللَّه ورسوله، وبين الصد عن سبيل اللَّه ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضا عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكا لهم ولا لآبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه والطارئ إليه. بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدا وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام من حرمته واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم أن يفعل اللَّه بهم؟ وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها»[3].

قال الشنقيطي: «والمراد بالإلحاد في الآية: أن يميل، ويحيد عن دين اللَّه الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخولا أوليا الكفر باللَّه، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمات الحرم. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة، وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك قول الرجل: لا واللَّه، وبلى واللَّه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان له فسطاطان: أحدهما: في طرف الحرم، والآخر: في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاتب أهله، أو غلامه فعل ذلك في

---

(١) الفيل: الآيتان (٤و٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠٤-٤٠٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٨٧).

الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: الذي يظهر في هذه المسألة، أن كل مخالفة بترك واجب، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته، أو عبده، فليس من الإلحاد، ولا من الظلم»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام سواء

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال: يا رسول اللَّه أين تنزل في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي رضي الله عنهما شيئا، لأنهما كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يرث المؤمن الكافر. قال ابن شهاب وكانوا يتأولون قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(٢) الآية(٣).

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في سورة الأنفال الآية ٧٢ بما أغنى عن إعادتها هنا.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الهم بالمعصية في مكة

* عن مرة عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: (لو أن رجلا هم بخطيئة يعني ما لم يعملها لم يكتب عليه، ولو أن رجلا هم بقتل رجل عند البيت وهو بعدن أبين أذاقه اللَّه عذابا أليما)(٤).

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٥٨-٥٩). (٢) الأنفال: الآية (٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠١) والبخاري (٣/ ٥٧٤/ ١٥٨٨) ومسلم (٢/ ٩٨٤/ ١٣٥١) وابن ماجه (٢/ ٩١٢/ ٢٧٣٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٠/ ٤٢٥٥).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٨) وأبو يعلى (٩/ ٢٦٢-٢٦٣/ ٥٣٨٤). وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٨٧-٣٨٨) موقوفا ومرفوعا. وقال في المرفوع: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٠) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح». وذكره ابن كثير في

★ **غريب الحديث:**

عدن أبين: عدن بفتح العين والدال المهملتين. مدينة معروفة باليمن يقال فيها: عدن أبين.

* عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

بيداء: المفازة التي لا شيء فيها وهي في هذا الحديث اسم موضع مخصوص بين مكة والمدينة.

أسواقهم: السوقة من الناس الرعية ومن دون الملك وقيل إن كان جمع سوق فتقديره فيهم أهل أسواقهم وإن كان جمع سوقة فلا حاجة إلى التقدير.

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: «**يغزو جيش الكعبة**»، قال الحافظ: «قال ابن التين: يحتمل أن يكون هذا الجيش الذي يخسف بهم هم الذين يهدمون الكعبة فينتقم منهم فيخسف بهم، وتعقب بأن في بعض طرقه عند مسلم «**أن ناسا من أمتي**» والذين يهدمونها من كفار الحبشة. وأيضا فمقتضى كلامه أنهم يخسف بهم بعد أن يهدموها ويرجعوا، وظاهر الخبر أنه يخسف بهم قبل أن يصلوا إليها»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «مسألة: قال بعض أهل العلم: من هم أن يعمل سيئة في مكة، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك، وإن لم يفعلها، بخلاف غير الحرم المكي

تفسيره (٥/ ٤٠٧) وقال: «هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري». ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة علي وقفه من كلام ابن مسعود، وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثوري عن السدي، عن مرة عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٥ و٢٥٩) والبخاري (٤/ ٤٢٥/ ٢١١٨) ومسلم (٤/ ٢٢١٠-٢٢١١/ ٢٨٨٤).

(٢) الفتح (٤/ ٤٢٨).

من البقاع، فلا يعاقب فيه بالهم. وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: لو أن رجلا أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين، لأذاقه اللَّه من العذاب الأليم، وهذا ثابت عن ابن مسعود، ووقفه عليه أصح من رفعه، والذين قالوا هذا القول: استدلوا له بظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ لأنه تعالى رتب إذاقة العذاب الأليم، على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم: إن الباء في قوله: بإلحاد، لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم: أي ومن يهمم فيه بإلحاد، وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره.

فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله ﷺ: «**ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة**»[1] الحديث، وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع اللَّه مكة وغيرها.

والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزما مصمما عليه أنها كارتكابه، حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول اللَّه، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه**»[2]. فقولهم: ما بال المقتول: سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنه لم يفعل القتل، فبين النبي ﷺ بقوله: «**إنه كان حريصا على قتل صاحبه**» أن ذنبه الذي أدخله النار، هو عزمه المصمم وحرصه على قتل صاحبه المسلم. وقد قدمنا مرارا أن إن المكسورة المشددة: تدل على التعليل كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه.

ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه، ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل، بسبب طير أبابيل ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣١٠) والبخاري (١١/ ٣٩٢/ ٦٤٩١) ومسلم (١/ ١١٨/ ١٣١) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣) والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١) ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨) والنسائي (٧/ ١٤١-١٤٢/ ٤١٣١) وابن ماجه (٢/ ١٣١١/ ٣٩٦٥) كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ.

سِجِّيلٍ﴾[١] لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم، فأهلكهم اللَّه بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما عزموا عليه، والعلم عند اللَّه تعالى. والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى المسجد الحرام، ولكن حكم الحرم كله في تغليظ الذنب المذكور كذلك. واللَّه تعالى أعلم»[٢].

* * *

(١) الفيل: الآية (٤).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٩-٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بوأنا: أنزلنا وهيأنا.

مكان البيت: موضعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير اللَّه وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد اللَّه وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه. واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: «**يا رسول اللَّه أي مسجد وضع أول؟ قال المسجد الحرام قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة**»[(١)] وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[(٢)] الآية وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٣)]. . وقال تعالى هاهنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون اللَّه وحده لا شريك له. فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي في الصلاة ولهذا

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٢) آل عمران: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٣) البقرة: الآية (١٢٥).

قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة، لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم»[١].

قال السعدي: «يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسما من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئا، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس.

وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين، بالصلاة والطواف.

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد»[٢].

قال عبدالكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ إشارة إلى هذا البيت سيكون لتلك الأمة الإسلامية، التي سيكون معلما من معالم صلاتها، وحدها دون غيرها من أصحاب الديانات السماوية كاليهود والنصارى، ولهذا كانت سمة المسلمين التي يعرفون بها بين الأمم هي هذا الأثر الذي يتركه السجود في الجبهة، وقد وصفوا بهذا الوصف في التوراة كما يقول ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠٩-٤١٠). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

﴿وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[(١)].

وهذا من فضل اللَّه ﷻ على هذه الأمة، وإحسانه إليها، إذ أعد لها هذا البيت قبل أن يبعث فيها رسول اللَّه، ويجيء إليها برسالة الإسلام، وفضلا عن هذا؛ فإن إعداد إبراهيم لهذا البيت وإقامته بيده، يقابله من جهة أخرى إعداده لرسالة الإسلام، إذ كان هو أبا الأنبياء، وكانت رسالة من أرسلوا من ذريته، كموسى وعيسى أشبه بتلك اللبنات التي رفع بها إبراهيم القواعد من البيت، فلما جاء الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه برسالة الإسلام كمل البناء، وأصبح البيت مهيأ لاستقبال ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾»[(٢)].

قال ابن القيم: «هذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا. وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته. فهو المثابة للمحبين، يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أول مسجد وضع في الأرض

* عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في سورة آل عمران الآية (٩٦).

---

(١) الفتح: الآية (٢٩).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٥).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٠) والبخاري (٦/ ٥٠٢/ ٣٣٦٦) ومسلم (١/ ٣٧٠/ ٥٢٠) والنسائي (٢/ ٣٦٢/ ٦٨٩) وابن ماجه (١/ ٢٤٨/ ٧٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾

★ غريب الآية:

رجالا: جمع راجل.

ضامر: الضامر: المهزول. والمراد هنا: الفرس الخفيفة.

عميق: بعيد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس بالحج داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه.. وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم. والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكبا مع كمال قوته ﷺ. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعني: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾[1] وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، قاله مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم حيث قال في دعائه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[2] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار»[3].

---

(١) الأنبياء: الآية (٣١).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤١٠).

قال السعدي: «﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجا وعمارا، رجالا أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد اللَّه به، أتاه الناس رجالا وركبانا من مشارق الأرض ومغاربها»(١).

قال ابن العربي: «قوله: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ قال أكثر فقهاء الأمصار: لا يفترض الحج على من ليس له زاد ولا راحلة، وهي الاستطاعة.. بيد أن هذه الآية نص في أن حال الحاج في فرض الإجابة منقسمة إلى راجل وراكب، وليس عن هذا لأحد مذهب، ولا بعده في الدليل مطلب، حسبما هي عليه عند علماء المذهب، فإن الاستطاعة عندنا صفة المستطيع، وهي قائمة ببدنه، فإذا قدر يمشي وجبت عليه العبادة، وإذا عجز ووجد الزاد والراحلة وجبت عليه أيضا، وتحقق الوعد بالوجهين»(٢).

قال ابن القيم: «وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة وهي أن اللَّه تعالى شرط في الحج الإستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب وقدم الرجال اهتماما بهذا المعنى وتأكيدا ومن الناس من يقول قدمهم جبرا لهم لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول إن اللَّه تعالى لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ به جبرا لهم ورحمة»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه لا يتعبدنا اللَّه بالركوب أو المشي فكل وسيلة تيسرت فاللَّه تبارك وتعالى يثيب عليها

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يركب راحلته بذي الحليفة ثم يهل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٨٩).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٢٧٩).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٦٩).

حتى تستوي به قائمة[١].

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه أن إهلال رسول اللَّه ﷺ من ذي الحليفة حين استوت به راحلته[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «غرضه -أي البخاري- منه الرد على من زعم أن الحج ماشيا أفضل لتقديمه في الذكر على الراكب فبين أنه لو كان أفضل لفعله النبي ﷺ بدليل أنه لم يحرم حتى استوت به راحلته، ذكر ذلك ابن المنير في الحاشية. وقال غيره: مناسبة الحديث للآية أن ذا الحليفة فج عميق والركوب مناسب لقوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾»[٣].

وقال: «قال ابن المنذر: اختلف في الركوب والمشي للحجاج أيهما أفضل؟ فقال الجمهور: الركوب أفضل لفعل النبي ﷺ ولكونه أعون على الدعاء والابتهال ولما فيه من المنفعة، وقال إسحاق بن راهويه: المشي أفضل لما فيه من التعب. ويحتمل أن يقال: يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فاللَّه أعلم»[٤].

قال القرطبي: «وهذه الحالة هي التي عبر عنها في الروايات الأخر؛ بانبعاث الراحلة، لا أنها أخذت في المشي. وبذلك أخذ مالك، وأكثر العلماء: أنه يهل إذا استوت به راحلته إن كان راكبا، ويتوجه بعد ذلك. وإن كان راجلا فحين يأخذ في المشي. وقال الشافعي: كذلك في الراكب إلا أنه ينتظرها حتى تنبعث»[٥].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٨٣/ ١٥١٤) ومسلم (٢/ ٨٤٥/ ١١٨٧[٢٩]) والنسائي (٥/ ١٧٧-١٧٨/ ٢٧٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٤٨٣-٤٨٤/ ١٥١٥).
(٣) الفتح (٣/ ٤٨٤).
(٤) الفتح (٣/ ٤٨٤-٤٨٥).
(٥) المفهم (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البائس: الفقير الذي به جوع. يقال: بؤس فهو بائس، أي: صار ذا بؤس وهو الشدة.

الفقير: الذي لا شيء له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان اللّه، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والربح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال شعبة وهشيم عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: (الأيام المعلومات أيام العشر)[2] وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به، ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.. وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول اللّه ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: «**أحتسب على اللّه أن يكفر**

(١) البقرة: الآية (١٩٨).

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

به السنة الماضية والآتية»[١] ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر. وقد ورد في حديث أنه «أفضل الأيام عند الله»[٢] وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم.. وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[٣] الآية. وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[٤]. وقال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قال ابن وهب: وسألت الليث فقال لي مثل ذلك. وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل، وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك.

قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قال: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾[٥]. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٦] وهذا اختيار

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٨١٨-٨١٩/ ١١٦٢) وأبو داود (٢/ ٨٠٧-٨٠٨/ ٢٤٢٥) والترمذي (٣/ ١٢٤/ ٧٤٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٠-١٥٢/ ٢٧٩٦-٢٨٠٩) وابن ماجه (١/ ٥٥١/ ١٧٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٠) وأبو داود (٢/ ٣٦٩-٣٧٠/ ١٧٦٥) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤٤/ ٤٠٩٨) وابن حبان (٧/ ٥١/ ٢٨١١ الإحسان) والحاكم (٤/ ٢٢١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. كلهم من حديث عبد الله بن قرط.

(٣) الأنعام: الآية (١٤٣).

(٤) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٥) المائدة: الآية (٢).

(٦) الجمعة: الآية (١٠).

ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحي ونصف للفقراء، والقول الآخر أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[1] وسيأتي الكلام عليها عندها إن شاء اللَّه وبه الثقة.

وقوله: ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس. والفقير: المتعفف وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزمن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير»[2].

قال القاسمي: «لا يبعد أن تكون (على) تعليلية، والمعنى ليذكروا اسم اللَّه وحده في تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه، لأجل ما رزقهم من تلك البهم، فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها، ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة. وقد امتن عليهم بها في غير مو ضع من تنزيله الكريم، كقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[3] والسر في إفراده هذه النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم لما قامت لهم قائمة؛ لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه؛ من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره. فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه، نظير الآية على ما ظهر لنا قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾[4] هذا أولا، وثانيا قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل، وهو مواساة البؤساء منها، فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى، ويثيب عليه واللَّه أعلم»[5].

---

(١) الحج: الآية (٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤١٠-٤١٣).
(٣) يس: الآيتان (٧١-٧٢).
(٤) قريش: الآيتان (٣-٤).
(٥) محاسن التأويل (١٢/ ١٩-٢٠).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ يقول: كلوا من بهائم الأنعام التي ذكرتم اسم اللَّه عليها أيها الناس هنالك. وهذا الأمر من اللَّه جل ثناؤه أمر إباحة، لا أمر إيجاب. وذلك أنه لا خلاف بين جميع الحجة، أن ذابح هديه أو بدنته هنالك، إن لم يأكل من هديه أو بدنته، أنه لم يضيع له فرضا كان واجبا عليه، فكان معلوما بذلك أنه غير واجب»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الأيام العشر وأحكام الأضاحي

* عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق(٢).

⋆ **غريب الحديث:**

أيام التشريق: قال ابن الأثير: «هي ثلاثة أيام تلي عيد النحر، سُمِّيت بذلك من تشريق اللّحم، وهو تَقديدُه وبَسْطه في الشمس ليجف، لأنَّ لُحوم الأضاحي كانت تُشرَّق فيها بمنى. وقيل سُمِّيت به لأن الهَدْي والضَّحايا لا تُنحَرُ حتى تَشرُق الشمس: أي تَطْلُع»(٣).

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى اللَّه من هذه الأيام العشر فقالوا: يا رسول اللَّه ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ**: ولا الجهاد في سبيل اللَّه إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»(٤).

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٤٨).

(٢) رواه البخاري معلقا (٢/ ٥٨١) ووصله ابن جرير (٢/ ٣٠٢) دون ذكر الطرف الأول، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٥٩/ ٣٧٧٠) من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٢/ ٥٨٢) وفي التلخيص (٢/ ٢٩٢) ونقل تصحيح ابن السكن له.

(٣) النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٦٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٤ و٣٣٨-٣٣٩ و٣٤٦) والبخاري (٢/ ٥٨١/ ٩٦٩) وأبو داود (٢/ ٨١٥/ ٢٤٣٨) والترمذي (٣/ ١٣٠-١٣١/ ٧٥٧) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٥٥٠/ ١٧٢٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه فضيلة العشر الأول من ذي الحجة، وأنه كذلك من حيث أنه أول شهر حرام بين شهرين حرامين فيه أيام الإحرام من الحاج، وأيام رفع الأصوات بالتلبية وقصد الناس بيت اللَّه الحرام للحج الذي جعل اللَّه فيه لمن شهده منافع.

وذكر المنافع بلفظ الجمع للمنكر، وهذا يشتمل على منافع غير محصورة؛ فإن القرآن العظيم إذا شهد بمنفعة فهي التي لا تتعقبها مضرة، وهذا لا يكمل إلا بدخول الجنة إن شاء اللَّه تعالى.

وأعمال الحاج لهم وأما غير الحاج فإن أعمالهم في سبل البر التي تمكنهم سلوكها راجين أن يلحقهم اللَّه بثواب الحاج والمعتمرين، وهذا يتضح بأن صيام يوم عرفة يعدل عامين، إلا أنه لا يستحب صيامه للحاج، فيدل على أن عمل الحاج غير عمل من ليس بحاج»(١).

قال الحافظ: «فيه تفضيل بعض الأزمنة على بعض كالأمكنة، وفضل أيام عشر ذي الحجة على غيرها من أيام السنة، وتظهر فائدة ذلك فيمن نذر الصيام أو علق عملا من الأعمال بأفضل الأيام، فلو أفرد يوما منها تعين يوم عرفة لأنه على الصحيح أفضل أيام العشر المذكور.. والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره»(٢).

قال ابن رجب: «دل هذا الحديث على أن العمل في أيامه أحب إلى اللَّه من العمل في أيام الدنيا من غير استثناء شيء منها، وإذا كان أحب إلى اللَّه فهو أفضل عنده. وقد ورد هذا الحديث بلفظ: «**ما من أيام العمل فيها أفضل من أيام العشر**» وروي بالشك في لفظة: «**أحب أو أفضل**» وإذا كان العمل في أيام العشر أفضل وأحب إلى اللَّه من العمل في غيره من أيام السنة كلها، صار العمل فيه وإن كان مفضولا، أفضل من العمل في غيره وإن كان فاضلا ولهذا قالوا: يا رسول اللَّه ولا

(١) الإفصاح (٣/ ١٤٩-١٥٠).
(٢) الفتح (٢/ ٥٨٤-٥٨٥).

الجهاد في سبيل الله قال: «ولا الجهاد» ثم استثنى جهادا واحدا هو أفضل الجهاد.. فهذا الجهاد بخصوصه يفضل على العمل في العشر، وأما بقية أنواع الجهاد فإن العمل في عشر ذي الحجة أفضل وأحب إلى الله ﷻ منها، وكذلك سائر الأعمال. وهذا يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفاضل، يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره»[١].

* عن جابر بن عبد الله قال: صلى بنا النبي ﷺ يوم النحر بالمدينة فتقدم رجال فنحروا، وظنوا أن النبي ﷺ قد نحر، فأمر النبي ﷺ من كان نحر قبله، أن يعيد بنحر آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبي ﷺ[٢].

* عن البراء قال: ضحى خالي أبو بردة قبل الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: **«تلك شاة لحم». فقال: يا رسول الله! إني عندي جذعة من المعز. فقال: «ضح بها ولا تصلح لغيرك». ثم قال: «من ضحى قبل الصلاة، فإنما ذبح لنفسه، ومن ذبح بعد الصلاة، فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين»**[٣].

★ غريب الحديث:

جذعة: ولد الشاة في السنة الثانية.

★ فوائد الحديثين:

ظاهر هذه الأحاديث يفيد أحكاما:

أحدها: وجوب الأضحية من حيث إنه أمر بالإعادة.

ثانيها: وقت الذبح، والكلام عليه من ثلاث جهات:

الأولى: أول وقت الذبح.

الثانية: آخر وقت الذبح.

الثالثة: محل الذبح.

---

(١) لطائف المعارف (ص٢٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٤) ومسلم (٣/ ١٥٥٥/ ١٩٦٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨١-٢٨٢) والبخاري (٢/ ٥٦٩/ ٩٥٥) ومسلم (٣/ ١٥٥٢/ ١٩٦١) وأبو داود (٣/ ٢٣٣-٢٣٥/ ٢٨٠٠) والترمذي (٤/ ٧٨/ ١٥٠٨) والنسائي (٧/ ٢٥٤/ ٤٤٠٦).

أما الأول فقد **قال القرطبي**: «فالجمهور من السلف والخلف على أنها سنة مؤكدة. وهو مشهور مذهب مالك، متمسكين في ذلك بمداومة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ على فعلها، وأنه لم يرد نص في وجوبها، بل ولا ظاهر صحيح، سليم عن القوادح، وقد روى الترمذي عن ابن عمر أنه قال: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين يضحي[1]. وسئل ابن عمر عن الأضحية: أواجبة هي؟ فقال: ضحى رسول الله ﷺ، وضحى المسلمون[2]. قال الترمذي: إنهما حديثان حسنان. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأضحية ليست بواجبة، ولكنها سنة من سنن النبي ﷺ، وما روي عن بعض السلف من تركه الأضحية مع تمكنه، فذلك محمول على أنهم إنما تركوها مخافة أن يعتقد أنها واجبة. . وقد ذهب إلى وجوب الأضحية طائفة، منهم الأوزاعي والليث وأبو حنيفة، غير أنه اشترط في الوجوب أن يملك المضحي نصابا. وقد روي القول بالوجوب عن مالك، وبعض أصحابه. وقد تمسك القائلون بالوجوب بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[3] وبما رواه أبو داود وغيره من حديث مخنف بن سلم، عن النبي ﷺ قال: «**يا أيها الناس! إن على كل بيت في كل عام أضحية وعتيرة. أتدرون ما العتيرة؟ هذه التي يقول الناس: الرجبية**»[4]، وبظاهر الأمر بالإعادة في الحديث المتقدم.

قلت: ولا حجة في شيء من ذلك. أما الآية فلأنها محتملة لأمور متعددة،

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨) والترمذي (٤/ ٧٨/ ١٥٠٧) وقال: «حديث حسن»، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٤٦٣ التحقيق الثاني): «رجاله ثقات إلا أن ابن أرطأة مدلس وقد عنعنه». وضعفه في ضعيف سنن الترمذي (رقم٢٦١).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٧٧/ ١٥٠٦) وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي (رقم٢٦٠) وفيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس وقد عنعنه.

(٣) الكوثر: الآية (٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٥) وأبو داود (٣/ ٢٢٦-٢٢٧/ ٢٧٨٨) والترمذي (٤/ ٨٣-٨٤/ ١٥١٨) والنسائي (٧/ ١٨٩/ ٤٢٣٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٥/ ٣١٢٥) من طريق عبد الله بن عون عن عامر أبي رملة عن مخنف بن سليم. وهذا سند ضعيف لأن أبا رملة لا يعرف. قال عبدالحق الإشبيلي في الأحكام الوسطى (٧/ ٩٤): «إسناده ضعيف». وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣/ ٥٧٧-٥٧٨) معلقا معقبا على كلام عبدالحق الإشبيلي: «وصدق، ولكنه لم يبين علته، وهي الجهل بحال عامر هذا فإنه لا يعرف إلا بهذا، يرويه عنه ابن عون، وقد رواه أيضا عنه ابنه حبيب بن مخنف وهو مجهول أيضا». وقال الخطابي في معالم السنن (٢/ ١٩٥): «هذا الحديث ضعيف المخرج وأبو رملة مجهول».

ولذلك اختلفت أقوال العلماء فيها . فقيل : معناهما : صل الصلوات المعهودة، وضع يمينك على شمالك، وضعهما على نحرك . قاله علي ﷺ . وقال أبو الأحوص : ارفع يديك في التكبير إلى نحرك . وقيل : استقبل القبلة بنحرك في الصلاة . وقال مجاهد : صل بالمزدلفة، وانحر الهدي . وقال عطاء : صل العيد، وانحر الأضحية . ونحوه قال مالك . وقال ابن جبير : ادع لربك، وارفع يديك إلى نحرك عند الدعاء . وقال عطاء : استو بين السجدتين حتى يبدو نحرك .

قلت : وهذه الأقوال كلها ؛ الآية قابلة لها، على أن الأظهر منها قول من قال : إن المراد بها : صل الصلوات المعهودة، وانحر الهدايا الواجبة، تمسكا بالعرف المستعمل في ذينك اللفظين، والله أعلم . وعند هذا ظهر أن لا حجة في الآية .

وأما قوله : «**على أهل كل بيت أضحية وعتيرة . .**» فليس بصحيح . قيل : هو حديث ضعيف، على ما قاله أبو محمد عبدالحق وغيره، ولو سُلِّمت صحته فلا حجة فيه لوجهين :

أحدهما : أنه ليس صريحا في الوجوب، بل قد يقال مثله في المندوب، كما قال في السواك : «**وعليكم بالسواك**»[1] وليس السواك واجبا في الجمعة بالاتفاق، وإنما يحمل ذلك على أن من أراد تحصيل الأجر الكثير، وإقامة السنة، فعليه بالأضحية والسواك . وهذا نحو قوله ﷺ : «**من أراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا بشره شيئا**»[2] .

والثاني : عطف العتيرة على الأضحية، والعتيرة ليست بواجبة باتفاق، على ما ذكره المازري . وقال أبو داود : العتيرة منسوخة . وهذا من قول أبي داود يدل على أن العتيرة كانت مشروعة في أول الإسلام، ثم نسخت، وكذلك قال ابن دريد قال : العتيرة شاة كانت تذبح في رجب في الجاهلية يتقرب بها، وكان ذلك في صدر الإسلام أيضا، والعتر : الذبح . قال غيره : وهي فعيلة بمعنى مفعولة، كذبيحة،

---

(١) أخرجه : ابن حبان (٣/ ٣٥٢-٣٥٣/ ١٠٧٠ الإحسان) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) أخرجه : أحمد (٦/ ٢٨٩) ومسلم (٣/ ١٥٦٥/ ١٩٧٧) والنسائي (٧/ ٢٤٢/ ٤٣٧٦) وابن ماجه (٢/ ١٠٥٢/ ٣١٤٩) كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن عبدالرحمن بن حميد عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة . وأخرجه : الترمذي (٤/ ٨٦/ ١٥٢٣) وقال : «حديث حسن صحيح» من طريق شعبة عن مالك عن أنس عن عمرو بن مسلم عن سعيد ابن المسيب عن أم سلمة ﷺ .

بمعنى مذبوحة. يقال: عتر الرجل يعتر عترا، بالفتح: إذا ذبح العتيرة. ويقال: هذه أيام ترجيبٍ، وتعتار.

قلت: وظاهر قول أبي داود في العتيرة إنها منسوخة، أنها لم تبق لها مشروعية على جهة الوجوب، ولا الجواز. قال القاضي أبو الفضل: وعامة أهل العلم على تركها للنهي عنها، إلا ابن سيرين فإنه كان يذبح العتيرة في رجب، ولم يره منسوخا، يعني: الجواز. وأما الوجوب فمتفق على تركه على ما حكاه المازري. فإن قيل: لا نُسَلِّم أن نسخ وجوب العتيرة يلزم منه نفي وجوب الأضحية، لأن الحديث تضمن أمرين:

أحدهما: الأضحية، ولم يقل أحد إنها منسوخة، والعتيرة وهي المنسوخة فلا يلزم من نسخِها نسخُها. فالجواب: إنهما وإن كانا أمرين متغايرين، لكنهما قد اجتمعا في مفيد الوجوب، وهو على الذي استدللتم بها على الوجوب، لأنه لما عطف العتيرة على الأضحية بالواو من غير إعادة على، علمنا: أن العتيرة دخلت مع الأضحية في معنى على، وهو معنى واحد. فإذا رفع ذلك المعنى عن العتيرة ارتفع عن الأضحية، لضرورة الاتحاد. وهذا حكم حروف العطف المشتركة في المعنى إذا عطف بها المفردات. فإنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، استحال أن يرفع القيام عن عمرو، ويبقى لزيد، فلو أعاد العامل لصح أن يرفع حكم أحدهما ويثبت حكم الآخر، لأنه يكون من باب عطف الجمل، ويجوز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض. وقد أشبعنا القول في هذا في الأصول. وهو أصل حسن يجب الاعتناء به. وأما الاستدلال بقوله ﷺ: «**اذبح مكانها أخرى**» فقد عضدوه بما جاء في بعض طرق هذا الحديث في قوله: «**أعد نسكا**». وقوله: «**ضح بها -يعني الجذعة من المعز- ولا تجزي عن أحد بعدك**» ولا حجة في شيء من ذلك واضحة، لأن المقصود بيان كيفية مشروعية الأضحية لمن أراد أن يفعلها، أو من التزمها فأوقعها على غير الوجه المشروع غلطا، أو جهلا، فبين له النبي ﷺ وجه تدارك ما فرط فيه. وهذا هو المعني بقوله: «**لا تجزي**» أي: لا يحصل لك مقصود القربة، ولا الثواب. وهذا كما يقال في صلاة النفل: لا تجزي إلا بطهارة، وستر عورة، أي: لا تصح في نفسها إذ لا يحصل مقصود القربة إلا بتمام شروطها. وهذا واضح جدا.

وقد استدل بعض من رأى الوجوب أن الأضحية من شريعة إبراهيم عليه السلام وقد

أمرنا باتباعه لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وهذا ترد عليه أسئلة كثيرة، قد ذكرناها في الأصول فلا حجة فيه، لأنا نقول بموجب ذلك، ونسألهم: هل كانت الأضحية واجبة في شرعه، أو سنة؟ وليس هناك ما يدل على شيء من ذلك، فإن استدلوا بقصة الذبيح، فتلك قضية خاصة، أو منسوخة، ولا حجة في شيء منها والله تعالى أعلم»[2].

ولمزيد من التفصيل في حكم الأضحية انظر الآية ٣٦ من هذه السورة.

وأما الحكم الثاني وهو: وقت الذبح، فالكلام عليه من ثلاث جهات:

الأولى: أول وقت الذبح:

قال القرطبي: «وأما وقت ذبحها: فهو عند مالك بعد صلاة الإمام، وذبحه إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدى فيه فيسقط الاقتداء به، معتمدا في ذلك على حديث جابر المذكور في الأصل. وهو نص في ذلك. وعند أبي حنيفة: الفراغ من الصلاة دون مراعاة ذبح الإمام. ويشهد له حديث البراء فإنه قال فيه: «**من ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه**» فعلق الذبح على الصلاة، ولم يذكر الذبح للإمام. وعند الشافعي: وقتها دخول وقت الصلاة، ومقدار ما توقع فيه. فاعتبر الوقت دون الصلاة، وهو خروج عن ظواهر هذه الأحاديث، غير أنه لما صح عنده أن الأضحية مخاطب بها أهل البوادي ومن لا إمام له، ومن لا يخاطب بصلاة عيد؛ ظهر له أن حكمها متعلق بمقدار وقت الصلاة لأهل المصر وغيرهم. والله تعالى أعلم.

وأما على مذهب مالك: فرد مطلق حديث البراء إلى مقيد حديث جابر، لأنه قد اتحد المُوجِب والمُوجَب، وقد قلنا في أصول الفقه: إن هذا النوع متفق عليه عند الأصوليين.

وأما قبل الصلاة فقال القاضي عياض: أجمع المسلمون أن الذبح لأهل المصر لا يجوز قبلها، وإنما اختلفوا إذا ذبح بعدها وقبل ذبح الإمام. واختلفت فيه الآثار. وأما أهل البوادي ومن لا إمام له، أو إذا لم يُبْرِز الإمام أضحيته: فمشهور مذهب مالك يتحرى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه. وقال ربيعة وعطاء فيمن لا

---

(١) الحج: الآية (٧٨).

(٢) المفهم (٥/ ٣٤٨-٣٥٢).

إمام له: إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إن ذبح بعده. وقال أهل الرأي: يجزيهم من بعد الفجر. وكأن هؤلاء تمسكوا في ذلك بقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ فأضاف النحر إلى اليوم، وهل اليوم من بعد طلوع الفجر أو من طلوع الشمس؟ هذا سبب اختلافهم. وهذا لا تعويل عليه هنا، لأن النبي ﷺ قد عين للأضحية وقتا من اليوم بفعله وقوله، فإنه ذبح بعدما صلى وقال: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم ننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن لم يفعل فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء**»[١]. وهذا اللفظ عام يتناول كل مضح، وأمر رسول اللّه ﷺ في حديث جابر من ذبح قبله أن يعيد أضحية أخرى، ونهى أن يذبح قبل ذبحه. فإذًا أحسن المسالك ما ذهب إليه مالك»[٢].

هذه هي أشهر أقوال الأئمة في هذه المسألة، إلا أن الإمام ابن عبدالبر قد ذكر قولا آخر عن الإمام الشافعي يوافق مذهب الإمام مالك فقال: «أخبرنا إبراهيم بن شاكر قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى قال: قال أخبرنا أحمد بن بهزاد بن مهران السيرافي قال: حدثنا الربيع ابن سليمان في كتاب البويطي عن الشافعي قال: قال الشافعي: ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام، إلا أن يكون ممن لا يذبح. فإذا صلى وفرغ من الخطبة حل الذبح. قال: وينبغي للإمام أن يُحْضِر ضحيته المصلى، فيذبح حين يفرغ من الخطبة، فإن لم يفعل فليتوخ الناس قدر انصرافه وذبحه، ومن ذبح قبل الإمام فلا ضحية له، وأحب له أن يضحي بغيرها، فإن لم يفعل فلا شيء عليه ولا ضحية له.

قال أبو عمر: ومثل قول الشافعي في هذا كله قول مالك»[٣].

وهذا كله في اليوم الأول، أما الذبح في اليوم الثاني وما بعده، فيجوز في أول النهار. قال ابن قدامة: «أما الذبح في اليوم الثاني فيجوز في أول النهار، لأن

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨١-٢٨٢) والبخاري (٢/ ٥٧٦/ ٩٦٥) ومسلم (٣/ ١٥٥٣/ ١٩٦١(٧)) بهذا اللفظ والنسائي (٣/ ٢٠٢-٢٠٣/ ١٥٦٢). وأخرجه: أبو داود (٣/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٢٨٠٠) والترمذي (٤/ ٧٨/ ١٥٠٨) بألفاظ مختلفة. كلهم من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) المفهم (٣/ ٣٥٢-٣٥٤).

(٣) فتح البر (٩/ ٢٥٧-٢٥٨).

الصلاة فيه غير واجبة، ولأن الوقت قد دخل في اليوم الأول، وهذا من أثنائه، فلا تعتبر فيه صلاة ولا غيرها»[١].

الجهة الثانية: آخر وقت الذبح:

قال ابن قدامة: «آخره آخر اليوم الثاني من أيام التشريق، فتكون أيام النحر ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده، وهذا قول عمر وعلي وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأنس. قال أحمد: أيام النحر ثلاثة، عن غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ. وفي رواية قال: خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ. ولم يذكر أنسا. وهو قول مالك والثوري وأبي حنيفة، وروي عن علي: آخره آخر أيام التشريق. وهو مذهب الشافعي، وقول عطاء والحسن. . وقال ابن سيرين: لا تجوز إلا في يوم النحر خاصة، لأنها وظيفة عيد، فلا تجوز إلا في يوم واحد، كأداء الفطرة يوم الفطر. وقال سعيد بن جبير وجابر بن زيد، كقول ابن سيرين في أهل الأمصار، وقولنا في أهل منى وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن وعطاء بن يسار: تجوز التضحية إلى هلال المحرم»[٢].

وقال القرطبي: «فأما منتهاه فهو عند مالك يوم النحر يومان بعده. وعن الشافعي وثلاثة بعده. وعند غيرهما: يوم النحر خاصة. وقاله سليمان بن يسار وأبو سلمة بن عبدالرحمن، ورويا حديثا مرسلا. ومعتمد أصحابنا قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ الآية. قالوا: والمعلومات جمع قلة، لكن المتيقن منه الثلاثة، فإنه أقل الجمع على ما تقرر في الأصول. وما بعد الثلاثة غير متيقن، فلا يعمل به، فإن تعيين عدد بعد ذلك تحكم، إذ لم يعينه الشرع. وأما القول الثالث: فلا وجه له في علمي غير التمسك بإضافة النحر إلى اليوم الأول خاصة، وهو ضعيف مع قوله: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾»[٣].

والذي يترجح من هذه الأقوال هو قول الجمهور: مالك وأحمد وأبي حنيفة ومن قال بقولهم. أي: أن الذبح يوم الأضحى ويومان بعده، إلى غروب شمس يوم

---

(١) المغني (١٣/ ٣٨٦).

(٢) المغني (١٣/ ٣٨٦).

(٣) المفهم (٥/ ٣٥٤).

الثاني عشر من ذي الحجة، ويعضد هذا القول أنه قول جماعة من الصحابة لم يعلم لهم مخالف منهم، كما قال ابن قدامة[١]، ومن أصحها قول عبد اللّه بن عمر ﵄ أنه كان يقول: (الأضحى يومان بعد يوم الأضحى)[٢].

الجهة الثالثة: محل الذبح:

قال القرطبي: «اختلف في ليالي أيام النحر، هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أو لا؟ فروي عن مالك في المشهور: أنها لا تدخل. فلا يجوز الذبح بالليل، وعليه جمهور أصحابه. وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور: الليالي داخلة في الأيام، ويجزي الذبح فيها، وروي عن مالك وأشهب نحوه. ولأشهب تفريق بين الهدي والضحية، فأجاز الهدي ليلا، ولم يجز الضحية ليلا. وقد تمسك مالك بأصل وضع الأيام، فإنه الحقيقة في الكلام. وقد روي في ذلك نهي عن النبي ﷺ من حديث عطاء بن يسار مرسلا. ولا يصح، لأنه من حديث مبشر بن عبيد وهو متروك»[٣].

قال ابن رشد: «ذهب مالك في المشهور عنه إلى أنه لا يجوز الذبح في ليالي أيام التشريق ولا النحر. وذهب الشافعي وجماعة إلى جواز ذلك. وسبب اختلافهم الاشتراك الذي في اسم اليوم وذلك أنه مرة يطلقه العرب على النهار والليلة مثل قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[٤] ومرة يطلقه على الأيام دون الليالي مثل قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٥] فمن جعل اسم اليوم يتناول الليل مع النهار في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ قال: يجوز الذبح بالليل والنهار في هذه الأيام ومن قال ليس يتناول اسم اليوم الليل في هذه الآية قال: لا يجوز الذبح ولا النحر بالليل. والنظر هل اسم اليوم أظهر في أحدهما من الثاني ويشبه أن يقال إنه أظهر في النهار منه في الليل لكن إن سلمنا أن دلالته في الآية هي على النهار فقط لم يمنع الذبح بالليل إلا بنحو ضعيف من إيجاب

(١) المغني (١٣/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه: مالك في الموطأ (٢/ ٤٨٧) والبيهقي (٩/ ٢٩٧) من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر ﵄.

(٣) المفهم (٥/ ٣٥٤).

(٤) هود: الآية (٦٥).

(٥) الحاقة: الآية (٧).

دليل الخطاب وهو تعليق ضد الحكم بضد مفهوم الاسم وهذا النوع من أنواع الخطاب هو من أضعفها حتى إنهم قالوا ما قال به أحد المتكلمين إلا الدقاق فقط إلا أن يقول قائل إن الأصل هو الحظر في الذبح وقد ثبت جوازه بالنهار فعلى من جوزه بالليل الدليل»[١].

قال الصنعاني معلقا على قول ابن رشد: «لا حظر في الذبح بل قد أباح اللَّه ذبح الحيوان في أي وقت، وإنما كان الحظر عقلًا قبل إباحة اللَّه تعالى لذلك»[٢].

* **عن جابر** رضي الله عنه قال: أمر رسول اللَّه ﷺ من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر. فطبخت. فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول اللَّه ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر[٣].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما الأكل منها فيستحب ولا يجب، هذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة إلا ما حكي عن بعض السلف أنه أوجب الأكل منها، وهو قول أبي الطيب بن سلمة من أصحابنا، حكاه عنه الماوردي لظاهر هذا الحديث في الأمر بالأكل مع قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وحمل الجمهور هذا الأمر على الندب أو الإباحة لا سيما وقد ورد بعد الحظر، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[٤] وقد اختلف الأصوليون المتكلمون في الأمر الوارد بعد الحظر، فالجمهور من أصحابنا وغيرهم على أنه للوجوب كما لو ورد ابتداء، وقال جماعة منهم من أصحابنا وغيرهم أنه للإباحة»[٥].

قال القرطبي: «إنما فعل هذا ليمتثل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهما وإن لم يأكلا من كل بضعة؛ فقد شربا من مرق كل ذلك. وخصوصية علي بالمؤاكلة دليل: على أنه أشركه في الهدي. وفيه دليل: على أن من حلف ألا يأكل لحما فشرب مرقه: أنه يحنث. وفيه دليل على استحباب أكل الأقل من الهدايا والضحايا،

---

(١) بداية المجتهد (٢/ ٤٤٨-٤٤٩). (٢) سبل السلام (٤/ ١٧٣).

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨) وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤/ ١٩٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢-١٠٢٦/ ٣٠٧٤). وهو جزء من حديث جابر الطويل.

(٤) المائدة: الآية (٢). (٥) شرح مسلم (١٣/ ١١١).

والتصدق بالأكثر. وفيه دليل على جواز أكل المهدي من هدي القران»[١].

قال ابن عبد البر: «في حديث هذا الباب أن رسول اللَّه ﷺ أكل من هديه الذي ساقه في حجته، وهديه ذلك كان تطوعا عند كل من جعله مفردا، وأجمع العلماء على جواز الأكل من التطوع إذا بلغ محله لقول اللَّه ﷻ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾[٢] واختلفوا في جواز الأكل مما عدا هدي التطوع فقال مالك يؤكل من كل هدي سيق في الإحرام إلا جزاء الصيد وفدية الأذى وما نذر للمساكين. والأصل في ذلك عند مالك وأصحابه أن كل ما دخله الإطعام من الهدي والنسك لمن لم يجده فسبيله سبيل ما جعل للمساكين، ولا يجوز الأكل منه، وما سوى ذلك يؤكل منه لأن اللَّه قد أطلق الأكل من البدن وهي من شعائر اللَّه فلا يجب أن يمتنع من أكل شيء منها إلا بدليل لا معارض له، أو بإجماع. وقد أجمعوا على إباحة الأكل من هدي التطوع إذا بلغ محله ولم يجعلوه رجوعا فيه، فكذلك كل هدي إلا ما اجتمع عليه. وقال أبو حنيفة يأكل من هدي المتعة، وهدي التطوع إذا بلغ محله لا غيره. وقال الشافعي لا يأكل من شيء من الهدي الواجب. وقال في معنى قول اللَّه ﷻ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أن ذلك في هدي التطوع لا في الواجب بدليل الإجماع على أنه لا يؤكل من جزاء الصيد وفدية الأذى. فكانت العلة في ذلك أنه دم واجب في الإحرام من أجل ما أتاه المحرم. فكل هدي وجب على المحرم بسبب فعل أتاه فهو بمنزلته والواجبات لا يجوز الرجوع في شيء منها كالزكاة وباللَّه التوفيق»[٣].

* عن أبي سعيد الخدري: أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام، فقال: فقدم قتادة بن النعمان أخو أبي سعيد لأمه، فقربوا إليه من قديد الأضحى، فقال: كان هذا من قديد الأضحى؟ قالوا: نعم. فقال: أليس قد نهى عنه رسول اللَّه ﷺ؟ قال: فقال له أبو سعيد: قد حدث فيه أمر؟ إن رسول اللَّه ﷺ كان نهى أن نحبسه فوق ثلاثة أيام، ثم رخص لنا أن نأكل وندخر[٤].

---

(١) المفهم (٣/ ٣٤١-٣٤٢). (٢) الحج: الآية (٣٦).

(٣) فتح البر (٩/ ٧٧-٧٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣) والبخاري (١٠/ ٢٨-٢٩/ ٥٥٦٨)، و(٧/ ٣٩٨/ ٣٩٩٧) والنسائي (٧/ ٢٦٨/ ٤٤٤٠).

* عن عبد اللَّه بن واقد قال: نهى رسول اللَّه ﷺ عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث. قال عبد اللَّه بن أبي بكر: فذكرت ذلك لعمرة فقالت: صدق، سمعت عائشة تقول: دف أهل أبيات من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول اللَّه ﷺ. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ادخروا ثلاثا ثم تصدقوا بما بقي**» فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله: إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويجملون منها الودك. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وما ذاك؟**» قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث؟ فقال: «**إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت. فكلوا وادخروا وتصدقوا**»[١].

★ غريب الحديث:

دف ناس من أهل البادية: أي أقبلوا من البادية، والدف: سير سريع يقارب فيه بين الخطو.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في هذا الباب، فذهب قوم إلى أن يحرموا لحوم الأضاحي بعد ثلاث، واحتجوا بحديث أبي عبيد عن علي بن أبي طالب أن النبي نهى أن يؤكل من لحم الأضاحي بعد ثلاث[٢]. وبحديث ابن عمر أنه ﷺ أباح لهم الأكل منها ثلاثا[٣]. وإليه ذهب ابن عمر.

وخالفهم في ذلك آخرون ولم يروا بأكلها وادخارها بأسا، وعليه الجمهور، واحتجوا بحديث جابر وحديث أبي سعيد الخدري وحديث سلمة وقالوا: أحاديث الإباحة ناسخة للنهي في ذلك هذا قول الطحاوي.

وقال المهلب: والذي يصح عندي أنه ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقد فسر ذلك في الحديث بقوله: إنما كان ذلك من أجل الجهد، ومن أجل الدافة، فكان

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥١) ومسلم (٣/ ١٥٦١/ ١٩٧١) وأبو داود (٣/ ٢٤١-٢٤٢/ ٢٨١٢) والنسائي (٧/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤٤٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٤٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٦٨/ ٤٥١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٩) والبخاري (١٠/ ٢٩-٣٠/ ٥٥٧٤) ومسلم (٣/ ١٥٦٠/ ١٩٧٠) والترمذي (٤/ ٧٩/ ١٥٠٩) والنسائي (٧/ ٢٦٧/ ٤٤٣٥).

نظرا منه ﷺ لمعنى، فإذا زال المعنى سقط الحكم، وإذا ثبت المعنى ورأى ذلك الإمام عهد بمثل ما عهد به ﷺ؛ توسعة على المحتاجين»[١].

وقال القرطبي: «وهذا نص منه ﷺ: على أن ذلك المنع كان لعلة، ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدم؛ لارتفاع موجبه، لا لأنه منسوخ. وهذا يبطل قول من قال: إن ذلك المنع إنما ارتفع بالنسخ. لا يقال: فقد قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فادخروا**»[٢]. وهذا رفع لحكم الخطاب الأول بخطاب متأخر عنه. وهذا هو حقيقة النسخ؛ لأنا نقول: هذا لعمر اللَّه ظاهر هذا الحديث، مع أنه يحتمل أن يكون ارتفاعه بأمر آخر غير النسخ، فلو لم يرد لنا نص بأن المنع من الادخار ارتفع لارتفاع علته؛ لما عدلنا عن ذلك الظاهر، وقلنا: هو نسخ، كما قلناه في زيارة القبور، وفي الانتباذ بالحنتم المذكورين معه في حديث بريدة المتقدم في باب: الجنائز، لكن النص الذي في حديث عائشة رضي الله عنها في التعليل بين: أن ذلك الرفع ليس للنسخ، بل لعدم العلة، فتعين ترك ذلك الظاهر، والأخذ بذلك الاحتمال لعضد النص له واللَّه تعالى أعلم»[٣].

وقال: «تنبيه: الفرق بين رفع الحكم بالنسخ، ورفعه لارتفاع علته: أن المرفوع بالنسخ لا يحكم به أبدا، والمرفوع لارتفاع علته يعود الحكم لعود العلة. فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون في زمان الأضاحي، ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة يسدون بها فاقاتهم إلا الضحايا، لتعين عليهم: ألا يدخروها فوق ثلاث، كما فعل النبي ﷺ»[٤].

* * *

---

(١) شرح ابن بطال (٦/ ٣٠-٣١).

(٢) تقدم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) المفهم (٥/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٤) المفهم (٥/ ٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تفثهم: التفث: الوسخ والدرن. يقال: ما أتفثك، أي: ما أكثر وسخك.

العتيق: قيل: سمي بذلك لأنه معتق من الجبارين، لم يقصده جبار إلا قصم. وقيل: لأنه معتق من الطوفان. وقيل: لأنه مقدم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية. وأصله التقدم في الزمان أو المكان أو الرتبة ومن ثم قيل للقديم: عتيق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو وضع الإحرام؛ من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار ونحو ذلك، وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث المناسك وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني نحر ما نذر من أمر البدن. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل. وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمي الجمار، على ما أمروا به. وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن

أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول اللَّه تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول اللَّه ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «**أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض**»[1].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة، ولهذا طاف رسول اللَّه ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين، لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة. ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن هشام بن حجر، عن رجل عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طاف رسول اللَّه ﷺ من ورائه. وقال قتادة عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ لأنه أول بيت وضع للناس، وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق، لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خصيف: إنما سمي بالبيت العتيق، لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه، وكذا قال قتادة. وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد: لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك. وقال عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن اللَّه أعتقه من الجبابرة»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ في المراد بالعتيق هنا للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المراد به القديم، لأنه أقدم مواضع التعبد.

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤١٣-٤١٤).

الثاني: أن اللَّه أعتقه من الجبابرة.

الثالث: أن المراد بالعتق فيه الكرم، والعرب تسمي القديم عتيقا وعاتقا، ومنه قول حسان ﵁:

كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام

لأن مراده بالعاتق؛ الخمر القديمة التي طال مكثها في دنها زمنا طويلا، وتسمى الكرم عتقا ومنه قول كعب بن زهير:

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله: عتق مبين: أي كرم ظاهر، ومنه قول المتنبي:

ويبين عتق الخيل في أصواتها

أي كرمها، والعتق من الجبابرة كالعتق من الرق، وهو معروف.

وإذا علمت ذلك فاعلم: أنه قد دلت آية من كتاب اللَّه، على أن العتيق في الآية بمعنى: القديم الأول وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[1] الآية، مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق، ولكن القرآن دل على ما ذكرنا، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

تنبيهان:

الأول: دلت هذه الآية الكريمة، على لزوم طواف الإفاضة وأنه لا صحة للحج بدونه.

الثاني: دلت هذه الآية أيضا على لزوم الطواف من وراء الحجر الذي عليه الجدار القصير شمال البيت لأن أصله من البيت، فهو داخل في اسم البيت العتيق، كما تقدم إيضاحه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أحكام الطواف ودخول البيت

* عن ابن عمر ﵄ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من طاف أسبوعا

(١) آل عمران: الآية (٩٦).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٦٨٦-٦٨٧).

يحصيه، وصلى ركعتين كان له كعدل رقبة» قال: وسمعته يقول: «**ما رفع رجل قدما ولا وضعها إلا كتبت له عشر حسنات، وحط عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات**»[١].

★غريب الحديث:

أسبوعا: قال في تحفة الأحوذي: «قال في المجمع: طاف أسبوعا. أي: سبع مرات، والأسبوع الأيام السبعة، وسبوع بلا ألف لغة. انتهى. وقال القاري: أي سبعة أشواط كما في رواية».

★فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**فأحصاه**» أي من طاف بهذا البيت حق طوافه، بأن يوفي سننه، وآدابه وواجباته من الطهارة، وستر العورة والصلاة، ويستمر عليه أسبوعا، أي سبع مرات كان كذا»[٢].

قال السندي: «المراد ما يساوي إعتاق رقبة، وقد جاء في إعتاق الرقبة أن جزاءه العتق من النار، وهو يتوقف على مغفرة الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، بل سابقها ولاحقها، والله تعالى أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «وهذه الأحاديث عامة في كل الأوقات، لم يأت ما يخصها ويخرجها عن عمومها»[٤].

* عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى، أية ساعة شاء من ليل أو نهار**»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣) والترمذي (٣/ ٢٩٢/ ٩٥٩) وقال: «هذا حديث حسن». وأخرج طرفا منه: النسائي (٥/ ٢٤٣/ ٢٩١٩) وابن ماجه (٢/ ٩٨٥/ ٢٩٥٦) وصحح الحديث ابن خزيمة (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٢٧٥٣) وابن حبان (٩/ ١٠/ ٣٦٩٧ الإحسان) وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٢/ ١٣٦): «هذا إسناد رجاله ثقات».

(٢) شرح الطيبي (٦/ ١٩٨٣).

(٣) حاشية السندي على المسند (٨/ ٣٤-٣٥).

(٤) حاشية ابن القيم على أبي داود (٥/ ٣٤٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠) وأبو داود (٢/ ٤٤٩/ ١٨٩٤) والترمذي (٣/ ٢٢٠/ ٨٦٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٣٠٨-٣٠٩/ ٥٨٤) وابن ماجه (١/ ٣٩٨/ ١٢٥٤) وابن خزيمة (٢/ ٢٦٣/ ١٢٨٠) والحاكم (١/ ٤٤٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وابن حبان (٤/ ٤٢١/ ١٥٥٣ الإحسان).

* عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أن عبدالرحمن بن عبد القاري أخبره أنه طاف بالبيت مع عمر بن الخطاب بعد صلاة الصبح، فلما قضى عمر طوافه، نظر فلم ير الشمس طلعت، فركب حتى أناخ بذي طوى، فصلى ركعتين[1].

* عن عمرو بن دينار قال: رأيت أنا وعطاء بن أبي رباح ابن عمر طاف بعد الصبح وصلى قبل أن تطلع الشمس[2].

★ غريب الأحاديث:

بذي طوى: بضم الطاء وفتح الواو المخففة: موضع بأسفل مكة في صوب طريق التنعيم.

★ فوائد الأحاديث:

قال الطحاوي: «ذهب قوم إلى إباحة الصلاة للطواف في الليل والنهار، فلا يمنع من ذلك عندهم وقت من الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، واحتجوا في ذلك بهذه الآثار. وخالفهم في ذلك آخرون، فقالوا: لا حجة لكم في هذه الآثار لأن ما أباح رسول اللّه ﷺ فيها، وأمر بني عبد المطلب أو بني عبد مناف أن لا يمنعوا أحدا منه من الطواف والصلاة، هو الطواف على سبيل ما ينبغي أن يطاف، والصلاة على سبيل ما ينبغي أن تصلى، فأما على ما سوى ذلك فلا. ألا ترى أن رجلا لو طاف بالبيت عريانا، أو على غير وضوء أو جنبا، أن عليهم أن يمنعوه من ذلك لأنه طاف على غير ما ينبغي الطواف عليه. وليس ذلك بداخل فيما أمرهم رسول اللّه ﷺ أن لا يمنعوا منه من الطواف. فكذلك قوله: «**لا تمنعوا أحدا يصلي**» هو على ما قد أمر أن يصلى عليه من الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة في الأوقات التي قد أبيحت الصلاة فيها، فأما ماسوى ذلك فلا. وقد نهى رسول اللّه ﷺ نهيا عاما عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ونصف النهار وبعد الصبح حتى تطلع الشمس وبعد

(١) علقه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٢٣) ووصله مالك (١/ ٣٦٨/ ١١٧) وعبدالرزاق (٥/ ٦٣/ ٩٠٠٨) والبيهقي (٥/ ٩١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٨٧).

(٢) علقه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٢٣) ووصله الشافعي في الرسالة (ص٣٢٩,) وعبدالرزاق في مصنفه (٥/ ٦٣-٦٤/ ٩٠١١) وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٣/ ٦٢٤).

العصر حتى تغيب الشمس[١] وتواترت بذلك الآثار عن رسول اللَّه ﷺ . . والنظر يدل على ذلك أيضا، لأنا قد رأينا رسول اللَّه ﷺ نهى عن صيام يوم الفطر ويوم النحر[٢]، فكل قد أجمع أن ذلك في سائر البلدان سواء فالنظر على ذلك أن يكون ما نهى عنه من الصلوات في الأوقات التي نهى عن الصلوات فيها في سائر البلدان كلها على السواء. فبطل بذلك قول من ذهب إلى إباحة الصلاة للطواف في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها. ثم افترق الذين خالفوا أهل المقالة الأولى في ذلك على فرقتين. فقالت فرقة منهم: لا يصلي في شيء من هذه الخمسة الأوقات للطواف، كما لا يصلي فيها للتطوع، وممن قال ذلك أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد رحمهم اللَّه تعالى. . وقالت فرقة: يصلي للطواف بعد العصر قبل اصفرار الشمس، وبعد الصبح قبل طلوع الشمس، ولا يصلي لذلك في الأوقات الثلاثة البواقي المنهي عن الصلاة فيها، وممن قال ذلك مجاهد وإبراهيم النخعي وعطاء. . وكان النظر في ذلك -لما اختلفوا هذا الاختلاف- أنا رأينا طلوع الشمس وغروبها ونصف النهار، يمنع من قضاء الصلوات الفائتات، وبذلك جاءت السنة عن رسول اللَّه ﷺ في تركه قضاء الصبح التي نام عنها الى ارتفاع الشمس وبياضها. فإذا كان ما ذكرنا ينهى عن قضاء الفرائض الفائتات، فهو عن الصلوات للطواف أنهى. وقد قال عقبة بن عامر: (ثلاث ساعات كان رسول اللَّه ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن، وأن نقبر فيهن موتانا، حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل، وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب»[٣] وقد ذكرنا ذلك بإسناده فيما تقدم من كتابنا هذا. فإذا كانت هذه الأوقات تنهى عن الصلاة على الجنائز، فالصلاة للطواف أيضا كذلك، وكذلك كانت الصلاة بعد العصر قبل تغير الشمس، وبعد الصبح قبل طلوع الشمس مباحة على الجنائز، ومباحة في قضاء الصلاة الفائتة ومكروهة في

---

(١) كحديث ابن عباس الذي أخرجه: أحمد (١/ ١٨) والبخاري (٢/ ٧٣/ ٥٨١) ومسلم (١/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٨٢٦) وأبو داود (٢/ ٥٦/ ١٢٧٦) والترمذي (١/ ٣٤٣-٣٤٤/ ١٨٣) والنسائي (١/ ٢٩٩/ ٥٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١١) والبخاري (٤/ ٣٠١/ ١٩٩٣) ومسلم (٢/ ٧٩٩/ ١١٣٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٠/ ٢٧٩٥) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٢) ومسلم (١/ ٥٦٨/ ٨٣١) وأبو داود (٣/ ٥٣١-٥٣٢/ ٣١٩٢) والترمذي (٣/ ٣٤٨-٣٤٩/ ١٠٣٠) والنسائي (١/ ٢٩٨/ ٥٥٩) وابن ماجه (١/ ٤٨٦-٤٨٧/ ١٥١٩) كلهم من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

التطوع، وكان الطواف يوجب الصلاة حتى يكون وجوبها كوجوب الصلاة على الجنائز. فالنظر على ما ذكرنا أن يكون حكمها بعد وجوبها، كحكم الفرائض التي قد وجبت، وحكم الصلاة على الجنائز التي قد وجبت. فتكون الصلاة للطواف، تصلى في كل وقت يصلى فيه على الجنائز، وتقضى فيه الصلاة الفائتة، ولا تصلى في كل وقت لا يصلى فيه على الجنازة، ولا تقضى فيه صلاة فائتة. فهذا هو النظر عندنا في هذا الباب على ما قال عطاء وإبراهيم ومجاهد، وعلى ما قد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما. وإليه نذهب وهو قول سفيان وهو خلاف قول أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، رحمهم اللَّه تعالى»[١].

قال المباركفوري: «وقال صاحب التعليق الممجد من العلماء الحنفية ما لفظه: ولعل المنصف المحيط بأبحاث الطرفين يعلم أن هذا يعني جواز ركعتي الطواف بعد العصر وبعد الصبح قبل الطلوع والغروب هو الأرجح الأصح»[٢].

* عن عبد اللَّه بن عمر أن نبي اللَّه ﷺ كان إذا طاف بالبيت مسح أو قال: استلم الحجر والركن في كل طواف[٣].

* عن جعفر بن عبد اللَّه بن عثمان قال: رأيت محمد بن عباد بن جعفر يستلم الحجر ثم يقبله ويسجد عليه فقلت له: ما هذا؟ فقال: رأيت خالك عبد اللَّه بن عباس يفعله. ثم قال: رأيت عمر فعله. ثم قال: إني لأعلم أنك حجر، ولكني رأيت رسول اللَّه ﷺ يفعل هذا[٤].

★ فوائد الحديثين:

قال صاحب عون المعبود: «والحديث فيه دليل على استلام الركن اليماني

---

(١) شرح معاني الآثار (٢/ ١٨٦-١٨٩).

(٢) تحفة الأحوذي (٣/ ٥١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨) وأبو داود (٢/ ٤٤٠-٤٤١/ ١٨٧٦) والنسائي (٥/ ٢٥٥/ ٢٩٤٧) وابن خزيمة (٤/ ٢١٦/ ٢٧٢٣) واللفظ له، والحاكم (١/ ٤٥٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: أبو داود الطيالسي في مسنده (ص٧,) والدارمي (٢/ ٥٣) والحاكم (١/ ٤٥٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٣٠٩-٣١٢/ ١١١٢) وقال في آخر مبحثه: «قلت: فيبدو من مجموع ما سبق أن السجود على الحجر الأسود ثابت مرفوعا وموقوفا والله أعلم».

والحجر الأسود فيرد الحديث على من قال إنه ليس بسنة»[١].

قال صديق حسن خان: «وأما الابتداء بالحجر، فلأنه وجب عند التشريع أن يعين محل البداية وجهة المشي، والحجر أحسن مواضع البيت لأنه نازل من الجنة، واليمين أيمن الجهتين»[٢].

قال ابن عبدالبر: «لا يختلفون أن تقبيل الحجر الأسود في الطواف من سنن الحج لمن قدر على ذلك، ومن لم يقدر على تقبيله وضع يده عليه ورفعها إلى فيه، فإن لم يقدر على ذلك أيضا للزحام كبر إذا قابله، فمن لم يفعل فلا حرج عليه، ولا ينبغي لمن قدر على ذلك أن يتركه تأسيا برسول اللّه ﷺ وأصحابه بعده»[٣].

قال الصنعاني: «فيه شرعية تقبيل الحجر والسجود عليه»[٤].

قال ابن عبدالبر: «وأما استلام الركن، فسنة مسنونة عند ابتداء الطواف، وعند الخروج بعد الطواف والرجوع إلى الصفا، لا يختلف أهل العلم في ذلك قديما وحديثا والحمد لله»[٥].

وقال أيضا: «كان مالك يستحب لمن طاف بالبيت أن يركع عند المقام، فإن لم يقدر فحيث أمكنه، فإذا ركع أتى الحجر فاستلمه بيده، ووضع يده على فيه، ثم خرج إلى الصفا للسعي، ومن ترك الاستلام فلا شيء عليه»[٦].

* عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**الطواف حول البيت مثل الصلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير**»[٧].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عيسى الترمذي: «والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، يستحبون ألا يتكلم الرجل في الطواف إلا لحاجة، أو بذكر اللّه تعالى، أو من العلم»[٨].

---

(١) عون المعبود (٥/ ٣٢٩).
(٢) الروضة الندية (١/ ٦١٨).
(٣) فتح البر (٨/ ٥٠٢).
(٤) سبل السلام (٢/ ٤١٠).
(٥) فتح البر (٤/ ٥١٧).
(٦) فتح البر (٤/ ٥١٧).
(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١٤) والترمذي (٣/ ٢٩٣/ ٩٦٠) والنسائي (٥/ ٢٤٤-٢٤٥/ ٢٩٢٢) وابن خزيمة (٤/ ٢٢٢/ ٢٧٣٩) وابن حبان (الإحسان ٩/ ١٤٣-١٤٤/ ٣٨٣٦) والحاكم (١/ ٤٥٩) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.
(٨) السنن (٣/ ٢٩٣).

وقال شيخ الإسلام: «قوله: «**الطواف بالبيت صلاة**» لم يثبت عن النبي ﷺ، ولكن هو ثابت عن ابن عباس، وقد روي مرفوعا، ونقل بعض الفقهاء عن ابن عباس أنه قال: «**إذا طاف بالبيت وهو جنب عليه دم**» ولا ريب أن المراد بذلك أنه يشبه الصلاة من بعض الوجوه، ليس المراد أنه نوع من الصلاة التي يشترط لها الطهارة وهكذا قوله: «**إذا أتى أحدكم المسجد فلا يشبك بين أصابعه، فإنه في صلاة**»[1] وقوله: «**إن العبد في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، وما دام ينتظر الصلاة، وما كان يعمد إلى الصلاة**»[2] ونحو ذلك»[3].

وقال: «ويستحب له في الطواف أن يذكر اللّه تعالى، ويدعوه بما يشرع، وإن قرأ القرآن سرا فلا بأس، وليس فيه ذكر محدود عن النبي ﷺ، لا بأمره، ولا بقوله، ولا بتعليمه، بل يدعو فيه بسائر الأدعية الشرعية، وما يذكره كثير من الناس من دعاء معين تحت الميزاب، ونحو ذلك فلا أصل له. وكان النبي ﷺ يختم طوافه بين الركنين بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4] كما كان يختم سائر دعائه بذلك، وليس في ذلك ذكر واجب باتفاق الأئمة، والطواف بالبيت كالصلاة، إلا أن اللّه أباح فيه الكلام، فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير.

ولهذا يؤمر الطائف أن يكون متطهرا الطهارتين الصغرى والكبرى ويكون مستور العورة، مجتنب النجاسة التي يجتنبها المصلي والطائف طاهرا؛ لكن في وجوب الطهارة في الطواف نزاع بين العلماء»[5].

قال ابن رشد: «واختلفوا في جواز الطواف بغير طهارة مع إجماعهم على أن من سنته الطهارة، فقال مالك والشافعي: لا يجزئ طواف بغير طهارة لا عمدا ولا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤١) وأبو داود (١/ ٣٨٠/ ٥٦٣) والترمذي (٢/ ٢٢٨/ ٣٨٦) وابن خزيمة (١/ ٢٢٧/ ٤٤١) وابن حبان (٥/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٢٠٣٦ الإحسان) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٢) والبخاري (١/ ٧٤٢-٧٤٣/ ٤٧٧) ومسلم (١/ ٤٥٩/ ٦٤٩) وأبو داود (١/ ٣٢٠/ ٤٧٠-٤٧١) وابن ماجه (١/ ٢٦٢/ ٧٩٩). وأخرجه الترمذي (٢/ ٤٩٩-٥٠٠/ ٦٠٣) دون موضع الشاهد، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٢٦).

(٤) البقرة: الآية (٢٠١).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٢٢-١٢٣).

سهوا. وقال أبو حنيفة: يجزئ ويستحب له الإعادة وعليه دم. وقال أبو ثور: إذا طاف على غير وضوء؛ أجزأه طوافه إن كان لا يعلم، ولا يجزئه إن كان يعلم، والشافعي يشترط طهارة ثوب الطائف كاشتراط ذلك للمصلي. وعمدة من شرط الطهارة في الطواف قوله ﷺ للحائض وهي أسماء بنت عميس: «**اصنعي ما يصنع الحاج غير ألا تطوفي بالبيت**»[(١)] وهو حديث صحيح، وقد يحتجون أيضا بما روي أنه ﷺ قال: «**الطواف بالبيت صلاة إلا أن اللَّه أحل فيه النطق فلا ينطق إلا بخير**»[(٢)] وعمدة من أجاز الطواف بغير طهارة: إجماع العلماء على جواز السعي بين الصفا والمروة من غير طهارة، وأنه ليس كل عبادة يشترط فيها الطهر من الحيض، من شرطها الطهر من الحدث، أصله الصوم»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «فإنه لم ينقل أحد عن النبي ﷺ أنه أمر بالطهارة للطواف ولا نهى المحدث أن يطوف، ولكنه طاف طاهرا. لكنه ثبت عنه أنه نهى الحائض عن الطواف. وقد قال النبي ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**»[(٤)] فالصلاة التي أوجب لها الطهارة ما كان يفتتح بالتكبير، ويختم بالتسليم، كالصلاة التي فيها ركوع وسجود، كصلاة الجنازة، وسجدتي السهو، وأما الطواف وسجود التلاوة فليسا من هذا»[(٥)].

قلت: رحمة اللَّه على شيخ الإسلام إمام الأئمة وفارس العقيدة وداعية السنة، يرى أن وجوب الطهارة للطواف لم يأت فيه أمر من النبي ﷺ، وقارن الطواف بسجود التلاوة، وأن هذه الأمور لا تصل في مجموعها إلى وجوب الطهارة للصلاة التي قال فيها ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور**». والذي يظهر -واللَّه أعلم- أن فعله ﷺ

---

(١) أخرجه بأطول مما هنا: أحمد (٦/ ٢١٩) والبخاري (١/ ٥٢٧/ ٢٩٤) ومسلم (٢/ ٨٧٣/ ١٢١١[١١٩]) وأبو داود (٢/ ٣٨٢-٣٨٣/ ١٧٨٢) وابن ماجه (٢/ ٩٨٨/ ٢٩٦٣). وأخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٦/ ٤٢٤٢) دون ذكر محل الشاهد. كلهم من حديث عائشة ﵂.

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) بداية المجتهد (٢/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٣) وأبو داود (١/ ٤٩-٥٠/ ٦١) والترمذي (١/ ٨-٩/ ٣) وقال: «هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن»، وابن ماجه (١/ ١٠١/ ٢٧٥) كلهم عن محمد بن الحنفية عن علي ﵁. والحديث صحح إسناده الحافظ في الفتح (٢/ ٤١٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٢٣).

وأحواله في الحج والعمرة، وفعل الصحابة وأحوالهم وأقوالهم؛ تجعل الإنسان يجزم جزمًا قويًّا بأن الطهارة واجبة في الطواف وفريضة من فرائضه، ولا أعلم أحدًا من السلف طاف بغير طهور، فإن كان للشيخ مستند لم نعلمه ولم نطلع عليه على قلة علمنا وضعف فهمنا وقصر نظرنا فذاك، وإلا فالطهارة ملازمة للطواف، وتأخير الحائض وتأجيل طوافها بالبيت يظهر منه فرضية الطهارة، فإن الحائض نهيت عن الصلاة ومنعت منها لتلبسها بدم الحيض، والنبي ﷺ واظب على هذا الأمر، ولهذا معظم أئمة السلف من المالكية والشافعية والحنابلة على اشتراط الطهارة للطواف، هذا والله أعلم.

* عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أسمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إنما أمرتم بالطواف ولم تؤمروا بدخوله. قال: لم يكن ينهى عن دخوله، ولكني سمعته يقول: أخبرني أسامة بن زيد؛ أن النبي ﷺ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها. ولم يصل فيه. حتى خرج. فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين. وقال: هذه القبلة قلت له: ما نواحيها؟ أفي زواياها؟ قال: بل في كل قبلة من البيت[(١)].

* عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحجبي فأغلقها عليه ومكث فيها. فسألت بلالا حين خرج: ما صنع النبي ﷺ؟ قال: جعل عمودا عن يساره، وعمودا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه. وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، ثم صلى[(٢)].

★ فوائد الحديثين:

ذكر القرطبي: «أن النبي ﷺ صلى في البيت الصلاة المعهودة الشرعية. وبهذا أخذ الشافعي، وأبو حنيفة، والثوري، وجماعة من السلف، وبعض الظاهرية فقالوا: يصلى في الكعبة التطوع والفرض. وقد خالف بلالا أسامة، فقال: إن النبي

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٦٨/ ١٣٣٠) واللفظ له. وأخرج الطرف الثاني من حديث ابن عباس عن أسامة رضي الله عنهما: أحمد (٥/ ٢٠١) والنسائي (٥/ ٢٤٢/ ٢٩١٧). ومن حديث عطاء عن أسامة: أحمد (٥/ ٢٠٩و٢١٠) والنسائي (٥/ ٢٤١-٢٤٢/ ٢٩١٤، ٢٩١٥، ٢٩١٦) ومن حديث عطاء عن ابن عباس: البخاري (١/ ٦٦٠/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٣) والبخاري (١/ ٧٦٠/ ٥٠٥) ومسلم (٢/ ٩٦٦/ ١٣٢٩) وأبو داود (٢/ ٥٢٤/ ٢٠٢٣) والنسائي (٢/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٧٤٨) وابن ماجه (٢/ ١٠١٨/ ٣٠٦٣).

ﷺ لم يصل في الكعبة، وإنما دعا فيها. وبهذا أخذ ابن عباس، وبعض الظاهرية؛ فلم يجيزوا فيها فرضا ولا تطوعا. وقال مالك: لا يصلى فيها الفروض ولا السنن، ويصلى فيها التطوع، غير أنه إن صلى فيها الفرض أعاد في الوقت. وقال أصبغ: يعيد أبدا. ويمكن أن يجمع بين حديث أسامة وبلال على مقتضى مذهب مالك. فيقال: إن قول بلال: أنه صلى فيها. يعني به: التطوع. وقول أسامة: إنه لم يصل فيها. يعني به: الفرض. وقد جمع بينهما بعض أئمتنا بوجه آخر. فقال: إن أسامة تغيب في الحين الذي صلى فيه النبي ﷺ، فلم يشاهده، فاستصحب النفي لسرعة رجعته، فأخبر عنه، وشاهد ذلك بلال فأخبر عما شاهد. وعضد هذا بما رواه ابن المنذر عن أسامة قال: رأى النبي ﷺ صورا في الكعبة، فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به تلك الصور. فيحتمل أن يكون النبي ﷺ صلى في حالة مضي أسامة في طلب الماء، واللَّه تعالى أعلم. وعلى الجملة: فحديث من أثبت أولى أن يؤخذ به؛ لأنه أخبر عن مشاهدة، فكان أولى من النافي»[1].

قال ابن عبدالبر: «رواية ابن عمر عن بلال عن النبي ﷺ أنه صلى في الكعبة، أولى من رواية ابن عباس عن أسامة، أن رسول اللَّه ﷺ، لم يصل فيها، لأنها زيادة مقبولة، وليس قول من قال: لم يفعل بشهادة، وهذا أصل من أصول الفقه في الشهادة إذا تعارضت في نحو هذا، فأثبت قوم شيئا ونفاه آخرون، كان القول قول المثبت دون النافي؛ لأن النافي ليس بشاهد؛ هذا إذا استويا في العدالة والإتقان، والقول في قبول زيادة الزائد في أخبار على نحو هذا، لأن الزيادة كشهادة مستأنفة»[2].

وقال بعد أن استعرض الخلاف في الصلاة داخل الكعبة: «لا يصح في هذه المسألة إلا أحد قولين: إما أن يكون من صلى في الكعبة صلاته تامة فريضة كانت أو نافلة، لأنه قد استقبل بعضها وليس عليه إلا ذلك، أو تكون صلاته فاسدة فريضة كانت أو نافلة، من أجل أنه لم يحصل له استقبال بعضها إذا صلى داخلها إلا باستدبار بعضها، ولا يجوز ذلك عند من ذهب إلى أن الأمر بالشيء نهي عن جميع

(١) المفهم (٣/ ٤٣١).
(٢) فتح البر (٨/ ٤٦٢).

أضداده في كل باب، والصواب من القول في هذا الباب -عندي- قول من أجاز الصلاة كلها في الكعبة إذا استقبل شيئا منها، لأنه قد فعل ما أمر به، ولم يأت ما نهى عنه، لأن استدبارها هاهنا ليس بضد استقبالها، لأنه ثابت معه في بعضها، والضد لا يثبت مع ضده، ومعلوم أن المأمور باستقبال الكعبة لم يؤمر باستقبال جميعها، وإنما توجه الخطاب إليه باستقبال بعضها، والمصلي في جوفها قد استقبل جهة منها وقطعة وناحية، فهو مستقبل لها بذلك، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه صلى فيها ركعتين، وهو المبين عن اللّٰه مراده، وكل موضع يجوز فيه صلاة النافلة، جازت فيه صلاة الفريضة قياسا ونظرا، إلا أن يمنع من ذلك ما يجب التسليم له، على أنه لا يجب لأحد أن يتعمد صلاة الفريضة فيها، ولو صلى فيها ركعتين نافلة، لم يكن بذلك بأس، فإن صلى أحد فيها فريضة، فلا حرج ولا إعادة»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الناس ينصرفون في كل وجه، فقال رسول اللّٰه ﷺ: **«لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»**[٢].

⋆ فوائد الحديث:

في الحديث: «دليل على وجوب طواف الوداع، وبه قال جماهير السلف والخلف، وخالف الناصر ومالك وقالا: لو كان واجبا لما خفف عن الحائض. وأجيب بأن التخفيف دليل الإيجاب إذ لو لم يكن واجبا لما أطلق عليه لفظ التخفيف، والتخفيف عنها دليل على أنه لا يجب عليها، فلا تنتظر الطهر ولا يلزمها دم بتركه؛ لأنه ساقط عنها من أصله» قاله الصنعاني[٣].

قال النووي: «فيه دلالة لمن قال بوجوب طواف الوداع، وأنه إذا تركه لزمه دم وهو الصحيح في مذهبنا، وبه قال أكثر العلماء، منهم الحسن البصري والحكم

---

(١) فتح البر (٨/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٢) ومسلم (٢/ ٩٦٣/ ١٣٢٧) وأبو داود (٢/ ٥١٠/ ٢٠٠٢) وابن ماجه (٢/ ١٠٢٠/ ٣٠٧٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٦٣/ ٤١٨٤) من طريق سفيان بن عيينة عن سليمان عن طاووس عن ابن عباس. وأخرجه: البخاري (٣/ ٧٤٦/ ١٧٥٥) ومسلم (٢/ ٩٦٣/ ١٣٢٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٦٦/ ٤١٩٩) من طريق سفيان بن عيينة عن ابن طاووس عن طاووس عن ابن عباس، وزادوا: **«إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»**.

(٣) سبل السلام (٢/ ٤٣٢).

وحماد والثوري وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وقال مالك وداود وابن المنذر: هو سنة لا شيء في تركه، وعن مجاهد روايتان كالمذهبين»[١].

قال الصنعاني: «ووقت طواف الوداع من ثالث النحر فإنه يجزئ إجماعا، وهل يجزئ قبله؟ والأظهر عدم إجزائه لأنه آخر المناسك واختلفوا إذا أقام بعده هل يعيده أم لا؟ قيل: إذا بقي بعده لشراء زاد وصلاة جماعة لم يعده. وقيل: يعيده إذا أقام لتمريض ونحوه. وقال أبو حنيفة: لا يعيد ولو أقام شهرين. ثم هل يشرع في حق المعتمر؟ قيل: لا يلزمه لأنه لم يرد إلا في الحج وقال الثوري: يجب على المعتمر أيضا وإلا لزمه دم»[٢].

* * *

(١) شرح مسلم (٩/ ٦٧).

(٢) سبل السلام (٢/ ٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات والمحظورات. قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى اللّه عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد»[١].

قال السعدي: «﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات اللّه وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات اللّه، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه اللّه ثوابا جزيلا، وكانت خيرا له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه.

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، من عبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر اللّه العباد بالقيام بها، فتعظيمها إجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متثاقل»[٢].

قال ابن القيم: «قال جماعة من المفسرين **«حرمات الله»** هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، وتعظيمها ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤١٤-٤١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٩١).

ومشاعر الحج زمانا ومكانا .

والصواب : أن الحرمات تعم هذا كله . وهي جمع حرمة ، وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن . فتعظيمها : توفيتها حقها ، وحفظها من الإضاعة»[١] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلِّية الأنعام، ولكنه بينه بقوله في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[1] وهذا الذي ذكرنا هو الصواب، أما ما قاله جماعات من أهل التفسير من أن الآية التي بينت الإجمال في قوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أنها قوله تعالى في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾[2] الآية فهو غلط، لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وآية الحج هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير، فلا يصح أن يحال البيان عليها في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ بل المبين لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا، لأنها نازلة بمكة، فيصح أن تكون مبينة لآية الحج المذكورة كما نبه عليه غير واحد.

أما قوله تعالى في المائدة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3] فيصح بيانه بقوله في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[4] الآية. كما أوضحنا في أول المائدة، والعلم عند اللَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾. (من) في هذه الآية بيانية. والمعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان: أي عبادتها، والرجس القذر الذي تعافه النفوس، وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب عبادة الأوثان، ويدخل في حكمها، ومعناها عبادة كل معبود من دون اللَّه كائنا من كان. وهذا الأمر باجتناب عبادة غير اللَّه المذكور هنا، جاء مبينا في آيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٥).
(٢) المائدة: الآية (٣).
(٣) المائدة: الآية (١).
(٤) المائدة: الآية (٣).

أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[١] وبين تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٢] وأثنى الله على مجتنبي عبادة الطاغوت المنيبين لله، وبين أن لهم البشرى، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[٣] الآية. وقد سأل إبراهيم ربه أن يرزقه اجتناب عبادة الطاغوت، في قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[٤] والأصنام، تدخل في الطاغوت دخولا أوليا.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾. أمر في هذه الآية الكريمة باجتناب قول الزور، وهو الكذب والباطل كقولهم: إن الله حرم البحيرة والسائبة، ونحو ذلك، وكادعائهم له الأولاد والشركاء، وكل قول مائل عن الحق فهو زور، لأن أصل المادة التي هي الزور من الازورار بمعنى الميل، والاعوجاج، كما أوضحناه في الكلام على قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾[٥] الآية.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها، أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، وتقدمت لذلك أمثلة. وسيأتي بعض أمثلته في الآيات القريبة من سورة الحج هذه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[٦] فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور. وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[٧] فصرح بأن قولهم ذلك، منكر وزور، وقد ثبت في

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٦).
(٣) الزمر: الآية (١٧).
(٤) إبراهيم: الآية (٣٥).
(٥) الكهف: الآية (١٧).
(٦) الفرقان: الآية (٤).
(٧) المجادلة: الآية (٢).

الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول اللَّه** ﷺ قال: الإشراك باللَّه وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» اهـ.

وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾[1] لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قول الزور. وقد أتى مقرونا قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وذلك يدل على عظمة قول الزور، لأن الإشراك باللَّه قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله. وكتكذيبه ﷺ فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك باللَّه. نعوذ باللَّه من كل سوء»[2].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يقول جل ثناؤه: وأحل اللَّه لكم أيها الناس الأنعام أن تأكلوها إذا ذكيتموها، فلم يحرم عليكم منها بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاما، ولا ما جعلتموه منها لآلهتكم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: إلا ما يتلى عليكم في كتاب اللَّه وذلك: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير اللَّه به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب، فإن ذلك كله رجس.. وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ يقول: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها فإنها رجس.. وقوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واتقوا قول الكذب والفرية على اللَّه بقولكم في الآلهة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[3] وقولكم للملائكة: هي بنات اللَّه ونحو ذلك من القول، فإن ذلك كذب وزور وشرك باللَّه.. فإن قال قائل: وهل من الأوثان ما ليس برجس حتى قيل: فاجتنبوا الرجس منها؟ قيل: كلها رجس، وليس المعنى ما ذهبت إليه في ذلك. وإنما معنى الكلام: فاجتنبوا الرجس

---

(١) الأعراف: الآية (٣٣).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٦٨٨-٦٩٠).

(٣) الزمر: الآية (٣).

الذي يكون من الأوثان أي عبادتها، فالذي أمر جل ثناؤه بقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس»[١].

قال الرازي: «ثم إنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها، أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور. لأن توحيد اللّه تعالى وصدق القول أعظم الخيرات، وإنما جمع الشرك وقول الزور في سلك واحد لأن الشرك من باب الزور، لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله، ولا تقربوا منه شيئا لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان. وسمى الأوثان رجسا لا للنجاسة، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس، ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات. ثم قال الأصم إنما وصفها بذلك لأن عادتهم في المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها. وهذا بعيد. وقيل: إنه إنما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب، وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ بيان للرجس وتمييز له، كقوله: عندي عشرون من الدراهم لأن الرجس لما فيه من الإيهام يتناول كل شيء، فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وليس المراد أن بعضها ليس كذلك»[٢].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ وهو الكذب.

وله متعلقات، أعظمها عقوبة الكذب على اللّه في ذاته، أو صفاته أو أفعاله، وهو الشرك.

ويلحق به الكذب على النبي ﷺ؛ لأنه على الله؛ إذ بكلامه يتكلم.

المتعلق الثاني: الشهادة.

وهو تصوير الباطل بصورة الحق في طريق الحكم؛ ولهذا عظم النبي ﷺ أمرها، فذكر الكبائر، فقال: «**الإشراك باللّه، وشهادة الزور، ثم قال: وقول الزور، ألا وقول الزور**»[٣]، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٥٣-١٥٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ٣٢).

(٣) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

ومن طريق آخر: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾»[1].

ثم تتفاوت متعلقات الكذب بحسب عظم ضرره وقلته»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شهادة الزور وأنها من أكبر الكبائر

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»[3].

★ **غريب الحديث:**

الزور: الكذب. قيل له ذلك لكونه مائلا عن الحق والزور بفتح الزاي الميل. وأصله تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل لمن سمعه أنه بخلاف ما هو به.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قول الزور هو الكذب، وهو محرم على المؤمنين، وهذا الحديث في شاهد الزور تغليظ شديد ووعيد كبير، ودل قوله ﷺ: «**فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» على أن الزور يحبط أجر الصائم، وأن من نطق به في صيامه كالآكل الشارب عند الله -تعالى- في الإثم، فينبغي تجنبه والحذر منه، لإحباطه للصيام الذي أخبر النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قال فيه: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»[4] فما ظنك بسيئة غطت على هذا الفضل الجسيم والثواب العظيم؟!»[5].

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٢٨٤-١٢٨٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥٢-٤٥٣-٥٠٥) والبخاري (١٠/ ٥٨٠/ ٦٠٥٧) وأبو داود (٢/ ٧٦٧/ ٢٣٦٢) والترمذي (٣/ ٨٧/ ٧٠٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٣٨/ ٣٢٤٧) وابن ماجه (١/ ٥٣٩/ ١٦٨٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٣) والبخاري (٤/ ١٤٨/ ١٩٠٤) ومسلم (٢/ ٨٠٧/ ١١٥١(١٦١، ١٦٤)) وأبو داود (٢/ ٧٦٨/ ٢٣٦٣) والترمذي (٣/ ١٣٦/ ٧٦٤) والنسائي (٤/ ٤٧١-٤٧٣/ ٢٢١٣-٢٢١٨) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) شرح ابن بطال (٩/ ٢٥٠).

وقال الطيبي: «وفي الحديث دليل على أن الكذب والزور أصل الفواحش، ومعدن المناهي، بل قرين الشرك، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وقد علم أن الشرك مضاد الإخلاص، وللصوم مزيد اختصاص بالإخلاص، فيرتفع بما يضاده»[١].

وقال ابن عبدالبر: «وأما قوله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[٢] فمعناه الكراهية والتغليظ، كما جاء في الحديث: «**من شرب الخمر؛ فلْيُشقِص الخنازير**»[٣] أي يذبحها أو ينحرها، أو يقتلها بالمشقص، وليس هذا على الأمر بشقص الخنازير، ولكنه على تعظيم إثم شارب الخمر؛ فكذلك من اغتاب، أو شهد زورًا، أو منكرًا، لم يؤمر بأن يدع صيامه، ولكنه يؤمر باجتناب ذلك، ليتم له أجر صومه، فاتقى عبد ربه، وأمسك عن الخنا والغيبة والباطل بلسانه، صائما كان أو غير صائم، فإنما يكب الناس في النار على وجوههم حصائد ألسنتهم والله الموفق للرشاد»[٤].

* عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** -ثلاثًا- قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** وجلس وكان متكئًا فقال: ألا وقول الزور!. . قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٥].

* عن وائل بن ربيعة قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: عدلت شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ عبد الله هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[٦].

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة (٥/ ١٥٩٠-١٥٩١).

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) لم أجده بلفظ: «من شرب» وإنما بلفظ: «من باع» وهو حديث ضعيف، أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٣) وأبو داود (٣/ ٧٥٨-٧٥٩/ ٣٤٨٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٤) فتح البر (٧/ ٢٨٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦-٣٧،٣٨) والبخاري (٥/ ٣٢٨/ ٢٦٥٤) ومسلم (١/ ٩١/ ٨٧) والترمذي (٤/ ٤٧٥/ ٢٣٠١).

(٦) أخرجه: عبدالرزاق في مصنفه (٨/ ٣٢٧/ ١٥٣٩٥) والطبراني (٩/ ١٠٩/ ٨٥٦٩) والطبري (١٧/ ١٥٤). قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠٠-٢٠١): «رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن». كما حسن إسناده أيضا الشيخ الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق (ص٥٤) وقد روي الحديث مرفوعا لكن لا يصح.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «قوله: «**وجلس وكان متكئا**» يشعر بأنه اهتم بذلك حتى جلس بعد أن كان متكئا، ويفيد ذلك تأكيد تحريمه وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعا على الناس والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعا، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد. بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبا»[١].

وقال ابن بطال: «في حديث أبي بكرة أن شهادة الزور أكبر الكبائر. وقد روي عن ابن مسعود أنه قال: عدلت شهادة الزور بالشرك بالله. ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾.

واختلف العلماء في عقوبة شاهد الزور، فذكر عبدالرزاق عن مكحول عن الوليد بن أبي مالك أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله بالشام في شاهد الزور أن يجلد أربعين، ويسخم وجهه، ويحلق رأسه، ويطال حبسه.

ورواية أخرى عن عمر أنه أمر أن يسخم وجهه، وتلقى عمامته في عنقه، ويطاف به في القبائل ويقال: شاهد زور، ولا تقبل شهادته أبدا.

وروى ابن وهب عن مالك: أنه يجلد ويطاف به ويشنع به.

وقال ابن القاسم: بلغني عن مالك أنه قال: لا تقبل شهادته أبدا، وإن تاب وحسنت توبته اتباعا لعمر بن الخطاب. قال ابن أبي ليلى: يعزره. وهو قول أبي يوسف ومحمد، وقال الشافعي: يعزره ويشهر به، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور، وقال شريح: يشهر ولا يعزر. وهو قول أبي حنيفة.

قال الطحاوي: شهادة الزور فسق، ومن فسق رجلا عزر بوجود الفسق فيه أولى أن يستحق به التعزير، ولا يختلفون أن من فسق بغير شهادة الزور؛ أن توبته مقبولة وشهادته بعدها، كذلك شاهد الزور»[٢].

---

(١) الفتح (٥/ ٣٣٠).

(٢) شرح ابن بطال (٨/ ٣١-٣٢).

وقال القرطبي: «و«**شهادة الزور**» الشهادة بالكذب والباطل، وإنما كانت من أكبر الكبائر لأنها يتوصل بها إلى إتلاف النفوس والأموال، وتحليل ما حرم اللَّه وتحريم ما حلل اللَّه، فلا شيء من الكبائر أعظم ضررا، ولا أكثر فسادا منها بعد الشرك، واللَّه أعلم»[١].

* * *

(١) المفهم (١/ ٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾﴾

⭑ غريب الآية:

حنفاء: جمع حنيف وهو المائل عن الأديان كلها إلى فطرة الإسلام.

خر: الخرور: السقوط من عُلُوّ.

تخطفه: الأخذ بسرعة. والاختطاف: الاستلاب.

سحيق: بعيد. يقال: أَسْحَقَهُ اللَّه، أي: أبعده من رحمته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصا دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئا من دونه فإنه من يشرك باللَّه شيئا من دونه فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خر من السماء فتخطفه الطير، فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد.. . فهكذا مثل المشرك باللَّه في بعده من ربه، ومن إصابة الحق، كبعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم في الهواء»[1].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك باللَّه غيره، أي: ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال، لأنه شبهه بالذي خر: أي سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق: أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل

(١) جامع البيان (١٧/ ١٥٥).

الأرض عادة إلى متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضحا في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[١] الآية. وكقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٣] الآية في الموضعين من سورة النساء، والخطف: الأخذ بسرعة. والسحيق: البعيد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٤] أي: بعدا لهم.

وقد دلت آيات أخر على أن محل هذا الهلاك الذي لا خلاص منه بحال الواقع بمن يشرك بالله، إنما هو في حق من مات على ذلك الإشراك، ولم يتب منه قبل حضور الموت. أما من تاب من شركه قبل حضور الموت، فإن الله يغفر له، لأن الإسلام يجب ما قبله.

والآيات الدالة على ذلك متعددة كقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[٥] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٦] إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٧] الآية وقوله في الذين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٨] وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٩] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وأما إن كانت توبته من شركه عند حضور الموت، فإنها لا تنفعه.

وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

---

(١) المائدة: الآية (٧٢).
(٢) الأعراف: الآية (٥٠).
(٣) النساء: الآية (٤٨).
(٤) الملك: الآية (١١).
(٥) الأنفال: الآية (٣٨).
(٦) الفرقان: الآية (٦٨).
(٧) الفرقان: الآية (٧٠).
(٨) المائدة: الآيتان (٧٣و٧٤).
(٩) طه: الآية (٨٢).

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[1] فقد دلت الآية على التسوية بين الموت على الكفر والتوبة منه، عند حضور الموت وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾[2] وكقوله في فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[3]»[4].

قال ابن القيم: «فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة، فصور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله ﷻ عليه، وتؤزه أزا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء»[5].

* * *

---

(١) النساء: الآية (١٨).
(٢) غافر: الآيتان (٨٤و٨٥).
(٣) يونس: الآيتان (٩٠و٩١).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٦٩٠-٦٩٢).
(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٨٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شعائر: جمع شعيرة. وهي في الأصل العلامة. والمراد مناسك الحج. سميت بذلك لأنها علامات تشعر بما جعلت له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس وأمرتكم به، من اجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، حنفاء لله، وتعظيم شعائر اللَّه وهو استحسان البدن واستسمانها وأداء مناسك الحج على ما أمر اللَّه جل ثناؤه، من تقوى قلوبكم»[١].

وقال أيضا: «إن اللَّه -تعالى ذكره-، أخبر أن تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم: من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئا، فتعظيم كل ذلك من تقوى القلوب، كما قال جل ثناؤه، وحق على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك. وقال: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وأنَّث، ولم يقل: فإنه، لأنه أريد بذلك: فإن تلك التعظيمة مع اجتناب الرجس من الأوثان من تقوى القلوب، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] وعنى بقوله: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإنها من وجل القلوب من خشية اللَّه، وحقيقة معرفتها بعظمته وإخلاص توحيده»[٣].

قال الرازي: «اختلفوا فقال بعضهم: يدخل فيه كل عبادة. وقال بعضهم: بل المناسك في الحج وقال بعضهم: بل المراد الهدي خاصة. والأصل في الشعائر الأعلام التي بها يعرف الشيء. فإذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٥٦).
(٢) الأعراف: الآية (١٥٣).
(٣) جامع البيان (١٧/ ١٥٧).

أحدهما: أن يختارها عظام الأجسام حسانا جساما سمانا غالية الأثمان، ويترك المكاس في شرائها. . والوجه الثاني: في تعظيم شعائر اللّٰه تعالى، أن يعتقد أن طاعة اللّٰه تعالى في التقرب بها، وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها، لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه. ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص»[1].

قال عبدالكريم الخطيب: «وأما تعظيم شعيرة (الهدي) فهو برعايتها وإكرامها، وإنزالها من النفس منزلة الإعزاز؛ لأنها منذ الوقت الذي اختيرت فيه لتكون هديا، قد أصبحت خالصة لله، وأنها منذ ذلك الوقت إلى يوم النحر في ضيافة مهديها إلى اللّٰه، ولهذا وجب عليه أن يكرمها ويحسن ضيافتها، فلا يركبها ولا يحمل عليها، ولا يعريها من أصوافها وأوبارها، ما دام قد أعدها للهدي.

ثم إن من أمارات الإكرام لها أن تعلم بعلامة مميزة لها، وأن تعلق في رقبتها قلادة تحليها وتزينها، وتجعل لها ميزة على غيرها.

ومن جهة أخرى فإنه مطلوب من مسلم حاجا أو غير حاج أن يرعى للهدي هذه الحرمة، فلا يعتدى عليه بالسرقة، أو انتزاع ما قلد به من قلائد. فهذا الهدي هو هدي اللّٰه، وليس أصحابه المتقدمون به إلى اللّٰه إلا رعاة له. إنه أشبه بناقة صالح، له حرمته كما كان للناقة حرمتها، وقد توعد اللّٰه ﷻ ثمود بالهلاك إن هم نالوها بسوء: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] وفي هذا يقول اللّٰه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾[3] فقد جعل اللّٰه ﷻ قلائد الهدي فضلا عن الهدي نفسه قرينة الشهر الحرام، في حرمتها وما ينبغي للناس أن يعظموه منها.

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٣٣-٣٤).

(٢) الأعراف: الآية (٧٣).

(٣) المائدة: الآية (٩٧).

ثم لعلك تسأل: لم هذا التعظيم للحيوان؟ ولم هذا المراسم التي تتخذ له؟ أليس ذلك ضربا من ضروب الوثنية التي جاء الإسلام لحربها والقضاء عليها؟

والجواب على هذا: أن الحج رحلة روحية خالصة، يخرج فيها الحاج من عالم المادة إلى عالم الروح، وأن أعمال الحج التي تلقاه على طريق رحلته الروحية تلك مقدرة بهذا التقدير. فالتجرد من الملابس ولبس غير المخيط، والمهاجرة من الوطن، وترك الأهل والولد والمال، والطواب حول البيت، والسعي بين الصفا والمروة، واستلام الحجر الأسود أو تقبيله، ورمي الجمرات؛ كلها أعمال ومراسم تبدو في ظاهر الأمر متصلة اتصالا وثيقا بذوات الأشياء لا رب الأشياء، ولكنها في حقيقة الأمر راجعة أولا وأخيرا إلى اللَّه ﷻ؛ إذ كانت تلك الأعمال وهذه المراسم إنما أداها الحاج امتثالا لأمر اللَّه، وطاعة لما أمر به، وإنه ليس للعبد المؤمن باللَّه أن يراجع اللَّه فيما أمره به، وأن يطلب الحكمة لهذا الأمر، وإنما المطلوب منه هو أن يمتثل ويأتي ما أمر به من غير تردد، فهذا ابتلاء من اللَّه يبتلي به عباده، ليظهر منهم ما هم عليه من طاعة أو عصيان، وقد كان أمر الملائكة بالسجود لآدم ابتلاء وامتحانا لهم، فسجد الملائكة وأبى إبليس أن يسجد وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1] فكان من الهالكين.

فهذه الأعمال التي يأتيها الحجيج هي امتحان وابتلاء لهم في باب الطاعة والامتثال لأمر اللَّه في غير تردد أو مراجعة، وإلا فهو العصيان والكفر. نعوذ باللَّه منهما.

وتعالت حكمة اللَّه، فإنه ﷻ لم يبتل المؤمنين بهذه الأعمال ابتداء، ولم يلقهم بها على أول طريق الإيمان، بل جاءهم بها بعد أن يكون المؤمن منهم قد قطع شوطا طويلا على طريق الإيمان، حتى اطمأن قلبه به، وسكنت نفسه إليه، وثبتت قدمه عليه.

فأولا: في مسيرة الدعوة الإسلامية لم يفرض الحج إلا في زمن متأخر، حيث فرض بعد الصلاة والصيام والزكاة، وكان بهذا آخر ما فرض من أركان الإسلام.

وهذا يعني أن المسلمين الذين خرجوا من الجاهلية إلى الإسلام قد التقوا بالحج بعد تلك الفترة التي عاشوها في الإسلام، يؤمنون بوحدانية اللَّه، ويقيمون الصلاة،

(١) الأعراف: الآية (١٢).

ويؤتون الزكاة، ويصومون رمضان، وتلك فترة كافية لتثبيت قواعد الإيمان في قلوبهم، وإجلاء كل داعية من دواعي الوثنية والشرك منها .

وثانيا : أن المسلم في أي زمن لا يؤدي فريضة الحج إلا بعد أن يكون قد تمرس بالإيمان، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وكثيرا ما يكون ذلك زمنا طويلا يمتد إلى عشرات السنين، فإذا جاء إلى الحج والتقى بأعماله لم يكن في خاطره أية طرفة بطرف بها من أماكن الحج وأشيائه إلا على أنها من شعائر اللّٰه، وأنها معلم من معالم اللّٰه سبحانه على هذه الأرض، وأن تعظيمها هو تعظيم لله، ومبالغة في الامتثال لأمره، حيث يقوم التعامل بين الحاج وبين ذوات أشياء هي من آيات اللّٰه، وإنها في هذا لأشبه برسله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] .

وثالثا : في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ إشارة إلى أن تعظيم هذه الشعائر هو تعظيم لله، يتجلى فيها درجة إيمان المؤمنين، وينكشف بها ما عندهم من تقوى، إذ كانت هذا الأعمال كما تبدو في ظاهرها خارجة عن منطق العقل . والإيمان في حقيقته هو حب خالص لله، والحب إذا كان صادقا لا يسمع صوت العقل، ولا يستجيب له، وإنما يتلقى من القلب ما يحدثه به ويدعوه إليه، ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ليكشف عن أن تعظيم هذه الشعائر وإتيانها في إيمان وإخلاص، وحب وشوق؛ إنما هو من وحي القلوب، ومن خفقات الإيمان الثابت فيها، ومن إشارات التقوى المتمكنة منها، وفي الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو يقبل الحجر الأسود حين قال: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللّٰه ﷺ يقبلك ما قبلتك» في هذه الكلمة ما يكشف عن هذا الحب لله ولرسول اللّٰه، ومتابعته في كل قول وعمل، وإن جاء هذا القول أو العمل فوق مدارك العقول، ومن أجل هذا فقد وقف القرآن الكريم هذه الوقفات الطويلة المستأنية مع مناسك الحج، ودعا أكثر من مرة إلى رعايتها وتعظيمها، وذلك ليدفع هذا الشعور الذي قد يتسلط على الإنسان من التراخي في أداء هذه الأعمال وتلك المراسم، أو أدائها في استخفاف وتكره، الأمر الذي يذهب بالثمرة الطيبة، والمعاني الكريمة التي تدخل على نفس الحاج من هذه الأعمال؛ إذ هو أداها على وجهها الصحيح، ممتثلا أمر اللّٰه فيها، شارحا بها

(١) النساء: الآية (٨٠).

صدره، مسلما لها وجوده، مضيفا إليها مشاعره»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استحسان البدن واستسمانها وما يتقى من عيوبها

* عن أنس قال: ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما[٢].

⋆ غريب الحديث:

أملحين: الأملح بالمهملة هو الذي فيه سواد وبياض، والبياض أكثر، ويقال: هو الأغبر وهو قول الأصمعي، وزاد الخطابي: هو الأبيض الذي في خلل صوفه طبقات سود.

صفاحهما: أي على صفاح كل منهما عند ذبحه، والصفاح: بكسر الصاد المهملة، وتخفيف الفاء، وآخره حاء مهملة: الجوانب. والمراد: الجانب الواحد من وجه الأضحية.

* عن أبي سعيد الخدري قال: ضحى رسول اللَّه ﷺ بكبش أقرن فحيل، يأكل في سواد، ويمشي في سواد، وينظر في سواد[٣].

⋆ غريب الحديث:

فحيل: قال الخطابي: «الفحيل: الكريم المختار للفحلة، فأما الفحل فهو عام في الذكور منها. وقالوا في ذكورة النخل فحال. فرقا بينه وبين سائر الفحول من الحيوان»[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٣٠-١٠٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٤) والبخاري (١٠/ ٢٧/ ٥٥٦٥) ومسلم (٣/ ١٥٥٦-١٥٥٧/ ١٩٦٦) وأبو داود (٣/ ٢٣٠/ ٢٧٩٤) والترمذي (٤/ ٧١/ ١٤٩٤) والنسائي (٧/ ٢٥١-٢٥٢/ ٤٣٩٧-٤٤٠٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣/ ٣١٢٠).

(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٣١-٢٣٢/ ٢٧٩٦) والترمذي (٤/ ٧٢/ ١٤٩٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». والنسائي (٧/ ٢٥٢/ ٤٤٠٢) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٦/ ٣١٢٨).

(٤) معالم السنن (٢/ ١٩٨).

يأكل في سواد ويمشي في سواد وينظر في سواد: معناه أن أظلافه ومواضع البروك منه، وما أحاط بملاحظ عينيه من وجهه أسود، وسائر بدنه أبيض.

* عن جابر بن عبد الله قال: ذبح النبي ﷺ يوم الذبح كبشين أقرنين أملحين موجئين[١].

★ غريب الحديث:

موجئين: تثنية موجوء اسم مفعول من وجأ أي هو الخصي الذي رضت عروق أنثييه فلا يضرب.

★ فوائد الأحاديث:

قال النووي: «في هذا الحديث جواز تضحية الإنسان بعدد من الحيوان واستحباب الأقرن. وأجمع العلماء على جواز التضحية بالأجم الذي لم يخلق له قرنان»[٢].

قال الحافظ: «فيه استحباب التضحية بالأقرن، وأنه أفضل من الأجم، مع الاتفاق على جواز التضحية بالأجم؛ وهو الذي لا قرن له، واختلفوا في مكسور القرن. وفيه استحباب مباشرة المضحي الذبح بنفسه. واستدل على مشروعية استحسان الأضحية صفة ولونا، قال الماوردي: إن اجتمع حسن المنظر مع طيب المخبر في اللحم فهو أفضل، وإن انفردا فطيب المخبر أولى من حسن المنظر. وقال أكثر الشافعية: أفضلها البيضاء ثم الصفراء ثم الغبراء ثم البلقاء ثم السوداء»[٣].

قال الخطابي: «في هذا دليل على أن الخصي في الضحايا غير مكروه، وقد كرهه بعض أهل العلم لنقص العضو، وهذا نقص ليس بعيب، لأن الخصاء يفيد اللحم طيبا، وينفي منه الزهومة وسوء الرائحة»[٤].

قال القرطبي: «الأولى في الأضحية نهاية الكمال في الخلق والصفة. وهو متفق

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٣٠-٢٣١/ ٢٧٩٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣/ ٣١٢١) وهو حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده. انظر إرواء الغليل (٤/ ٣٤٩/ ١١٣٨).

(٢) شرح مسلم (١٣/ ١٠٢).

(٣) الفتح (١٠/ ١٣).

(٤) معالم السنن (٢/ ١٩٧).

عليه، وأن الوجاء ليس منقص، لأنه وإن كان نقصان عضو، فإنه يصلح اللحم ويطيبه. وقد قلنا: إن الطيب في الأضحية هو المقصود الأول»[(١)].

قال ابن العربي: «هذا يدل على أن الذكور في الضحايا أفضل من الإناث، وقد اختلف في ذلك. فقال في المبسوط: الذكر والأنثى سواء. والأصل أصح، وذلك لأنه فعل النبي، وتمام الخلقة، وكمال الذكورية»[(٢)].

قال الشنقيطي: «أجمع العلماء: على إجزاء الذكر والأنثى. واختلفوا أيهما أفضل، وظاهر النصوص الصحيحة: أن ذكور الضأن خير من إناثها، لتضحيته بالكبش، دون النعجة. وبعضهم قال: بأفضلية الذكور مطلقا، وبعضهم قال: بأفضلية الإناث مطلقا ولم يقم دليل صحيح في غير ذكر الضأن فلا ينبغي أن يختلف في ذكر الضأن أنه أفضل من أنثاه»[(٣)].

قال القرطبي: «فيه من الفقه: استحباب العدد في الأضاحي، ما لم يقصد المباهاة. وأن المضحي يلي ذبح أضحيته بنفسه؛ لأنه المخاطب بذلك، ولأنه من باب التواضع. وكذلك الهدايا، فلو استناب مسلما جاز. واختلف في الذمي، فأجاز ذلك عطاء ابتداء. وهو أحد قولي مالك. وقال له في قول له آخر: لا يجزئه، وعليه إعادة الأضحية. وكره ذلك جماعة من السلف، وعامة أئمة الأمصار، إلا أنهم قالوا: يجزئه إذا فعل. وفيه: استحباب إضجاع الذبيحة، ولا تذبح قائمة، ولا باركة. وكذلك مضى العمل بإضجاعها على الشق الأيسر؛ لأنه أمكن من ذبحها. وفيه: استحباب وضع الرجل على جانب عنق الذبيحة. وهو المعبر عنه بالصفاح. وصفحة كل شيء: جانبه وصفحه أيضا، وإنما يستحب ذلك لئلا تضطرب الذبيحة فتزل يد الذابح عند الذبح. وقد روي نهي عن ذلك، والصحيح: ما ذكر عن النبي ﷺ من وضعه رجله على صفاحهما»[(٤)].

* عن علي بن أبي طالب قال: أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نستشرف العين والأذن وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء[(٥)].

---

(١) المفهم (٥/ ٣٦٥).
(٢) عارضة الأحوذي (٦/ ٢٩٣).
(٣) أضواء البيان (٥/ ٦٤١).
(٤) المفهم (٥/ ٣٦٢-٣٦٣).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٠٨و١٢٨و١٤٩) وأبو داود (٣/ ٢٣٧/ ٢٨٠٤) والترمذي (٤/ ٧٣/ ١٤٩٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٤٣٨٤) وابن ماجه (٢/ ١٠٥٠/ ٣١٤٢).

★ **غريب الحديث:**

نستشرف العين والأذن: أي ننظر إليهما ونتأمل سلامتهما من آفة تكون بهما كالعور والجدع.

المقابلة: التي قطع من قبل أذنها شيء ثم ترك معلقا من مقدمها.

المدابرة: هي التي قطع من دبرها وترك معلقا من مؤخرها.

الشرقاء: هي المشقوقة الأذن طولا من الشرق.

الخرقاء: هي المثقوبة الأذن ثقبا مستديرا.

* عن عبيد بن فيروز قال: سألت البراء بن عازب: ما لا يجوز في الأضاحي؟ فقال: قام فينا رسول اللّه ﷺ وأصابعي أقصر من أصابعه وأناملي أقصر من أنامله، فقال: أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء بين عورها، والمريضة بين مرضها، والعرجاء بين ظلعها، والكسير التي لا تنقي. قال: قلت فإني أكره أن يكون في السن نقص، قال: ما كرهت فدعه، ولا تحرمه على أحد[1].

★ **غريب الحديث:**

الكسير التي لا تنقي: هي التي لا تقوم من الهزال لعدم وجود الشحم فيها.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عبدالبر: «أما العيوب الأربعة المذكورة في هذا الحديث فمجتمع عليها، لا أعلم خلافا بين العلماء فيها، ومعلوم أن ما كان في معناها داخل فيها، ولا سيما إذا كانت العلة فيها أبين، ألا ترى أن العوراء إذا لم تجز، فالعمياء أحرى ألا تجوز، وإذا لم تجز العرجاء، فالمقطوعة الرجل أو التي لا رجل لها المقعدة، أحرى ألا تجوز، وهذا كله واضح لا خلاف فيه والحمد لله.

وفي هذا الحديث دليل على أن المرض الخفيف يجوز في الضحايا، والعرج الخفيف الذي تلحق به الشاة الغنم، لقوله ﷺ: «**البين مرضها والبين ظلعها**»،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤و٢٨٩و٣٠٠-٣٠١) وأبو داود (٣/ ٢٣٥-٢٣٦/ ٢٨٠٢) والترمذي (٤/ ٧٢/ ١٤٩٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٢٤٤-٢٤٥/ ٤٣٨١) وابن ماجه (٢/ ١٠٥٠/ ٣١٤٤).

وكذلك النقطة في العين، إذا كانت يسيرة، لقوله: العوراء البين عورها، وكذلك المهزولة التي ليست بغاية في الهزال، لقوله ﷺ: «**والعجفاء التي لا تنقي**»، يريد التي لا شيء فيها من الشحم، والنقي الشحم، وقد بان في نسق ما أوردنا من الأحاديث تفسير هذه اللفظة، وقد جاء في الحديث الآخر: «**البين هزالها**»، وفي لفظ حديث شعبة: «**والكسير التي لا تنقي**». ومعنى الكسير: هي التي لا تقوم ولا تنهض من الهزال، ومن العيوب التي تتقى في الضحايا بإجماع: قطع الأذن أو أكثره، والعيب في الأذن مراعى عند جماعة العلماء في الضحايا.

واختلفوا في السكاء وهي التي خلقت بلا أذن، فمذهب مالك والشافعي: أنها إذا لم تكن لها أذن خلقة لم تجز، وإن كانت صغيرة الأذن أجزأت»[1].

وذكر النووي في هذا المبحث مسائل فقال: «لا تجزئ التضحية بما فيه عيب ينقص اللحم كالمريضة، فإن كان مرضها يسيرا لم يمنع الإجزاء، وإن كان بينا يظهر بسببه الهزال وفساد اللحم لم يجزه، هذا هو المذهب وبه قطع الجمهور. وحكى ابن كج قولا شاذا أن المرض لا يمنع بحال، وأن المرض المذكور في الحديث المراد به الجرب. وحكي وجه أن المرض يمنع الإجزاء، وإن كان يسيرا، وحكاه في الحاوي قولا قديما. وحكي وجه في الهيام -بضم الهاء وتخفيف الياء- خاصة أنه يمنع الإجزاء، وهو من أمراض الماشية، وهو أن يشتد عطشها فلا تروى من الماء قال أهل اللغة: هو داء يأخذها فتهيم في الأرض لا ترعى، وناقة هيماء بفتح الهاء والمد، والله أعلم.

الثانية: الجرب يمنع الإجزاء كثيره وقليله، كذا قاله الجمهور، ونص عليه في الجديد لأنه يفسد اللحم والودك، وفيه وجه شاذ أنه لا يمنع إلا إذا كثر كالمرض، واختاره إمام الحرمين والغزالي والمذهب الأول. وسواء في المرض والجرب ما يرجى زواله وما لا يرجى.

الثالثة: العرجاء إن اشتد عرجها بحيث تسقها الماشية إلى الكلأ الطيب، وتتخلف عن القطيع لم تجزئ وإن كان يسيرا لا يخلفها عن الماشية لم يضر، فلو انكسر بعض قوائمها فكانت تزحف بثلاث لم تجزئ. ولو أضجعها ليضحى بها

---

(١) فتح البر (٩/ ٢٧٢).

وهي سليمة فاضطربت وانكسرت رجلها أو عرجت تحت السكين لم تجزه على أصح الوجهين، لأنها عرجاء عند الذبح. فأشبه ما لو انكسرت رجل شاة فبادر إلى التضحية بها فإنها لا تجزئ.

الرابعة: لا تجزئ العمياء ولا العوراء التي ذهبت حدقتها، وكذا إن بقيت حدقتها في أصح الوجهين لفوات المقصود وهو كمال النظر. وتجزئ العشواء على أصح الوجهين، وهي التي تبصر بالنهار دون الليل لأنها تبصر وقت الرعي. فأما العمش وضعف بصر العينين جميعا قطع الجمهور بأنه لا يمنع. وقال الروياني إن غطى الناظر بياض أذهب أكثره منع وإن أذهب أقله لم يمنع على أصح الوجهين.

الخامسة: العجفاء التي ذهب مخها من شدة هزالها لا تجزئ بلا خلاف، وإن كان بها بعض الهزال ولم يذهب مخها أجزأت. كذا أطلقه الأكثرون.

وقال الماوردي: إن كانت خلقيا فالحكم كذلك. وإن كان لمرض منع الإجزاء لأنه ذاهب بجزء منها. وقال إمام الحرمين: كما لا يعتبر السمن البالغ للإجزاء لا يعتبر العجف البالغ للمنع. قال: وأقرب معتبر أن يقال إن كان لا يرغب في لحمها الطبقة العالية من طلبة اللحم في حالة الرخاء منعت.

السادسة: ورد النهي عن الثولاء وهي المجنونة التي تستدير في الرعي ولا ترعى إلا قليلا فتهزل، فلا تجزئ بالاتفاق.

السابعة: يجزئ الفحل وإن كثر نزوانه، والأنثى وإن كثرت ولادتها ولم يطب لحمها إلا إذا انتهيا إلى العجف البين.

الثامنة: لا تجزئ مقطوعة الأذن، فإن قطع بعضها نظر، فإن لم يبن منها شيء بل شق طرفها وبقي متدليا لم يمنع على الأصح من الوجهين، وقال القفال: يمنع، وحكاه الدارمي عن ابن القطان. وإن أبين فإن كان كثيرا بالإضافة إلى الأذن منع بلا خلاف، وإن كان يسيرا منع أيضا على أصح الوجهين لفوات جزء مأكول. قال إمام الحرمين: وأقرب ضبط بين الكثير واليسير أنه إن لاح النقص من البعد فكثير، وإلا فقليل.

التاسعة: لا يمنع الكي في الأذن وغيرها على المذهب وبه قطع الجمهور. وقيل في منعه وجهان لتصلب الموضع. وتجزئ صغيرة الأذن ولا تجزئ التي لم يخلق لها أذن على المذهب، وبه قطع الجمهور، وفيه وجه ضعيف أنها تجزئ

حكاه الدارمي وغيره.

العاشرة: لا تجزئ التي أخذ الذئب مقدارا بينا من فخذها بالإضافة إليه ولا يمنع قطع الفلقة اليسيرة من عضو كبير. ولو قطع الذئب أو غيره أليتها أو ضرعها لم تجزئ على المذهب، وبه قطع الجمهور. وقيل: فيه وجهان، وتجزئ المخلوقة بلا ضرع أو بلا ألية على أصح الوجهين، كما يجزئ الذكر من المعز بخلاف التي لم يخلق لها أذن لأن الأذن عضو لازم غالبا، والذنب كالألية، وقطع بعض الألية أو الضرع كقطع كله، ولا تجزئ مقطوعة بعض اللسان.

الحادية عشرة: يجزئ الموجوء والخصي، كذا قطع به الأصحاب وهو الصواب. وشذ ابن كج فحكى في الخصي قولين، وجعل المنع هو قول الجديد، وهذا ضعيف منابذ للحديث الصحيح (فإن قيل) فقد فات منه الخصيتان، وهما مأكولتان (قلنا) ليستا مأكولتين في العادة بخلاف الأذن، ولأن ذلك ينجبر بالسمن الذي يتجدد فيه بالإخصاء، فإنه إنما جاء في الحديث أنه ضحى بموجوءين وهما المرضوضان، ولا يلزم منه جواز الخصي الذي ذهبت خصياه، فإنهما بالرض صارتا كالمعدومتين وتعذر أكلهما.

الثانية عشرة: تجزئ التي لا قرن لها ومكسورة القرن، سواء دمى قرنها أم لا. قال القفال: إلا أن يؤثر ألم الانكسار في اللحم فيكون كالجرب وغيره. وذات القرن أفضل للحديث الصحيح «أن رسول اللّٰه ﷺ ضحى بكبشين أقرنين»[1] ولقول ابن عباس: (تعظيمها استحسانها).

الثالثة عشرة: تجزئ ذاهبة بعض الأسنان. فإن انكسرت جميع أسنانها أو تناثرت فقد أطلق البغوي وآخرون أنها لا تجزئ. وقال إمام الحرمين: قال المحققون: تجزئ، قيل: لا تجزئ وقال بعضهم إن كان ذلك لمرض أو كان يؤثر في الاعتلاف وينقص اللحم منع وإلا فلا، قال الرافعي: وهذا حسن، ولكنه يؤثر بلا شك، فرجع الكلام إلى المنع المطلق، هذا كلام الرافعي، والصحيح المنع مطلقا، وفي الحديث: نهى عن المشيعة، قال صاحب البيان: هي المتأخرة عن الغنم، فإن كان ذلك لهزال أو علة منع، لأنها عجفاء، وإن كان عادة وكسلا لم

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

يمنع، والله أعلم»[١].

قال النووي: «وخلاصة هذا الباب ما ذكره القاضي عبدالوهاب: ونكتة هذا الباب أن كل عيب نقص اللحم، أو أثَّر فيه، أو كان مرضا، أو نقص من الخلقة، فإنه يمنع الأضحية، وفي بعضها خلاف، وينبغي في الجملة أن يتقى العيب، وتتوخى السلامة، لأنه ذبح مقصود به القربة، فوجب أن يكون مسلَّما مخلصا مما ينقصه ويكدره، لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[٣]»[٤].

* عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قد كان أهدى جمل أبي جهل، الذي كان استلب يوم بدر في رأسه برة من فضة، عام الحديبية في هديه. وقال في موضع آخر: ليغيظ بذلك المشركين[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «في هذا الحديث دليل على استسمان الهدايا واختيارها وانتخابها، وأن الجمل يسمى بدنة، كما أن الناقة تسمى بدنة، وهذا الاسم مشتق من عظم البدن عندهم، وفي هذا الحديث رد قول من زعم أن البدنة لا تكون إلا أنثى، وفيه إجازة هدي ذكور الإبل، وهو أمر مجتمع عليه في الهدي، وأما استسمان الضحايا والهدايا والغلو في ثمنها واختيارها: فداخل عندي تحت عموم قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الرقاب، فقال: «**أغلاها ثمنا**»[٦]. وهذا كله مداره على صحة النية، قال رسول الله ﷺ: «**الأعمال بالنيات**»[٧] قال الله ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا

---

(١) المجموع (٨/ ٢٩٩-٣٠٢).
(٢) آل عمران: الآية (٩٢).
(٣) النحل: الآية (٦٢).
(٤) المعونة (١/ ٦٦٢).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦١) وأبو داود (٢/ ٣٦٠-٣٦١/ ١٧٤٩) وابن خزيمة (٤/ ٢٨٦/ ٢٨٩٧) والحاكم (١/ ٤٦٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٠، ١٧١) والبخاري (٥/ ١٨٥/ ٢٥١٨) ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٤) وابن ماجه (٢/ ٨٤٣/ ٢٥٢٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٧٢/ ٤٨٩٤) كلهم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥-٤٣) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[١]، وفي حديث مجاهد عن ابن عباس المذكور في هذا الباب فيه قوله: ليغيظ به المشركين، وذلك عندي تفسير لهذا الحديث لمن تدبر وباللّه التوفيق»[٢].

* * *

(١) الحج: الآية (٣٧).
(٢) فتح البر (٩/ ١٠٤-١٠٥).

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول: لكم فيها، أي: في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده، والأول هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول، فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها، فأما قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ففيه قولان:

أحدهما: أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديا، فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك.
وقال آخرون: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في البدن ﴿مَنَٰفِعُ﴾ مع تسميتها هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها، وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: إلى أن تنحروها. هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: في الشعائر. ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا. وروى أبو هريرة أنه ﷺ «**مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال** ﷺ **اركبها فقال يا رسول الله إنها هدي فقال اركبها ويلك**»(١) وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا**»(٢) واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب، فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها، ويمكنه الانتفاع بها فكذا هاهنا.

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.
(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فالمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق. أي: وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[١] وبالجملة فقوله: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ يعني حيث يحل نحرها، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله، ودليله قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[٢] أي الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكة، قال ﷺ: «**كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر**»[٣] قال القفال: هذا إنما يختص بالهدايا التي بلغت منى، فأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة، فإن محله موضعه»[٤].

قال الشنقيطي: «واعلم: أن أهل العلم اختلفوا في ركوب الهدي، فذهب بعضهم إلى أنه يجوز للضرورة دون غيرها، وهو مذهب الشافعي، قال النووي: وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن مالك، وقال عروة بن الزبير، ومالك، وأحمد وإسحاق: له ركوبه من غير حاجة، بحيث لا يضره. وبه قال أهل الظاهر، وقال أبو حنيفة: لا يركبه، إلا إن لم يجد منه بدا، وحكى القاضي عن بعض العلماء: أنه أوجب ركوبها لمطلق الأمر ولمخالفة ما كانت الجاهلية عليه، من إهمال السائبة والبحيرة والوصيلة والحام.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر الأقوال دليلا عندي في ركوب الهدي، واجبا أو غير واجب: هو أنه إن دعته ضرورة لذلك جاز وإلا فلا، لأن أخص النصوص الواردة في ذلك بمحل النزاع.

وأصرحها فيه ما رواه مسلم في صحيحه. وحدثني محمد بن حاتم، حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريج: أخبرني أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله، سئل عن ركوب الهدي؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا**» وفي رواية عنه في صحيح مسلم: «**اركبها بالمعروف حتى تجد**

---

(١) المائدة: الآية (٩٥). (٢) التوبة: الآية (٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٦) وأبو داود (٢/ ٤٧٨-٤٧٩/ ١٩٣٧) وابن ماجه (٢/ ١٠١٣/ ٣٠٤٨) كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٤) التفسير الكبير (٢٣/ ٣٤-٣٥).

ظهرا»[١] اهـ. فهذا الحديث الصحيح فيه التصريح منه ﷺ بأن ركوب الهدي إنما يجوز بالمعروف، إذا ألجأت إليه الضرورة، فإن زالت الضرورة بوجود ظهر يركبه غير الهدي: ترك ركوب الهدي، فهذا القيد الذي في هذا الحديث تقيد به جميع الروايات الخالية عن القيد، لوجوب حمل المطلق على المقيد، عند جماهير أهل العلم. ولا سيما إن اتحد الحكم والسبب كما هنا.

أما حجة من قال: بوجوب ركوب الهدي، فهي ظاهرة السقوط، لأن النبي ﷺ لم يركب هديه كما هو معلوم. وأما حجة: من أجاز الركوب مطلقا، فهو قوله ﷺ: «ويلك اركبها» وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على أحد التفسيرين، ولا تنهض به الحجة فيما يظهر، لأنه محمول على كونه تدعوه الضرورة إلى ذلك، بدليل حديث جابر عند مسلم الذي ذكرناه آنفا فهو أخص نص في محل النزاع، فلا ينبغي العدول عنه، والعلم عند اللَّه تعالى، والظاهر أن شرب ما فضل من لبنها، عن ولدها لا بأس به، لأنه لا ضرر فيه عليها ولا على ولدها. وقال بعض أهل العلم: إن ركبها الركوب المباح للضرورة ونقصها ذلك: فعليه قيمة النقص يتصدق بها. وله وجه من النظر. والعلم عند اللَّه تعالى.

وإنما قلنا: إن الظاهر أنه لا فرق في الحكم المذكور بين الهدي الواجب وغيره، لأنه ﷺ قال لصاحب البدنة: «اركبها» وهي مقلدة نعلا، وقد صرح له تصريحا مكررا بأنها بدنة، ولم يستفصله النبي ﷺ، هل تلك البدنة من الهدي الواجب أو غيره، وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم في الأقوال كما تقدم إيضاحه مرارا. وقد أشار إليه في مراقي السعود بقوله:

ونزلن ترك الاستفصال   منزلة العموم في الأقوال»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز الانتفاع بالهدي للحاجة

* عن ابن جريج أخبرني عطاء قال: كان ابن عباس يقول: لا يطوف بالبيت حاج ولا غير حاج إلا حل، قلت لعطاء: من أين يقول ذلك؟ قال: من قول اللَّه

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٨٠-٥٨١).

تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[(١)] قال: قلت: فإن ذلك بعد المعرف. فقال: كان ابن عباس يقول: هو بعد المعرف وقبله. وكان يأخذ ذلك من أمر النبي ﷺ حين أمرهم أن يحلوا في حجة الوداع[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

المعرف: بتشديد الراء، الوقوف بعرفة.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا الذي ذكره ابن عباس هو مذهبه، وهو خلاف مذهب الجمهور من السلف والخلف، فإن الذي عليه العلماء كافة سوى ابن عباس؛ أن الحاج لا يتحلل بمجرد طواف القدوم، بل لا يتحلل حتى يقف بعرفات، ويرمي ويحلق ويطوف طواف الزيارة، فحينئذ يحصل التحللان، ويحصل الأول باثنين من هذه الثلاثة التي هي رمي جمرة العقبة والحلق والطواف، وأما احتجاج ابن عباس بالآية فلا دلالة له فيها؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ معناه لا تنحر إلا في الحرم وليس فيه تعرض للتحلل من الإحرام، لأنه لو كان المراد به التحلل من الإحرام، لكان ينبغي أن يتحلل بمجرد وصول الهدي إلى الحرم قبل أن يطوف، وأما احتجاجه بأن النبي ﷺ أمرهم في حجة الوداع بأن يحلوا، فلا دلالة فيه لأن النبي ﷺ أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة في تلك السنة، فلا يكون دليلا في تحلل من هو متلبس بإحرام الحج، والله أعلم»[(٣)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة فقال: «**اركبها، قال: يا رسول الله إنها بدنة، فقال: اركبها ويلك في الثانية أو في الثالثة**»[(٤)].

---

(١) الحج: الآية (٣٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣١/ ٤٣٩٦) ومسلم (٢/ ٩١٣/ ١٢٤٥).

(٣) شرح مسلم (٨/ ١٨٧-١٨٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨١و٤٨٧و٢٥٤) والبخاري (٣/ ٦٨٣/ ١٦٨٩) ومسلم (٢/ ٩٦٠/ ١٣٢٢) وأبو داود (٢/ ٣٦٧/ ١٧٦٠) والنسائي (٥/ ١٩٣-١٩٤/ ٢٧٩٨) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٦/ ٣١٠٣).

* عن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبد اللّه سئل عن ركوب الهدي؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها، حتى تجد ظهرا**»[1].

★ غريب الحديث:

ظهرا: أي مركبا.

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «استدل به على جواز ركوب الهدي سواء كان واجبا أو متطوعا به، لكونه ﷺ لم يستفصل صاحب الهدي عن ذلك، فدل على أن الحكم لا يختلف بذلك. وأصرح من هذا ما أخرجه أحمد من حديث علي (أنه سئل: هل يركب الرجل هديه؟ فقال: لا بأس، قد كان النبي ﷺ يمر بالرجال يمشون فيأمرهم يركبون هديه)[2] أي هدي النبي ﷺ، إسناده صالح. وبالجواز مطلقا قال عروة بن الزبير، ونسبه ابن المنذر لأحمد وإسحاق، وبه قال أهل الظاهر، وهو الذي جزم به النووي في الروضة تبعا لأصله في الضحايا، ونقله في شرح المهذب عن القفال والماوردي، ونقل فيه عن أبي حامد والبندنيجي وغيرهما تقييده بالحاجة، وقال الروياني: تجويزه بغير حاجة يخالف النص، وهو الذي حكاه الترمذي عن الشافعي وأحمد وإسحاق، وأطلق ابن عبدالبر كراهة ركوبها بغير حاجة عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأكثر الفقهاء، وقيده صاحب الهداية من الحنفية بالاضطرار إلى ذلك، وهو المنقول عن الشعبي عند ابن أبي شيبة ولفظه: لا يركب الهدي إلا من لا يجد منه بدا. ولفظ الشافعي الذي نقله ابن المنذر وترجم له البيهقي: يركب إذا اضطر ركوبا غير فادح. وقال ابن العربي عن مالك: يركب للضرورة، فإذا استراح نزل. ومقتضى من قيده بالضرورة أن من انتهت ضرورته لا يعود إلى ركوبها من ضرورة أخرى، والدليل على اعتبار هذه القيود الثلاثة وهي الاضطرار والركوب بالمعروف وانتهاء الركوب بانتهاء الضرورة ما رواه مسلم من حديث جابر مرفوعا بلفظ: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا**» فإن مفهومه أنه إذا وجد غيرها

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٧) ومسلم (٢/ ٩٦١/ ١٣٢٤) وأبو داود (٢/ ٣٦٧/ ١٧٦١) والنسائي (٥/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٨٠١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٢١).

تركها، وروى سعيد بن منصور من طريق إبراهيم النخعي قال: (يركبها إذا أعيا قدر ما يستريح على ظهرها). وفي المسألة مذهب خامس وهو المنع مطلقا نقله ابن العربي عن أبي حنيفة وشنع عليه، ولكن الذي نقله الطحاوي وغيره الجواز بقدر الحاجة إلا أنه قال: ومع ذلك يضمن ما نقص منها بركوبه. وضمان النقص وافق عليه الشافعية في الهدي الواجب كالنذر. ومذهب سادس وهو وجوب ذلك نقله ابن عبدالبر عن بعض أهل الظاهر تمسكا بظاهر الأمر، ولمخالفة ما كانوا عليه في الجاهلية من البحيرة والسائبة، ورده بأن الذين ساقوا الهدي في عهد النبي ﷺ كانوا كثيرا ولم يأمر أحدا منهم بذلك انتهى. وفيه نظر لما تقدم من حديث علي، وله شاهد مرسل عند سعيد بن منصور بإسناد صحيح رواه أبو داود في (المراسيل) عن عطاء: (كان النبي ﷺ يأمر بالبدنة إذا احتاج إليها سيدها أن يحمل عليها ويركبها غير منهكها. قلت: ماذا؟ قال: الراجل والمتيع اليسير فإن نتجت حمل عليها ولدها)[1]. ولا يمتنع القول بوجوبه إذا تعين طريقا إلى إنقاذ مهجة إنسان من الهلاك. واختلف المجيزون هل يحمل عليها متاعه؟ فمنعه مالك وأجازه الجمهور. وهل يحمل عليها غيره؟ أجازه الجمهور أيضا على التفصيل المتقدم. ونقل عياض الإجماع على أنه لا يؤجرها. وقال الطحاوي في (اختلاف العلماء): قال أصحابنا والشافعي إن احتلب منها شيئا تصدق به. فإن أكله تصدق بثمنه، ويركب إذا احتاج فإن نقصه ذلك ضمن. وقال مالك: لا يشرب من لبنه فإن شرب لم يغرم. ولا يركب إلا عند الحاجة فإن ركب لم يغرم. وقال الثوري: لا يركب إلا إذا اضطر»[2].

* * *

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص ١٥٤-١٥٥).
(٢) الفتح (٣/ ٦٨٥-٦٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

منسكًا: المنْسَك: موضع العبادة. والنسك: العبادة.

المخبتين: جمع مُخْبِت: وهو الخاشع المتواضع لله. أصله من الخَبْت: وهو المكان المنخفض من الأرض. قال الشاعر:

أفاطم لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ وقد قيل الهِزَبْر أخاكِ بِشْرا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم اللَّه مشروعا في جميع الملل قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيدا. وقال عكرمة: ذبحا. وقال زيد ابن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ إنها مكة لم يجعل اللَّه لأمة قط منسكا غيرها وقوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: (أتي رسول اللَّه ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما)[١]. . وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضا فالجميع يدعون إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٢] ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿وَبَشِّرِ

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.
(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).

﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين. وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس: المخبتون الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء اللَّه المستسلمين له. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ أي: من المصائب. قال الحسن البصري: واللَّه لتصبرن أو لتهلكن ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ . . أي المؤدين حق اللَّه فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم اللَّه من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق اللَّه مع محافظتهم على حدود اللَّه، وهذه بخلاف صفات المنافقين فإنهم بالعكس من هذا كله»[1].

قال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ فالمعنى شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم ﷺ إلى من بعده ضربا من القربان. وجعل العلة في ذلك أن يذكروا اسم اللَّه تقدست أسماؤه على المناسك، وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة. . أما قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ففي كيفية النظم وجهان: أحدهما: أن الإله واحد، وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح. الثاني: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم اللَّه ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ أي أخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك ألبتة، والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ والمخبت المتواضع الخاشع. قال أبو مسلم: حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض، يقال أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال أنجد وأشأم وأتهم، والخبت هو المطمئن من الأرض. وللمفسرين فيه عبارات:

أحدها: المخبتين المتواضعين، عن ابن عباس وقتادة.

وثانيها: المجتهدين في العبادة، عن الكلبي.

وثالثها: المخلصين، عن مقاتل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢٠-٤٢١).

ورابعها: المطمئنين إلى ذكر اللّه تعالى والصالحين، عن مجاهد.

وخامسها: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، عن عمرو ابن أوس.

ثم وصفهم اللّه تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيظهر عليهم الخوف من عقاب اللّه تعالى والخشوع والتواضع لله، ثم لذلك الوجل أثران أحدهما: الصبر على المكاره. وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ وعلى ما يكون من قبل اللّه تعالى، لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب. فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب، بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة. والثاني: الاشتغال بالخدمة، وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله. أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة، وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾»[1].

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾: «هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3] هذه حالة العارفين باللّه، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول اللّه ﷺ ولا حال أصحابه في المعرفة باللّه تعالى، والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن اللّه والبكاء خوفا من اللّه. وكذلك وصف اللّه تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٣٥).

(٢) الأنفال: الآية (٢).

(٣) الزمر: الآية (٢٣).

تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[١] فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. فمن كان مستننا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا، والجنون فنون. روي في الصحيح عن أنس بن مالك (أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: «**سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا**» فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي)[٢] وذكر الحديث»[٣].

قلت: رحم اللَّه أبا عبد اللَّه القرطبي؛ فلقد أحسن في رده على الطائفة المنحرفة؛ طائفة الصوفية التي اتخذت دينها لهوًا ولعبًا، فجعلت مظاهر دينها عبارة عن فساد خلقي، فأفعال هؤلاء المنحرفين لا تليق إلا بالحمير، وما أشبههم بالحيوانات الطائشة التي إن شبعت زاغت، وإن جاعت صاحت، فهم يزيغون بالمآكل والمشارب التي يقدمها لهم الجهال من الناس، فتجدهم يركضون بأقدامهم حتى تشتكي الأرض من هزهم، وتشتكي السماء من زعقهم وأصواتهم المليئة بالشرك والتغزل باللَّه سبحانه. فمن قرأ تائية ابن الفارض وقصائد في هذا الباب غيرها؛ وقف على فساد هؤلاء الطويل العريض. ورغم وضوح فسادهم؛ فإنك تجد بعض مرتزقة زماننا يدافعون عنهم، ويدفعون الأموال للجهال لحضور موائدهم ومجالسهم، وكل ما علم من خطر الرافضة والشيعة على الأمة والدين؛ فمثله يقع من هذه الفرقة الضالة المنحرفة، المسماة بالصوفية، وهي في الحقيقة تصفية لدين اللَّه من كل خير، وفساد في المعتقد والمنهج والسلوك.

قال الشنقيطي: «واعلم: أن وجل القلوب عند ذكر اللَّه، أي خوفها من اللَّه عند سماع ذكره لا ينافي ما ذكره -جل وعلا-، من أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر اللَّه

---

(١) المائدة: الآية (٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٧) والبخاري (١١/ ٢٠٦/ ٦٣٦٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٢/ ٢٣٥٩(١٣٤)» والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨/ ١١١٥٤).

(٣) جامع أحكام القرآن (١٢/ ٤٠-٤١).

كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره -جل وعلا-، مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وهو أن الطمأنينة بذكر اللَّه تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، وصدق ما جاء به الرسول ﷺ فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرقها الشكوك ولا الشبه. والوجل عند ذكر اللَّه تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4] ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[5]»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التسمية عند الذبح

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر. ووضع رجله على صفاحهما[7].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: شهدت مع رسول اللَّه ﷺ الأضحى بالمصلى، فلما قضى خطبته نزل من منبره، وأتي بكبش فذبحه رسول اللَّه ﷺ بيده، وقال: **بسم اللَّه واللَّه أكبر، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**[8].

---

(١) الرعد: الآية (٢٨).
(٢) آل عمران: الآية (٨).
(٣) المؤمنون: الآية (٦٠).
(٤) الزمر: الآية (٢٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٤) والترمذي (٥/ ٥٠٣/ ٣٥٢٢) وقال: «هذا حديث حسن»، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(٦) أضواء البيان (٥/ ٦٩٤-٦٩٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٤) والبخاري (١٠/ ٢٧/ ٥٥٦٥) ومسلم (٣/ ١٥٥٦-١٥٥٧/ ١٩٦٦) وأبو داود (٣/ ٢٣٠/ ٢٧٩٤) والترمذي (٤/ ٧١/ ١٤٩٤) والنسائي (٧/ ٢٥١-٢٥٢/ ٤٣٩٧-٤٤٠٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣/ ٣١٢٠).
(٨) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٦٢) وأبو داود (٣/ ٢٤٠/ ٢٨١٠) والترمذي (٤/ ٨٥/ ١٥٢١) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». والحاكم (٤/ ٢٢٩) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «فيه من الفقه: تعيين التسمية؛ فإنه قال: باسم اللَّه، واللَّه أكبر. وقد اختلف في ذلك، فقال أبو ثور: التسمية متعينة كالتكبير في الصلاة. وكافة العلماء على استحباب ذلك. فلو قال ذكرا آخر فيه اسم من أسماء اللَّه وأراد به التسمية جاز، وكذلك لو قال: اللَّه أكبر فقط أو: لا إله إلا اللَّه. قاله ابن حبيب، فلو لم يرد التسمية لم تجزئ عن التسمية، ولا تؤكل. قاله الشافعي، ومحمد بن الحسن. وكره كافة العلماء من أصحابنا، وغيرهم؛ الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح، أو ذكره، وقالوا: لا يذكر هنا إلا اللَّه وحده. وأجاز الشافعي الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح»[١].

قال ابن بطال: «قال المهلب: التكبير عند الذبح مما أمر اللَّه به لقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[٢] وهذا على الندب والاستنان، ومعناه إحضار النية لله تعالى لا لشيء من المعبودات التي كانت الجاهلية تذبح لها، وكان الحسن البصري يقول عند ذبح أضحيته: بسم اللَّه واللَّه أكبر، هذا منك ولك اللهم تقبل من فلان.

وكره أبو حنيفة أن يذكر مع اسم اللَّه غيره، أن يقول: اللهم تقبل من فلان عند الذبح، ولا بأس بذلك قبل التسمية وقبل الذبح. وقال ابن القاسم: ليقل الذابح: بسم اللَّه واللَّه أكبر، وليس بموضع صلاة على النبي، ولا يذكر هناك إلا اللَّه وحده. وهو قول الليث، وكان ابن عمر يقول: بسم اللَّه واللَّه أكبر. قال ابن القاسم: وإن سمى اللَّه أجزأه، وإن شاء قال: اللهم تقبل مني. وأنكر مالك قولهم: اللهم منك وإليك. وقال الشافعي: التسمية على الذبيحة بسم اللَّه، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر اللَّه أو صلى على محمد لم أكرهه، وإن قال اللهم تقبل مني، فلا بأس. وقال محمد بن الحسن: إن ذبح شاة فقال: الحمد لله، أو قال: سبحان اللَّه واللَّه أكبر، يريد بذلك التسمية، فلا بأس، وهذا كله تسمية، قال وإن قال: الحمد لله، يريد أن يحمده، ولا يريد به التسمية، فلا يجزئ شيء عن التسمية، ولا يؤكل. وبه قال أبو ثور»[٣].

---

(١) المفهم (٥/ ٣٦٣).
(٢) البقرة: الآية (١٨٥).
(٣) شرح ابن بطال (٦/ ٢٢-٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البدن: جمع بَدَنَة، وهي الإبل. سميت بذلك لسمنها.

صواف: أي مصطفة.

وجبت: سقطت ووقعت. يقال: وجب الحائط: إذا وقع.

القانع: يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً: إذا رَضِيَ باليسير. وقَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا: إذا سأل. فالقانع: السائل الذي لا يلح.

المعتر: المتعرض للسؤال. يقال: عَرَّ واعْتَرَّ، أي: تَعَرَّضَ. واعْتَراهُ: أتاهُ وقَصَدَه. قال طرفة:

في جفان يعتري نادينا وسديف حين هاج الصنبر

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «البدن جمع بدنة كخشب وخشبة، سميت بذلك إذا أهديت للحرم، لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولكن رسول اللّه ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: «**البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة**»[1] ولأنه قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ وهذا يختص بالإبل فإنها تنحر قائمة دون البقر، وقال قوم البدن الإبل والبقر التي يتقرب بها إلى اللّه تعالى في الحج والعمرة، لأنه إنما سمى بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك، لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة.. أما قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن

(١) سيأتي تخريجه في ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

وأوجب أن تهدى في الحج جاز أن يقول: ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أما قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فالكلام فيه ما تقدم في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ وإذا كان قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كالترغيب، فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة، وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد اللَّه تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع، أما قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ ففيه حذف أي اذكروا اسم اللَّه على نحرها، قال المفسرون: هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم اللَّه واللَّه أكبر اللهم منك وإليك، أما قوله: ﴿صَوَافَّ﴾، فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرئ صوافن من صفون الفرس، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه، لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافي أي خوالص لوجه اللَّه تعالى، لا تشركوا باللَّه في التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون.. ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين، فتقوى نفوس المحتاجين، ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم اللَّه وشعائر دينه، وأما قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الأرض. من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت، والمعنى إذا سقطت على الأرض، وذلك عند خروج الروح منها.. ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ القانع السائل. يقال قنع يقنع قنوعا، إذا سأل. قال أبو عبيد: هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه.. والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال، فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبدا.. أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ فالمعنى أنها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها، مما يمتنع علينا التمكن منه، فاللَّه تعالى جعل الإبل والبقر بالصفة التي يمكننا تصريفها على ما نريد، وذلك نعمة عظيمة من اللَّه تعالى في الدين والدنيا، ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والمراد لكي تشكروا»[1].

قال المراغي: «﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ امتن سبحانه على عباده

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٣٦-٣٧).

بأن خلق لهم البدن وجعلها من شعائره، فتهدى إلى بيته الحرام، بل جعلها أفضل ما يهدى إليه. وإطلاق البدنة على البعير والبقرة هو قول معظم أئمة اللغة، وهو مذهب أبي حنيفة وقول عطاء وسعيد بن المسيب من التابعين، وروي عن بعض الصحابة، فقد أُثِر عن ابن عمر رضي الله عنهما: لا تعلم البدن إلا من الإبل والبقر.

وتجزئ البدنة عن سبعة لما رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة**»[١].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي لكم فيها نفع في الدنيا كالركوب واللبن، وأجر في الآخرة بنحرها والتصدق بها. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي فاذكروا اسم اللّه على البدن حين نحركم إياها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقولوا: بسم اللّه واللّه أكبر، اللهم منك وإليك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي فإذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة، فكلوا منها وأطعموا القانع المستغني بما تعطونه وهو في بيته بلا مسألة، والمعتر الذي يتعرض لكم، ويأتي إليكم لتطعموه من لحمها. وخلاصة ذلك كلوا وأطعموا.

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هكذا سخرنا البدن لكم مع عظم أجرامها وكمال قوتها، فلا تستعصي عليكم، بل تأتي إليكم منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها، ثم تطعنونها في لباتها، لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص في أعمالكم»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قوله: **كذلك**: نعت لمصدر: أي سخرناها. أي البدن لكم تسخيرا. كذلك: أي مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون: أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن اللّه ذللها لكم لم تقدروا عليها، لأنها أقوى منكم ألا ترى البعير، إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به. وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مرارا

---

(١) سيأتي تخريجه في ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٢) تفسير المراغي (١٧/ ١١٤-١١٥).

أن لعل تأتي في القرآن لمعان أقربها. اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع، وعلى هذا فالمراد بذلك خصوص الخلق لأنهم هم الذين يترجى منهم شكر النعم من غير قطع، بأنهم يشكرونها أو لا ينكرونها لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور، وليس هذا المعنى في حق اللَّه تعالى، لأنه عالم بما سيكون. فلا يجوز في حقه -جل وعلا- إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب، وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] أي على رجائكما وتوقعكما أنه يتذكر أو يخشى، مع أن اللَّه عالم في سابق أزله أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى، فمعنى لعل بالنسبة إلى الخلق، لا إلى الخالق -جل وعلا-. المعنى الثاني: هو ما قدمنا من أن بعض أهل العلم، قال: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[2] قال: فهي بمعنى: كأنكم تخلدون. وإتيان لفظة لعل للتعليل معروف في كلام العرب. وقد قدمناه موضحا مرارا. وقد قدمنا من شواهده العربية قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

يعني كفوا الحروب لأجل أن نكف، وإذا علمت أن هذه الآية الكريمة بين اللَّه فيها أن تسخيره الأنعام لبني آدم نعمة من إنعامه، تستوجب الشكر لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فاعلم أنه بين هذا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[3] وقوله في آية يس: هذه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ كقوله في آية الحج: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى قريبا: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾»[4].

قال ابن القيم: «لا ريب أن ذكر اسم اللَّه على الذبيحة يطيبها ويطرد الشيطان عن

---

(١) طه: الآية (٤٤). (٢) الشعراء: الآية (١٢٩).
(٣) يس: الآيات (٧١-٧٣).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٦٩٥-٦٩٧).

الذابح والمذبوح، فإذا أخل بذكر اسمه لابس الشيطان الذابح والمذبوح، فأثر ذلك خبثا في الحيوان، والشيطان يجري في مجاري الدم من الحيوان، والدم مركبه وحامله، وهو أخبث الخبائث، فإذا ذكر الذابح اسم اللَّه خرج الشيطان مع الدم فطابت الذبيحة، فإذا لم يذكر اسم اللَّه لم يخرج الخبث، وأما إذا ذكر اسم عدوه من الشياطين والأوثان فإن ذلك يكسب الذبيحة خبثا آخر. يوضحه أن الذبيحة تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن اللَّه سبحانه بينهما كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى وهو التقرب إليه بها وذكر اسمه عليها، فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعا من أكلها، وكانت مكروهة لله فأكسبتها كراهيته لها، حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسم غيره وصف الخبث، فكانت بمنزلة الميتة، وإذا كان هذا في متروك التسمية وما ذكر عليه اسم غير اللَّه، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم، فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة، وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقاها صافية من مشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أحكام الأضحية

* عن عبد اللَّه بن قرط عن النبي ﷺ قال: «**إن أعظم الأيام عند اللَّه تبارك وتعالى يوم النحر، ثم يوم القر**. قال عيسى: قال ثور: وهو اليوم الثاني، وقال:

(١) الكوثر: الآية (٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٢).
(٣) إعلام الموقعين (٢/ ١٥٤-١٥٥).

وقرب لرسول اللَّه ﷺ بدنات خمس، أو ست، فطفقن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ، فلما وجبت جنوبها، قال: فتكلم بكلمة خفية لم أفهمها، فقلت: ما قال؟ قال: من شاء اقتطع»[١].

★ **غريب الحديث:**

يزدلفن: يقتربن من قولك زلف الشيء إذا أقرب ومعناه واللَّه أعلم القرب والدنو من الهلاك.

وجبت جنوبها: معناه زهقت أنفسها فسقطت على جنوبها وأصل الوجوب السقوط.

★ **فوائد الحديث:**

قال في عون المعبود: «قوله: «**ثم يوم القر**»: هو اليوم الذي يلي يوم النحر لأن الناس يقرون فيه بمنى بعد أن فرغوا من طواف الإفاضة والنحر واستراحوا والقر بفتح القاف وتشديد الراء «**وقرب**» بتشديد الراء مجهولا «**بدنات خمس أو ست**» شك من الراوي أن ترديد من عبد اللَّه تقريب الأمر أي بدنات من بدن النبي ﷺ «**فطفقن**» بكسر الفاء الثانية أي شرعن «**يزدلفن**» أي يتقربن ويسعين يعني يقصد كل من البدنة أن يبدأ في النحر بها ولا يخفى ما فيه من المعجزة الباهرة.

قال الطيبي: أي منتظرات يأتيهن يبدأ للتبرك بيد رسول اللَّه ﷺ في نحرهن. قال الخطابي: يزدلفن معناه يقربن من قولك زلف الشيء إذا قرب ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾[٢] معناه واللَّه أعلم الدنو والقرب من الهلاك، وإنما سميت المزدلفة لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة عن عرفات ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت على الأرض. قال الخطابي: معناه ذهبت أنفسها فسقطت على جنوبها. وأصل الوجوب السقوط»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من وجد سعة لأن يضحي فلم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٠) وأبو داود (٢/ ٣٦٩-٣٧٠/ ١٧٦٥) وصححه الحاكم (٤/ ٢٢١) ووافقه الذهبي. وصححه أيضا ابن خزيمة (٤/ ٢٩٤/ ٢٩١٧).

(٢) الشعراء: الآية (٦٤).

(٣) عون المعبود (٥/ ١٨٥٩).

يضح فلا يحضر مصلانا»(١).

★ فوائد الحديث:

اختلف أهل العلم في حكم الأضحية فذهب أكثر أهل العلم إلى أنها سنة مؤكدة في حق الموسر ولا تجب عليه.

قال النووي: «وهذا مذهبنا وبه قال أكثر العلماء، وممن قال به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبلال وأبو مسعود البدري وسعيد بن المسيب وعطاء وعلقمة والأسود ومالك وأحمد وأبو يوسف وإسحاق وأبو ثور والمزني وداود وابن المنذر. وقال ربيعة والليث بن سعد وأبو حنيفة والأوزاعي: واجبة على الموسر إلا الحاج بمنى. وقال محمد بن الحسن، هي واجبة على المقيم بالأمصار، والمشهور عن أبي حنيفة أنه إنما يوجبها على مقيم يملك نصابا».

وقال: «واختلف العلماء في وجوب الأضحية على الموسر، فقال جمهورهم: هي سنة في حقه إن تركها بلا عذر لم يأثم ولم يلزمه القضاء، وممن قال بهذا أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب»(٢). إلى آخر كلامه.

وقال ابن قدامة: «أكثر أهل العلم يرون الأضحية سنة مؤكدة غير واجبة. روي ذلك عن أبي بكر، وعمر، وبلال، وأبي مسعود البدري، ﭬ. وبه قال سويد بن غفلة، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وعطاء والشافعي وإسحاق وأبو ثور وابن المنذر. وقال ربيعة ومالك والثوري والأوزاعي والليث وأبو حنيفة: هي واجبة؛ لما روى أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«من كان له سعة، ولم يضح، فلا يقربن مصلانا»**. وعن مخنف بن سليم أن النبي ﷺ قال: **«يا أيها الناس، إن على كل أهل بيت، في كل عام، أضحاة وعتيرة»**(٣). ولنا، ما روى الدارقطني

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٤/ ٣١٢٣) والحاكم (٢/ ٣٨٩) و(٤/ ٢٣٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (ح ١٠٢) بقوله: «إنما هو حسن لأن عبد اللَّه بن عباس هو القتباني فيه كلام من قبل حفظه». وفي التقريب: «صدوق يغلط، أخرج له مسلم في الشواهد».

(٢) شرح مسلم (١٣/ ٩٣-٩٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٥) وأبو داود (٣/ ٢٢٦/ ٢٧٨٨) والترمذي (٤/ ٨٣-٨٤/ ١٥١٨) وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي (٧/ ١٨٩/ ٤٢٣٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٥/ ٣١٢٥) وسنده ضعيف من أجل أبي رملة. قال الحافظ في التقريب: «لا يعرف».

بإسناده عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث كتبت علي، وهن لكم تطوع**». وفي رواية «**الوتر والنحر وركعتا الفجر**»[١]. ولأن النبي ﷺ قال: «**من أراد أن يضحي، فدخل العشر، فلا يأخذ من شعره ولا بشرته شيئا**»[٢] رواه مسلم. علقه على الإرادة، والواجب لا يعلق على الإرادة، ولأنها ذبيحة لم يجب تفريق لحمها، فلم تكن واجبة، كالعقيقة، فأما حديثهم فقد ضعفه أصحاب الحديث، ثم نحمله على تأكيد الاستحباب، كما قال: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم**»[٣].

وقال: «**من أكل من هاتين الشجرتين، فلا يقربن مصلانا**»[٤]. وقد روي عن أحمد، في اليتيم: يضحي عنه وليه إذا كان موسرا. وهذا على سبيل التوسعة في يوم العيد، لا على سبيل الإيجاب»[٥].

قال الشنقيطي بعدما حكى أقوال أهل العلم في حكم الأضحية: «فإذا رأيت أقوال أهل العلم في حكم الأضحية، فهذه أدلة أقوالهم ومناقشتها، وما يظهر رجحانه بالدليل منها، على سبيل الاختصار.

أما من قال: إنها واجبة فقد استدل بأدلة منها أنه ﷺ كان يفعلها والله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٦].

وقد قدمنا قول من قال من أهل الأصول إن فعله ﷺ الذي لم تعلم جهته من وجوب أو غيره يحمل على الوجوب. وأوضحنا أدلة ذلك. وذكرنا أن صاحب مراقي السعود ذكره بقوله في كتاب السنة في مبحث أفعال النَّبي ﷺ:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣١) والدارقطني (٢/ ٢١) والبيهقي (٩/ ٢٦٤) والحاكم (١/ ٣٠٠). قال الذهبي: «ما تكلم الحاكم عليه، وهو غريب منكر، ويحيى ضعفه النسائي والدارقطني». وفيه أبو جناب الكلبي وقد ضعفوه لكثرة تدليسه المناكير.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٩) ومسلم (٣/ ١٥٦٥/ ١٩٧٧) وأبو داود (٣/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٢٧٩١) والترمذي (٤/ ٨٦/ ١٥٢٣) والنسائي (٧/ ٢٤٢/ ٤٣٧٤) وابن ماجه (٢/ ١٠٥٢/ ٣١٤٩) كلهم من حديث أم سلمة ﵂.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٠) والبخاري (٢/ ٤٥٤/ ٨٧٩) ومسلم (٢/ ٥٨٠/ ٨٤٦) وأبو داود (١/ ٢٤٣/ ٣٤١) والنسائي (٣/ ١٠٣-١٠٤/ ١٣٧٦) وابن ماجه (١/ ٣٤٦/ ١٠٨٩) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩) وأبو داود (٤/ ١٧٢/ ٣٨٢٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٥٨/ ٦٦٨١) من حديث قرة المزني ﵁.

(٥) المغني (١٣/ ٣٦٠-٣٦١).

(٦) الأحزاب: الآية (٢١).

وكل ما الصفة فيه تجهل   فللوجوب في الأصح يجعل

وذكرنا مناقشة الأقوال فيه في الحج، وغيره من سور القرآن.

ومن أدلتهم على وجوب الأضحية ما رواه البخاري في صحيحه: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا الأسود بن قيس: سمعت جندب بن سفيان البجلي قال: شهدت النَّبي ﷺ يوم النحر فقال: «**من ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرى، ومن لم يذبح فليذبح**»[١] اهـ. قالوا قوله: فليعد وقوله: فليذبح كلاهما صيغة أمر.

وقد قدمنا أن الصحيح عند أهل الأصول أن الأمر المتجرد عن القرائن، يدل على الوجوب، وبينا أدلة ذلك من الكتاب والسنة، ورجحناه بالأدلة الكثيرة الواضحة كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[٢]. وقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[٣] فسمى مخالفة الأمر معصية، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٤]. فجعل أمره وأمر رسوله مانعًا من الاختيار، موجبًا للامتثال، وكقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[٥] الحديث إلى آخر ما قدمنا، وحديث جندب بن سفيان الذي ذكرناه عن البخاري أخرجه أيضًا مسلم في صحيحه بلفظ: «**من كان ذبح أضحيته قبل أن يصلي أو نصلي، فليذبح مكانها أخرى ومن كان لم يذبح فليذبح باسم الله**»[٦] وصيغة الأمر بالذبح في حديثه، واضحة كما بينا دلالتها على الوجوب آنفًا.

ومن أدلتهم على وجوب الأضحية: ما رواه أبو داود في سننه، حدثنا مسدد، ثنا يزيد ح وثنا حميد بن مسعدة، ثنا بشر عن عبد اللَّه بن عون، عن عامر أبي رملة قال: أخبرنا مخنف بن سليم قال: ونحن وقوف مع رسول اللَّه ﷺ بعرفات قال: قال: «**يا أيها الناس إن على كل أهل بيت في كل عام أضحية وعتيرة أتدرون ما العتيرة؟**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٢) والبخاري (٢/ ٥٩٩/ ٩٨٥) ومسلم (٣/ ١٥٥١/ ١٩٦٠) والنسائي (٧/ ٢٤٤/ ٤٣٨٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٥٣/ ٣١٥٢).

(٢) النور: الآية (٦٣).

(٣) طه: الآية (٩٣).

(٤) الأحزاب: الآية (٣٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٨) والبخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧) والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨) وابن ماجه (١/ ٣/ ٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) تقدم تخريجه قريبا.

هي: التي يقول عنها الناس: الرجبية»[1] اهـ منه.

وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث: «رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، قال الترمذي: حديث حسن. قال الخطابي: هذا الحديث ضعيف المخرج، لأن أبا رملة مجهول. وهو كما قال الخطابي مجهول قال فيه ابن حجر في التقريب: عامر أبو رملة شيخ لابن عون لا يعرف اهـ منه. وقال فيه الذهبي في الميزان: عامر أبو رملة شيخ لابن عون فيه جهالة له عن مخنف بن سليم عن النَّبي ﷺ: «**يا أيها الناس إن على كل بيت في الإسلام أضحية، وعتيرة**»[2]. قال عبدالحق: إسناده ضعيف، وصدقه ابن القطان لجهالة عامر، رواه عنه ابن عون» اهـ منه.

وبه تعلم أن قول ابن حجر في الفتح في حديث مخنف بن سليم أخرجه أحمد والأربعة بسند قوي، خلاف التحقيق كما ترى. وقد قال أبو داود بعد أن ساق الحديث بسنده ومتنه كما ذكرناه عنه آنفًا. قال أبو داود: العتيرة منسوخة، هذا خبر منسوخ اهـ منه. ولكنه لم يبين الناسخ، ولا دليل النسخ. وعلى كل حال فالحديث ضعيف لا يحتج به، لأن أبا رملة مجهول كما رأيت من قال ذلك.

ومن أدلتهم على وجوبها: ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا**»[3] قال ابن حجر في بلوغ المرام: في هذا الحديث رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الحاكم ورجح الأئمة غيره وقفه، وقال ابن حجر في فتح الباري: وأقرب ما يتمسك به لوجوب الأضحية، حديث أبي هريرة، رفعه «**من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا**»[4] أخرجه ابن ماجه، وأحمد ورجاله ثقات لكن اختلف في رفعه ووقفه والموقوف أشبه بالصواب. قاله الطحاوي وغيره، ومع ذلك فليس صريحًا في الإيجاب اهـ منه.

وذكر النووي في شرح المهذب، من أدلة من أوجبها: ما جاء عن ابن عباس

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.
(٢) تقدم تخريجه قريبا.
(٣) تقدم تخريجه قريبا.
(٤) تقدم تخريجه قريبا.

قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة يوم عيد**»[١] ثم قال رواه البيهقي. وقال: تفرد به محمد بن ربيعة، عن إبراهيم بن يزيد الخوزي وليسا بقويين، ثم قال: وعن عائذ اللَّه المجاشعي، عن أبي داود نفيع عن زيد بن أرقم أنهم قالوا: يا رسول اللَّه (ﷺ) ما هذه الأضاحي قال: «**سنة أبيكم إبراهيم (صلى اللَّه عليه وعلى نبينا وسلم)، قالوا: ما لنا فيها من الأجر؟ قال: بكل قطرة حسنة**»[٢] رواه ابن ماجه، والبيهقي. قال البيهقي: قال البخاري: عائذ اللَّه المجاشعي عن أبي داود لا يصح حديثه، وأبو داود هذا ضعيف، ثم قال النووي: وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نسخ الأضحى كل ذبح، وصوم رمضان كل صوم، والغسل من الجنابة كل غسل، والزكاة كل صدقة**»[٣] رواه الدارقطني والبيهقي قال: وهو ضعيف، واتفق الحفاظ على ضعفه، وعن عائشة قالت: قلت يا رسول اللَّه ﷺ أستدين وأضحي؟ قال: «**نعم فإنه دين مقضي**»[٤] رواه الدارقطني والبيهقي، وضعفاه قالا: وهو مرسل اهـ كلام النووي. وما ذكره من تضعيف الأحاديث المذكورة: هو الصواب، وقد وردت أحاديث غير ما ذكرنا في الترغيب في الأضحية، وفيها أحاديث متعددة ليست بصحيحة. وهذا الذي ذكرنا هو عمدة من قال بوجوب الأضحية، واستدلال بعض الحنفية على وجوبها بالإضافة في قولهم: يوم الأضحى قائلًا: إن الإضافة إلى الوقت، لا تحقق إلا إذا كانت موجودة فيه بلا شك، ولا تكون موجودة فيه بيقين، إلا إذا كانت واجبة لا يخفى سقوطه، لأن الإضافة تقع بأدنى ملابسة، فلا تقتضي الوجوب على التحقيق، كما لا يخفى.

وأقوى أدلة من قال بالوجوب: هو ما قدمنا في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان البجلي، من أن النَّبي ﷺ أمر من ذبح قبل الصلاة بالإعادة، وأمر من لم يذبح

---

(١) أخرجه: البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٦١) والدارقطني (٤/ ٢٨٢/ ٤٣).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٦١). وأخرجه بلفظ: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**»: أحمد (٤/ ٣٦٨) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٥/ ٣١٢٧) وفيه أبو داود نفيع بن الحارث وهو متروك، وعائذ اللَّه المجاشعي ضعيف.

(٣) أخرجه البيهقي (٩/ ٢٦١-٢٦٢) والدارقطني (٤/ ٢٧٩-٢٨٠/ ٣٨) وهو ضعيف.

(٤) أخرجه البيهقي (٩/ ٢٦٢) والدارقطني (٤/ ٢٨٣/ ٤٦) وهو حديث ضعيف.

بالذبح. وقد قدمنا دلالة الأمر على الوجوب والحديث المختلف في وقفه ورفعه، الذي قدمنا، لأن قوله فيه «**فلا يقربن مصلانا**» يفهم منه أن ترك الأضحية مخالفة غير هينة، لمنع صاحبها من قرب المصلى وهو يدل على الوجوب. والفرق بين المسافر والمقيم عند أبي حنيفة لا أعلم له مستندًا من كتاب ولا سنة، وبعض الحنفية يوجهه، بأن أداءها له أسباب تشق على المسافر، وهذا وحده لا يكفي دليلًا، لأنه من المعلوم أن كل واجب عجز عنه المكلف، يسقط عنه لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

وأما الذين قالوا: بأن الأضحية سنة مؤكدة، وليست بواجبة، فاستدلوا بأدلة منها: ما رواه مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر المكي، حدثنا سفيان عن عبدالرحمن بن حميد بن عبدالرحمن بن عوف، سمع سعيد بن المسيب يحدث عن أم سلمة أن النَّبي ﷺ قال: «**إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي فلا يمس من شعره وبشره شيئًا**»[2] قيل لسفيان: فإن بعضهم لا يرفعه. قال: لكني أرفعه اهـ وفي لفظ عنها، عن النَّبي ﷺ عند مسلم: «**إذا دخل العشر وعنده أضحية يريد أن يضحي فلا يأخذن شعرًا ولا يقلمن ظفرًا**» وفي لفظ له عنها مرفوعًا «**إذا أراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**» اهـ.

كل هذه الألفاظ في صحيح مسلم عن النَّبي ﷺ من حديث زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، ووجه الاستدلال بها، على عدم الوجوب أن ظاهر الرواية: أن الأضحية موكولة إلى إرادة المضحي، ولو كانت واجبة لما كانت كذلك.

قال النووي في شرح المهذب: بعد أن ذكر بعض روايات حديث أم سلمة المذكور ما نصه: قال الشافعي: هذا دليل أن التضحية ليست بواجبة، لقوله ﷺ: «**وأراد**» فجعله مفوضًا إلى إرادته، ولو كانت واجبة لقال: فلا يمس من شعره، حتى يضحي اهـ منه. وقال النووي في شرح المهذب أيضًا: واستدل أصحابنا، يعني لعدم الوجوب بحديث ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**هن علي فرائض وهن لكم تطوع: النحر، والوتر، وركعتا الضحى**»[3] رواه البيهقي بإسناد ضعيف. ورواه

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٢) تقدم تخريجه قريبا.
(٣) تقدم تخريجه قريبا.

في موضع آخر وصرح بضعفه وللحديث المذكور طرق، ولا يخلو شيء منها من الضعف ولم يذكرها النووي. ثم قال النووي: وصح عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: أنهما كانا لا يضحيان، مخافة أن يعتقد الناس وجوبها اهـ كلام النووي. وقال ابن حجر في فتح الباري: قال ابن حزم: لا يصح عن أحد من الصحابة أنها واجبة، وصح أنها غير واجبة عن الجمهور، ولا خلاف في كونها من شرائع الدين. وقد استدل لعدم وجوبها: المجد في المنتقى بحديثين، ولا تظهر دلالتها على ذلك عندي كل الظهور. قال في المنتقى: باب ما احتج به في عدم وجوبها، بتضحية رسول اللَّه ﷺ، عن أمته: عن جابر قال: صليت مع رسول اللَّه ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف «**أتى بكبش فذبحه فقال: باسم اللَّه واللَّه أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»[1] وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع «**أن رسول اللَّه ﷺ** كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب للناس أوتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: اللهم هذا عني وعن أمتي جميعًا من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ، ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: هذا عن محمد وآل محمد فيطعمهما جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منهما فمكثنا سنين ليس رجل من بني هاشم يضحي، قد كفاه اللَّه المؤنة برسول اللَّه ﷺ والغرم»[2] رواه أحمد اهـ من المنتقى.

وقال شارحه في نيل الأوطار: ووجه دلالة الحديثين، وما في معناهما على عدم الوجوب: أن تضحيته ﷺ عن أمته وعن أهله تجزئ كل من لم يضح، سواء كان متمكنًا من الأضحية أو غير متمكن، ثم تعقبه بقوله: ويمكن أن يجاب عن ذلك، بأن حديث «**على كل أهل بيت أضحية**»[3] يدل على وجوبها على كل أهل بيت يجدونها، فيكون قرينة على أن تضحية رسول اللَّه ﷺ عن غير الواجدين من أمته ولو سلم الظهور المدعى فلا دلالة له على عدم الوجوب، لأن محل النزاع من لم يضح

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩١-٣٩٢) والطبراني (١/ ٣١٢/ ٩٢١) والحاكم (٢/ ٣٩١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي فقال: «زهير ذو مناكير وابن عقيل ليس بالقوي». وفيه عبد اللَّه بن محمد وهو ضعيف، وعلي بن الحسين لم يدرك أبا رافع.

(٣) تقدم تخريجه قريبا.

عن نفسه، ولا ضحى عنه غيره، فلا يكون عدم وجوبها على من كان في عصره ﷺ من الأمة مستلزمًا، لعدم وجوبها على من كان في غير عصره ﷺ منهم اهـ. من نيل الأوطار.

وقد رأيت أدلة القائلين بالوجوب، والقائلين بالسنة. والواقع في نظرنا أنه ليس في شيء من أدلة الطرفين، دليل جازم سالم من المعارض على الوجوب، ولا على عدمه لأن صيغة الأمر بالذبح في الحديث الصحيح وبإعادة من ذبح، قبل الصلاة، وإن كان يفهم منه الوجوب على أحد الأقوال، وهو المشهور في صيغة الأمر. فحديث أم سلمة الذي ظاهره تفويض ذلك إلى إرادة المضحي، وهو في صحيح مسلم يمكن أن يكون قرينة صارفة عن الوجوب في صيغة الأمر المذكور، وكلا الدليلين لا يخلو من احتمال، وحديث «**من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا**»[1] رجح أكثر الأئمة وقفه، وقد قدمنا أن ابن حجر قال: إنه ليس صريحًا في الإيجاب وأجاب القرطبي في المفهم عن دلالة صيغة الأمر في قوله: فليعد، وقوله: فليذبح وقال: لا حجة في شيء من ذلك، على الوجوب وإنما المقصود بيان كيفية مشروعية الأضحية، لمن أراد أن يفعلها أو من أوقعها على غير الوجه المشروع خطأً أو جهلًا، فبين له وجه تدارك ما فرط منه اهـ محل الغرض منه بواسطة نقل ابن حجر في الفتح.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: الذي يظهر لي في مثل هذا الذي لم تتضح فيه دلالة النصوص على شيء معين إيضاحًا بينًا أنه يتأكد على الإنسان: الخروج من الخلاف فيه، فلا يترك الأضحية مع قدرته عليها، لأن النَّبي ﷺ يقول: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[2]، فلا ينبغي تركها لقادر عليها، لأن أداءها هو الذي يتيقن به براءة ذمته، والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

وانظر الآية ٢٨ من هذه السورة ففيها زيادة بيان في ما يخص حكم الأضحية.

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٠٠) والترمذي (٤/ ٥٧٦-٥٧٧/ ٢٥١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٧٣٢/ ٥٧٢٧) والحاكم (٢/ ١٣) وقال: «حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢/ ٤٩٨/ ٧٢٢ الإحسان) كلهم من حديث الحسن بن علي ﷺ.

(٣) أضواء البيان (٥/ ٦١٢-٦١٨).

* عن أنس رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ الظهر بالمدينة أربعا، والعصر بذي الحليفة ركعتين فبات بها، فلما أصبح ركب راحلته فجعل يهلل ويسبح. فلما علا على البيداء لبى بهما جميعا. فلما دخل مكة أمرهم أن يحلوا، ونحر النبي ﷺ بيده سبع بدن قياما، وضحى بالمدينة كبشين أملحين أقرنين(١).

★ غريب الحديث:

البيداء: المفازة التي لا شيء بها، وقد تكرر ذكرها في الحديث، وهي هاهنا اسم موضع مخصوص بين مكة والمدينة، وأكثر ما ترد ويراد بها هذه.

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها قال: ابعثها قياما مقيدة، سنة محمد ﷺ(٢).

* عن أبي ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت له قوله عز وجل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾(٣) قال: إذا أردت أن تنحر البدنة، فأقمها ثم قل: اللّه أكبر اللهم منك ولك ثم سم ثم انحرها قال قلت: وأقول ذلك في الأضحية؟ قال: والأضحية(٤).

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «قوله: (ابعثها قائمة مقيدة سنة نبيكم ﷺ) أخذ به كافة العلماء، في استحباب ذلك. وبه فسر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ إلا أبا حنيفة والثوري، فإنهما أجازا أن ينحرهما باركة، وقياما. وشذ عطاء فخالف، واستحب نحرها باركة معقولة. والحديث حجة عليهم»(٥).

---

(١) أخرجه بتمامه البخاري (٣/ ٧٠٦-٧٠٧/ ١٧١٤). وأخرج الطرف الأول منه: أحمد (٣/ ١١٠) ومسلم (١/ ٤٨٠/ ٦٩٠) والترمذي (٢/ ٤٣١/ ٥٤٦) والنسائي (١/ ٢٥٧/ ٤٧٦). وأخرج الطرف الثاني منه: أبو داود (٢/ ٣٩١-٣٩٢/ ١٧٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣ و٨٦ و١٣٩) والبخاري (٣/ ٧٠٥/ ١٧١٣) ومسلم (٢/ ٩٥٦/ ١٣٢٠) وأبو داود (٢/ ٣٧١/ ١٧٦٨).

(٣) الحج: الآية (٣٦).

(٤) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٨٩) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وصححه أيضا ابن خزيمة (٤/ ٢٩٤/ ٢٩١٧).

(٥) المفهم (٣/ ٤٢٠).

قال النووي: «قوله: (ابعثها قياما مقيدة سنة نبيكم ﷺ) أي المقيدة المعقولة، فيستحب نحر الإبل وهي قائمة معقولة اليد اليسرى، صح في سنن أبي داود عن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها»[1] إسناده على شرط مسلم. أما البقر والغنم فيستحب أن تذبح مضجعة على جنبها الأيسر وتترك رجلها اليمنى وتشد قوائمها الثلاث، وهذا الذي ذكرناه من استحباب نحرها قياما معقولة هو مذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور، وقال أبو حنيفة والثوري: يستوي نحرها قائمة وباركة في الفضيلة، وحكى القاضي عن طاوس أن نحرها باركة أفضل، وهذا مخالف للسنة والله أعلم»[2].

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الذكاة في الحلق واللبة ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق[3].

★ غريب الحديث:

اللبة: بفتح اللام وتشديد الموحدة هي موضع القلادة من الصدر وهي المنحر.

★ فوائد الحديث:

قال ابن قدامة: «تفتقر الذكاة إلى خمسة أشياء: ذابح، وآلة، ومحلٌ، وفعل، وذكر. أما الذابح فيعتبر له شرطان: دينه، وهو كونه مسلما أو كتابيا. وعقله، وهو أن يكون ذا عقل يعرف الذبح ليقصده، فإن كان لا يعقل كالطفل الذي لا يميز والمجنون والسكران، لم يحل ما ذبحه، لأنه لا يصح منه القصد، فأشبه ما لو ضرب إنسانا بالسيف فقطع عنق شاة.

وأما الآلة فلها شرطان، أحدهما: أن تكون محددة، تقطع أو تخرق بحدها لا بثقلها. والثاني: أن لا تكون سنا ولا ظفرا. فإذا اجتمع هذان الشرطان في شيء،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٧١/ ١٧٦٧).

(٢) شرح مسلم (٩/ ٥٩).

(٣) أخرجه: البيهقي (٩/ ٢٧٨)، وحسن إسناده الشيخ الألباني في الإرواء (٨/ ١٧٦)، وللطرف الأول من الحديث شاهد من حديث ابن عباس موقوفا أخرجه: البيهقي (٩/ ٢٧٨)، وعلقه البخاري في صحيحه (٩/ ٧٩٨)، وعزاه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٨٠٠) إلى سعيد بن منصور، وقال: «هذا إسناد صحيح».

حل الذبح به، سواء كان حديدا، أو حجرا أو ليطة[١] أو خشبا لقول النبي ﷺ: «ما أنهر الدم، وذكر اسم اللَّه عليه، فكلوه ما لم يكن سنا أو ظفرا»[٢] متفق عليه.. وأما المحل، فالحلق واللبة وهي الوهدة التي بين أصل العنق والصدر. ولا يجوز الذبح في غير هذا المحل بالإجماع.. وإنما نرى أن الذكاة اختصت بهذا المحل، لأنه مجمع العروق، فتنفسح بالذبح فيه الدماء السيالة، ويسرع زهوق النفس، فيكون أطيب للحم، وأخف على الحيوان.. وأما الذكر، فالتسمية، وقد مر ذكرها. وأما الفعل، فيعتبر قطع الحلقوم والمريء. وبهذا قال الشافعي. وعن أحمد رواية أخرى، أنه يعتبر مع هذا قطع الودجين. وبه قال مالك وأبو يوسف.. وقال أبو حنيفة: يعتبر قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين. ولا خلاف في أن الأكمل قطع الأربعة؛ الحلقوم والمريء والودجين. فالحلقوم مجرى النفس، والمريء وهو مجرى الطعام والشراب، والودجان وهما عرقان محيطان بالحلقوم؛ لأنه أسرع لخروج روح الحيوان، فيخف عليه، ويخرج من الخلاف، فيكون أولى. والأول يجزئ، لأنه قطع في محل الذبح ما لا تبقى الحياة مع قطعه، فأشبه ما لو قطع الأربعة»[٣].

قال القرطبي: «الاقتصار في الذكاة على الودجين خاصة. وقال بذلك قوم منهم: ابن عباس، وعطاء. وقد روي عن مالك: أنه قال فيما قطعت أوداجه: أنه قد تمت ذكاته. ومشهور مذهبه ومذهب أصحابه: اشتراط قطع الحلقوم، والودجين، وهو قول الليث. وحكى عنه البغداديون: أنه يشترط قطع أربع: الثلاثة المذكورة، والمري. وهو قول أبي ثور. ثم اختلف أصحاب مالك في قطع أحد الودجين والحلقوم. هل هو ذكاة، أو لا؟ على قولين. وذهب الشافعي: إلى اشتراط الحلقوم والمري دون الودجين، لكن في تمامها الودجان، ولا يجزيان دون الحلقوم والمري. والناس مجمعون: على أن الذبح مهما كان في الحلق تحت

---

(١) الليطة: قشر القصبة والقوس والقناة.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٣) والبخاري (٩/ ٧٨٧/ ٥٥٠٣) ومسلم (٣/ ١٥٥٨/ ١٩٦٨) وأبو داود (٣/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٢٨٢١) والترمذي (٤/ ٦٨-٦٩/ ١٤٩١) والنسائي (٧/ ٢٦٢/ ٤٤٢١) وابن ماجه (٢/ ١٠٦١/ ٣١٧٨) كلهم من حديث رافع بن خديج ﷺ.

(٣) المغني (١٣/ ٣٠١-٣٠٤).

الغلصمة؛ فقد تمت الذكاة. واختلف فيما إذا ذبح فوقها وجازها إلى البدن؛ هل ذلك ذكاة أم لا؟ على قولين. وقد روي عن مالك: أنها لا تؤكل، وقد تمسك بقوله ﷺ: «**ما أنهر الدم**..»[١] من يجيز نحر ما يذبح، وذبح ما ينحر، وأن النحر والذبح ذكاة للجميع لإنهاره الدم. وهو قول عامة السلف، والعلماء، وفقهاء الأمصار، وأشهب من أصحابنا. ومالك كره أكله مرة، وأخرى حرمه. قال ابن المنذر: ولا نعلم أحدا حرم أكل شيء من ذلك كله، ولم يختلفوا: أن الذبح أولى في الغنم، والنحر أولى في الإبل، والتخيير في البقر. وقيل: الذبح أولى؛ لأنه الذي ذكره اللَّه تعالى»[٢].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: نحرنا مع رسول اللَّه ﷺ عام الحديبية. البدنة عن سبعة. والبقرة عن سبعة[٣].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: -في هذا الحديث- «دلالة لجواز الاشتراك في الهدي، وفي المسألة خلاف بين العلماء فمذهب الشافعي جواز الاشتراك في الهدي سواء كان تطوعا أو واجبا وسواء كانوا كلهم متقربين أو بعضهم يريد القربة وبعضهم يريد اللحم ودليله هذه الأحاديث، وبهذا قال أحمد وجمهور العلماء، وقال داود وبعض المالكية: يجوز الاشتراك في هدي التطوع دون الواجب، وقال مالك: لا يجوز مطلقا، وقال أبو حنيفة: يجوز إن كانوا كلهم متقربين وإلا فلا، وأجمعوا على أن الشاة لا يجوز الاشتراك فيها».

وفي هذا الحديث: «أن البدنة تجزي عن سبعة والبقرة عن سبعة وتقوم كل واحدة مقام سبع شياه حتى لو كان على المحرم سبعة دماء بغير جزاء الصيد وذبح عنها بدنة أو بقرة أجزأه عن الجميع»[٤].

قال ابن قدامة: «وجملته أنه يجوز أن يشترك في التضحية بالبدنة والبقرة سبعة، واجبا كان أو تطوعا، سواء كانوا كلهم متقربين، أو يريد بعضهم القربة وبعضهم

---

(١) تقدم تخريجه قريبا. (٢) المفهم (٥/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٥٥/ ١٣١٨) وأبو داود (٣/ ٢٣٩/ ٢٨٠٧) والترمذي (٣/ ٢٤٨/ ٩٠٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٧/ ٣١٣٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٥١/ ٤١٢٢).

(٤) شرح مسلم (٩/ ٥٦-٥٧).

اللحم، وبهذا قال الشافعي. وقال مالك: لا يجوز الاشتراك في الهدي. وقال أبو حنيفة: يجوز للمتقربين، ولا يجوز إذا كان بعضهم غير متقرب؛ لأن الذبح واحد، فلا يجوز أن تختل نية القربة فيه. ولنا ما روى جابر قال: «**أمرنا رسول اللّٰه ﷺ أن** نشترك في الإبل والبقر، كل سبعة منا في بدنة»[١] رواه مسلم. ولنا على أبي حنيفة أن الجزء المجزئ لا ينقص بإرادة الشريك غير القربة، فجاز، كما لو اختلفت جهات القرب، فأراد بعضهم التضحية، وبعضهم الفدية.. ويجوز للمشتركين قسمة اللحم، ومنع منه أصحاب الشافعي في وجه، بناء على أن القسمة بيع، وبيع لحم الهدي والأضحية غير جائز.

ولنا أن أمر النبي ﷺ بالاشتراك، مع أن سنة الهدي والأضحية الأكل منها، دليل على تجويز القسمة، إذ لا يتمكن واحد منهم من الأكل إلا بعد القسمة، وكذلك الصدقة والهدية، ولا نسلم أن القسمة بيع، بل هي إفراز حق»[٢].

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن**»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «هذا خصوص أنه لا يجزئ من غير الضأن، وهو موضع بيان، ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجزئ الجذع إلا من الضأن وحدها، وهو عند بعضهم ابن ستة أشهر، وقيل: ابن سبعة، فإذا تمت له سنة فهو ثني. وقيل: الجذع ابن سنة تامة وهو أشهر، وقيل: ابن عشرة أشهر، وقيل: ابن ثمانية أشهر. قال الداودي: التي قاربت سقوط بنيتها، وقال الأخفش: هي التي سقطت لها بنية، فإذا سقطت بنتاها فهي ثنية، وقال أبو عبيد في المعز والضأن: يكون جذعا في السنة الثانية ثم تثنى، والمسن التي من كل ثني من الأنعام فما فوقه. وفيه الاستحباب أن يكون الثني من الضأن مقدما على الجذع»[٤].

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٢-٢٩٣) ومسلم (٢/ ٨٨٢/ ١٢١٣(١٣١)).

(٢) المغني (١٣/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٢ و٣٢٧) ومسلم (٣/ ١٥٥٥/ ١٩٦٣) وأبو داود (٣/ ٢٣٢/ ٢٧٩٧) والنسائي (٧/ ٢٤٩/ ٤٣٩٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٩/ ٣١٤١).

(٤) الإكمال (٦/ ٤٠٨).

وقال النووي: «قال الجمهور: هذا الحديث محمول على الاستحباب والأفضل، وتقديره يستحب لكم أن لا تذبحوا إلا مسنة فإن عجزتم فجذعة ضأن وليس فيه تصريح بمنع جذعة الضأن وأنها لا تجزي بحال، وقد أجمعت الأمة أنه ليس على ظاهره، لأن الجمهور يجوزون الجذع من الضأن مع وجود غيره وعدمه، وابن عمر والزهري يمنعانه مع وجود غيره وعدمه، فتعين تأويل الحديث على ما ذكرنا من الاستحباب، والله أعلم»(١).

* عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر بعد الصلاة فقال: «**من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فتلك شاة لحم. فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلت فأكلت، وأطعمت أهلي وجيراني. فقال رسول الله ﷺ** تلك شاة لحم. فقال: إن عندي عناقا جذعة وهي خير من شاتي لحم، فهل تجزي عني؟ قال: نعم ولن تجزئ عن أحد بعدك»(٢).

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه أن الإمام يعلم الناس في خطبة العيد أحكام النحر وفيه جواز الاكتفاء في الأضحية بالشاة الواحدة عن الرجل وعن أهل بيته، وبه قال الجمهور..».

وقال: «وفيه جواز أكل اللحم يوم العيد من غير لحم الأضحية لقوله: «**إنما هو لحم قدمه لأهله**» وفيه كرم الرب ﷻ لكونه شرع لعبيده الأضحية مع مالهم فيها من الشهوة بالأكل والادخار ومع ذلك فأثبت لهم الأجر في الذبح، ثم من تصدق أثيب وإلا لم يأثم»(٣).

وانظر بقية فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾(٤).

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ٩٩-١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٣) والبخاري (٢/ ٥٦٩/ ٩٥٥) ومسلم (٣/ ١٥٥٣/ ١٩٦١[٧]) وأبو داود (٣/ ٢٣٣-٢٣٥/ ٢٨٠٠) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٧٨-٧٩/ ١٥٠٨) والنسائي (٣/ ٢٠٢-٢٠٣/ ١٥٦٢).

(٣) الفتح (١٠/ ٢٠).

(٤) الحج: الآية (٢٨).

* عن سلمة بن الأكوع قال: قال النبي ﷺ: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وبقي في بيته منه شيء. فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله، نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: كلوا، وأطعموا، وادخروا. فإن ذلك العام كان بالناس جهد، فأردت أن تعينوا فيها»[1].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[2].

* عن أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة فقال: «اركبها، فقال: إنها بدنة. فقال: اركبها قال: إنها بدنة قال: اركبها ويلك في الثالثة أو الثانية»[3].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾[4].

* * *

---

(١) أخرجه: البخاري (١٠/ ٢٩/ ٥٥٦٩) ومسلم (٣/ ١٥٦٣/ ١٩٧٤).

(٢) الحج: الآية (٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٧) والبخاري (٣/ ٦٨٣/ ١٦٨٩) ومسلم (٢/ ٩٦٠/ ١٣٢٢) وأبو داود (٢/ ٣٦٧/ ١٧٦٠) والنسائي (٥/ ١٩٣-١٩٤/ ٢٧٩٨) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٦/ ٣١٠٣).

(٤) الحج: الآية (٣٣).

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه. وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾..

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وبشر يا محمد المحسنين، أي: في عملهم، القائمين بحدود اللَّه، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه ﷺ»[1].

قال السعدي: «قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط. ولا ينال اللَّه من لحومها ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه اللَّه وحده، لا فخرا ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى اللَّه، كانت كالقشر الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تعظموه

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢٨).

وتجلوه، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: مقابلة لهدايته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد، وأعلى التعظيم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة اللَّه بأن يعبدوا اللَّه، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد اللَّه، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك، فالمحسنون لهم البشارة من اللَّه، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن اللَّه إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾[1] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المقصود الأعظم في الذبح هو الإخلاص لله تعالى

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «والأعمال تفضل بنيات أصحابها، وطاعاتهم لله تعالى، وما في قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». وبذلك يثابون، وعلى ترك ما فرضه اللَّه يعاقبون، وبذلك يندفع عنهم بلاء الدنيا والآخرة. وما أصابهم من المصائب فبذنوبهم»[5].

وقال القرطبي: «يستفاد من هذا الحديث فوائد:

إحداها: صرف الهمة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته؛ بتحقيق علومه،

(١) الرحمن: الآية (٦٠).
(٢) يونس: الآية (٢٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٩٧-٢٩٨).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ و٥٣٩) ومسلم (٤/ ١٩٨٧/ ٢٥٦٤[٣٤]) وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٢٤).

وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصفات، واتصافه بمحمودها؛ فإنه لما كان القلب هو محل نظر اللَّه تعالى فحق العالم بقدر اطلاع اللَّه تعالى على قلبه أن يفتش عن صفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكون في قلبه وصف مذموم يمقته اللَّه بسببه.

الثانية: أن الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مقدم على الأعمال بالجوارح؛ لتخصيص القلب بالذكر مقدما على الأعمال، وإنما كان ذلك لأن أعمال القلوب هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه، مخلص له فيما يعمله، ثم لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه، وهو الذي عبر عنه بالإحسان، حيث قال: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه**»[1]..

الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصححة للأعمال الظاهرة، وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم اللَّه تعالى من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم اللَّه من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا؛ فإنه نظر دقيق»[2].

* * *

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (١/ ٥١) ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨) وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥) والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٥/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) المفهم (٦/ ٥٣٨-٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾

★ **غريب الآية:**

خوان: من الخيانة وهي مخالفة الحق بنقض العهد في السر وضدها الأمانة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٖ قَدْرًا﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها»[3].

قال السعدي: «هذا إخبار ووعد وبشارة من اللَّه للذين آمنوا، أن اللَّه يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم -بسبب إيمانهم- كل شر من شرور الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف.

كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي: خائن في أمانته التي حمله اللَّه إياها، فيبخس حقوق اللَّه عليه، ويخونها، ويخون الخلق.

﴿كَفُورٍ﴾ لنعم اللَّه، يوالي اللَّه عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان. فهذا لا يحبه اللَّه، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيانته.

---

(١) الزمر: الآية (٣٦). (٢) الطلاق: الآية (٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣٠).

ومفهوم الآية، أن اللّه يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه»(١).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد، ويؤمن معه التمكن من الحج فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.. ذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين. فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته».

إلى أن قال: «هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار، وكف بوائقهم عنهم، وهي كقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٣) وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾(٤) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾(٥).

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة في أنه يدافع عن الذين آمنوا أن اللّه لا يحب صدهم، وهو الخوان الكفور أي خوان في أمانة اللّه، كفور لنعمته. ونظيره قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾(٦) قال مقاتل: أقروا بالصانع وعبدوا غيره، فأي خيانة أعظم من هذه؟»(٧).

قال عبدالكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين معرضون للابتلاء من أعداء اللّه، الذين يكيدون لهم، ويريدونهم على أن يكونوا معهم، وألا يخرجوا عن طريقهم. ولكن اللّه ﷻ: ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيربط على قلوبهم، ويثبت أقدامهم على طريق الهدى، ويمدهم بالصبر على احتمال المكروه. وهذا أشبه بالدروع الحصينة التي تتكسر عليها ضربات أهل الباطل والكفر، إنها أمداد من اللّه، وأدوات من أدوات الدفاع. ثم ينتهي الأمر بانحسار جبهة الضلال، واندحار أهله، وغلبة الإيمان وانتصار

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٩٨).
(٢) آل عمران: الآية (١١١).
(٣) غافر: الآية (٥١).
(٤) الصافات: الآية (١٧٢).
(٥) الصف: الآية (١٣).
(٦) الأنفال: الآية (٢٧).
(٧) التفسير الكبير (٢٣/ ٣٩-٤٠).

المؤمنين: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[١].

وأنت ترى. أن دفاع اللّه عن المؤمنين، إنما يكون والمؤمنون في مواطن الإيمان، وفي ميدان المعركة.

وهذا يعنى أن المؤمن الذي يستسلم لعدوّ اللّه وعدوّ المؤمنين، لا يكون في ميدان المعركة، ومن ثمّ فلا يكون من اللّه دفاع عنه، إذ لا معركة قائمة بينه وبين عدوّه. ومن هنا، كان واجبا على المؤمن الذي يطمع في دفاع اللّه عنه، ألا يلقى السلاح من يده، وألا يفرّ من الميدان؛ سواء أ كان ذلك ميدان حرب، أو ميدان رأي، ودعوة إلى اللّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هو تهديد للكافرين، الذين خانوا عهد اللّه وميثاقه الذي واثقهم به وهم في أصلاب آبائهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾[٢].

ثم إنهم بعد هذا قد كفروا بما جاءهم من آيات اللّه على يد رسله، وكذبوا بها فهم لهذا في معرض السخط من اللّه ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جزاء الخائن الغادر

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن الغادر ينصب اللّه له لواء يوم القيامة فيقال: ألا هذه غدرة فلان**»[٥].

★ **غريب الحديث:**

لواء: اللواء الراية العظيمة، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب

---

(١) المجادلة: الآية (٢١). (٢) الأعراف: الآية (١٧٢).

(٣) البقرة: الآية (١٧٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٤٢-١٠٤٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٦) والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٨) ومسلم (٣/ ١٣٦٠/ ١٧٣٥(١٠)) وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦) والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٦).

دعوة الجيش، ويكون الناس تبعا له.

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في سورة النحل الآية (٢٩)، وستأتي بقية فوائده في سورة الطارق الآية (٩).

* * *

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صوامع: جمع صومعة، وهي البناء المرتفع. وهي مكان تعبد الرهبان. أصلها من الانضمام. ومنه الأصْمَع للاصق الأذنين. وكل منضم فهو متصمع.

بيع: جمع بيعة. وهي كنائس اليهود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه، ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن، فهي مبينة عدم الاقتصار على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية. وقد قالت جماعة من أهل العلم: إن اللَّه تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع، إذا أراد أن يشرع أمرًا شاقًا على النفوس كان تشريعه على سبيل التدريج، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدريج فيه مشقة عظيمة على الذين كلفوا به. قالوا فمن ذلك الجهاد، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت، لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة، وإن كان الأجل محدودًا عند اللَّه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾[1] وقد بين تعالى

---

(١) آل عمران: الآية (١٤٥).

مشقة إيجاب الجهاد عليهم، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾[1] ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت، فإنه ينفق فيه المال أيضًا كما قال تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾[2] قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة، وأراد اللَّه تشريعه شرعه تدريجًا، فأذن فيه أولًا من غير إيجاب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾. ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾[3]. وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجابًا عامًا جازمًا في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾[5] وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم: أن لبعض أهل العلم في بعض الآيات التي ذكرنا أقوالًا غير ما ذكرنا. ولكن هذا التدريج الذي ذكرنا دل عليه استقراء القرآن في تشريع الأحكام الشاقة. ونظيره شرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده، فلما أراد اللَّه أن يحرم الخمر حرمها تدريجا.. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يشير إلى معنيين:

أحدهما: أن فيه الإشارة إلى وعده للنبي وأصحابه، بالنصر على أعدائهم كما قال قبله قريبا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ﴾.

والمعنى الثاني: أن اللَّه قادر على أن ينصر المسلمين على الكافرين من غير قتال لقدرته على إهلاكهم بما شاء، ونصرة المسلمين عليهم بإهلاكه إياهم، ولكنه شرع الجهاد لحكم منها اختبار الصادق في إيمانه، وغير الصادق فيه، ومنها تسهيل نيل

---

(١) النساء: الآية (٧٧).
(٢) الصف: الآية (١١).
(٣) البقرة: الآية (١٩٠).
(٤) التوبة: الآية (٥).
(٥) التوبة: الآية (٣٦).
(٦) الفتح: الآية (١٦).

فضل الشهادة في سبيل اللَّه بقتل الكفار لشهداء المسلمين، ولولا ذلك لما حصل أحد فضل الشهادة في سبيل اللَّه.

كما أشار تعالى إلى حكمة اختبار الصادق في إيمانه وغيره بالجهاد في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[(١)] وكقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[(٢)] الآية وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[(٥)] إلى غير ذلك من الآيات وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور، وتسهيل الشهادة في سبيله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[(٦)]..

قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. بين اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أقسم لينصرن من ينصره، ومعلوم أن نصر اللَّه إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته -جل وعلا- هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى. ثم إن اللَّه -جل وعلا- بين صفات الذين وعدهم بنصره ليميزهم عن غيرهم فقال مبينا من أقسم أنه ينصره، لأنه ينصر اللَّه -جل وعلا-: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[(٧)] الآية وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن من نصر اللَّه نصره اللَّه. جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾[(٨)] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) محمد: الآية (٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٧٩).
(٣) التوبة: الآية (١٦).
(٤) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٥) محمد: الآية (٣١).
(٦) آل عمران: الآيتان (١٤٠و١٤١).
(٧) الحج: الآية (٤١).
(٨) محمد: الآيتان (٧و٨).

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[2] وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، دليل على أنه لا وعد من اللَّه بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فالذين يمكن اللَّه لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من اللَّه بالنصر، لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من اللَّه بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء، كما قدمناه مرارا بشواهده العربية. وهذه الآيات تدل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين، لأن اللَّه نصرهم على أعدائهم، لأنهم نصروه فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقد مكن لهم، واستخلفهم في الأرض كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. والحق أن الآيات المذكورة تشمل أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وكل من قام بنصرة دين اللَّه على الوجه الأكمل. والعلم عند اللَّه تعالى»[4].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلو جهدهم في طاعته كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾[5] وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

---

(١) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).

(٢) المجادلة: الآية (٢١).

(٣) النور: الآية (٥٥).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٦٩٩-٧٠٤).

(٥) محمد: الآيات (٤-٦).

مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[١] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[٢] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[٤] والآيات في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد فعل.

وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددا، فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لشق عليهم. ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول اللَّه ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول اللَّه ألا نميل على أهل الوادي -يعنون أهل منى- ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: إني لم أومر بهذا[٥]. فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول اللَّه ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجؤون إليه، شرع اللَّه جهاد الأعداء. فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني محمدا وأصحابه. ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا اللَّه وحده لا شريك له وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[٦] وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[٧] ولهذا لما

---

(١) التوبة: الآيتان (١٤و١٥).
(٢) التوبة: الآية (١٦).
(٣) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٤) محمد: الآية (٣١).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٤٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٦) الممتحنة: الآية (١).
(٧) البروج: الآية (٨).

كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول اللَّه ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية فإذا قالوا: إذا أرادوا فتنة أبينا، يقول: أبينا يمد بها صوته[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع المجوس. وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهي للنصارى أيضا. قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم. وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود. ومجاهد إنما قال: هي الكنائس. واللَّه أعلم. وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صَلُوتا. وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد، لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم اللَّه كثيرا. وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٥) والبخاري (٧/ ٥٠٨/ ٤١٠٦) ومسلم (٣/ ١٤٣٠/ ١٨٠٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٩/ ٨٨٥٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم اللَّه كثيرا ، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب وقال بعض العلماء : هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا ، وهم ذوو القصد الصحيح . وقوله : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾[1] وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه . ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾[2] وقال تعالى : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾[3]»[4].

قال السعدي : «كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن اللَّه لهم بقتال الذين يقاتلونهم، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ أي : ألجئوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أي : إلا لأنهم وحدوا اللَّه، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبا ، فهو ذنبهم، كقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾[5] وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين اللَّه، وذب الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة اللَّه، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال : ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ فيدفع اللَّه

---

(١) محمد : الآيتان (٧و٨).
(٢) الصافات : الآيات (١٧١-١٧٣).
(٣) المجادلة : الآية (٢١).
(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣١-٤٣٣).
(٥) البروج : الآية (٨).

بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتتلى فيها كتب اللَّه، ويذكر فيها اسم اللَّه بأنواع الذكر، فلولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم، فدل هذا، أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة اللَّه، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، فبذلك دفع اللَّه عنها الكافرين، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، واللَّه أخبر أنه لولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة، وجزءا من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعددها أو عددها، أو مالها، أو علمها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصا المساجد، فإنها -ولله الحمد- في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر اللَّه أنه لا يزال إلى يوم

---

(١) البقرة: الآية (٢٥١).

القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر على أن تدافع عن نفسها، سالمة من كثير ضررهم، لقيام الحسد عندهم، وفيما بينهم. فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفا من احتمائها بالآخر، مع أن اللّه تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل. فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة اللّه هي العليا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتهم فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[1] وقوموا، أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أول آية نزلت في القتال

* عن ابن عباس قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن القوم! فنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ الآية. فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال[4].

---

(١) محمد: الآية (٧). (٢) النور: الآية (٥٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٩٩-٣٠٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٦) والترمذي (٥/ ٣٠٤/ ٣١٧١) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي (٦/ ٣٠٩/ ٣٠٨٥) وفي الكبرى (٦/ ٤١١/ ١١٣٤٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١١/ ٨/ ٤٧١٠) والحاكم (٣/ ٧-٨) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما استقر رسول اللَّه ﷺ بالمدينة، وأيده اللَّه بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار اللَّه وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، واللَّه سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن اللَّه لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[1] نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾[2] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج

(١) الحج: الآية (١٩).

(٢) الفرقان: الآية (٥٢).

فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول اللّه ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل اللّه ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على شرط الصحيحين وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول مكية، واللّه أعلم.

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[1].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرما، ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور»[2].

وفي بيان محاسن الجهاد يقول رحمه الله: «وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعي؛ فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه، متقربا إليه ببذل أعز ما بحضرته، يود لو أن له بكل شعرة نفسا يبذلها في حبه ومرضاته، ويود أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله، ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صب لو يكون له ... أعز من نفسه شيء فداك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها، وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾[3].

وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب، فالمحبوب الحق الذي لا ينبغي المحبة إلا له -وكل

---

(١) البقرة: الآية (١٩٠).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٩-٧١).

(٣) التوبة: الآية (١١١).

محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة- أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم، وربهم وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبائحهم، وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في اللَّه مولاهم الحق، فأي حسن يزيد على حسن العبادة، ولهذا ادخرها اللَّه لأكمل الأنبياء، وأكمل الأمم عقلا وتوحيدا ومحبة لله»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والذين ها هنا رد على الذين يقاتلون. ويعني بقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إن وطنا لهم في البلاد فقهروا المشركين وغلبوهم عليها، وهم أصحاب رسول اللّه ﷺ يقول: إن نصرناهم على أعدائهم، وقهروا مشركي مكة، أطاعوا اللّه ف﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يقول: وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها اللّه له ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: ودعوا الناس إلى توحيد اللّه والعمل بطاعته وما يعرفه أهل الإيمان باللّه ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ يقول: ونهوا عن الشرك باللّه والعمل بمعاصيه الذي ينكره أهل الحق والإيمان باللّه ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يقول: ولله آخر أمور الخلق يعني: أن إليه مصيرها في الثواب عليها والعقاب في الدار الآخرة»[1].

قال الرازي: «المراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق لأن المتبادر إلى الفهم من قوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس إلا هذا، ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء، لأنه ليس كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الأشياء. إذا ثبت هذا فنقول: المراد بذلك هم المهاجرون، لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ صفة لمن تقدم وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ والأنصار ما أخرجوا من ديارهم. فيصير معنى الآية أن اللّه تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة، فإنهم أتوا بالأمور الأربعة، وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن قد ثبت أن اللّه تعالى مكن الأئمة

(١) جامع البيان (١٧/ ١٧٨).

الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة. وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة. ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده لأن الآية دالة على الجمع، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة. ثم إن الأمور ترجع إلى اللَّه تعالى بالعاقبة فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدا وهو أيضا يؤكد ما قلناه»[١].

قال السعدي: «ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر اللَّه وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي عليهم خصوصا، وعلى رعيتهم عموما، آتوها أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا من حقوق اللَّه، وحقوق الآدميين، ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كل منكر شرعا وعقلا معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى اللَّه، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه اللَّه على العباد من الملوك، وقام بأمر اللَّه، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة»[٢].

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٤٢-٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٢-٣٠٤).

قال ابن عاشور: «الكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر اللَّه به من أصول الإسلام فإن بذلك دوام نصرهم وانتظام عقد جماعتهم والسلامة من اختلال أمرهم فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى اللَّه فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم. والتمكين: التوثيق. وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك والأرض للجنس أي تسليطهم على شيء من الأرض فيكون ذلك شأنهم فيما هو ملكهم وما بسطت فيه أيديهم. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾[1] في سورة الأعراف وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] في سورة يوسف؛ والمراد بالمعروف ما هو مقرر من شؤون الدين: وإما بكونه معروفا للأمة كلها: وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمة. وإما بكونه معروفا لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفاوت مراتب العلم ومراتب علمائه. والمنكر: ما شأنه أن ينكر في الدين أي أن لا يرضى بأنه من الدين. وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح ولا ما يفعلون في شؤون دينهم مما هو من نوع الديانات كالأعمال المندرجة تحت كليات دينية والأعمال المشروعة بطريق القياس وقواعد الشريعة من مجالات الاجتهاد والتفقه في الدين. والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر وإنما جمعت الآية بينها باعتبار أول ما تتوجه إليه نفوس الناس عن مشاهدة الأعمال ولتكون معروفة دليلا على إنكار المنكر وبالعكس إذ بضدها تتمايز الأشياء ولم يزل من طرق النظر والحجاج الاستدلال بالنقائض والعكوس»[3].

---

(١) الأعراف: الآية (١٠). (٢) يوسف: الآية (٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٠-٢٨١).

قوله تعالى : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

أَمْلَيْتُ : أَمْهَلْتُ وأَطَلْتُ المدة .

خاوية على عروشها : أي ساقطة على سقوفها ، سقطت السقوف ثم وقعت عليها الحيطان ، يشير إلى خرابها علوا وسفلا .

معطلة : أي مستغنىً عنها لخراب مكانها . وأصل التعطيل : الإبطال .

مشيد : أي مشيد بالشِّيد ، وهو الجص . وشَيَّدَ البناءَ : رفعه وأعلاه . قال عدي ابن زيد :

شاده مرمرا وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وُكُورُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- مسليا نبيه محمدا ﷺ عما يناله من أذى المشركين بالله ، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب : وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحق والبرهان ، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله ، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله ، المشركة بالله ، ومنهاجهم من قبلهم ، فلا يصدنك ذلك ، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم ، آتيهم من وراء ذلك ، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم ، بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال ، فقد كذبت قبلهم : يعني مشركي قريش ، قوم نوح ، وقوم عاد وثمود ، وقوم إبراهيم ،

وقوم لوط، وأصحاب مدين وهم قوم شعيب: يقول: كذب كل هؤلاء رسلهم وكذب موسى. فقيل: وكذب موسى ولم يقل: وقوم موسى، لأن قوم موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذبه، وإنما كذبه فرعون وقومه من القبط. وقد قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنه ولد فيهم، كما ولد في أهل مكة. وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يقول: ثم أحللت بهم العقاب بعد الإملاء ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمة، وتنكري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم. ألم أبدلهم بالكثرة قلة، وبالحياة موتا وهلاكا، وبالعمارة خرابا؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذبيك من قريش، وإن أمليت لهم إلى آجالهم، فإني منجزك وعدي فيهم، كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أممهم، فأهلكناهم وأنجيتهم من بين أظهرهم»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مسليا نبيه محمدا ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟!

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢] وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[٣] ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[٤].

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي مكذبة لرسولها ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: لا يستقى منها، ولا

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٧٩). (٢) النازعات: الآية (٢٤).

(٣) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٤) هود: الآية (١٠٢).

يردها أحد بعد كثرة ورديها والازدحام عليها . ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة : يعني المبيض بالجص . وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك . وقال آخرون : هو المنيف المرتفع . وقال آخرون : المشيد المنيع الحصين . وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ، ولا إحكامه ولا حصانته ، عن حلول بأس اللَّه بهم كما قال تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]»[2] .

قال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأذن في مقاتلتهم ، وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور ، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره ، فقال : وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم ، وذكر اللَّه سبعة منهم . فإن قيل : ولم قال : ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل قوم موسى؟ فالجواب : من وجهين : الأول : أن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . الثاني : كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسوله ، وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

أما قوله تعالى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ، ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقريري ، أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ، أليس كان واقعا قطعا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة ، وبالكثرة قلة ، وبالحياة موتا ، وبالعمارة خرابا؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض . فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم ، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم ، وإن شق ذلك على القلب . واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام ، فكيف بذلك مع منزلته ، لكنه في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غما ، فأجرى اللَّه عادته بأن يصبره حالا بعد حال ، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا .

---

(١) النساء : الآية (٧٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣٤-٤٣٥).

وهاهنا بحث، وهو أن هذه الآية تدل على أنه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم إلا عذاب الاستئصال، فإنه لا يفعله بقوم محمد ﷺ وإن كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم. قال الحسن: السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين:

أحدهما: أن عند اللَّه حدا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه.

والثاني: أن اللَّه لا يعذب قوما حتى يعلم أن أحدا منهم لا يؤمن، فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر، وعلم اللَّه أن أحدا منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيستجيب اللَّه دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾[1] أي من إجابة القوم، وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[2] وإذا عذبهم اللَّه تعالى فإنه ينجي المؤمنين لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾[3] أي بالعذاب نجينا هودا، واعلم أن الكلام في هذه المسألة قد تقدم فلا فائدة في الإعادة، فإن قيل: كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير؟ قلنا إذا كان رادعا لغيره وصادعا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيرا»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مآل الظالمين المشركين أنه الأخذ في الدنيا والعذاب في الآخرة إذا لم يتداركوا بالتوبة

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال: ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[5]»[6].

---

(١) يوسف: الآية (١١٠).
(٢) هود: الآية (٣٦).
(٣) هود: الآية (٦٦).
(٤) التفسير الكبير (٢٣/ ٤٣-٤٤).
(٥) هود: الآية (١٠٢).
(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦) ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣) والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «يملي: يطيل في مدته، ويصح ويكثر ماله وولده ليكثر ظلمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾[1] وهذا كما فعل اللَّه بالظلمة من الأمم السالفة، والقرون الخالية، حتى إذا عم ظلمهم وتكامل جرمهم أخذهم اللَّه أخذة رابية، فلا ترى لهم من باقية، وذلك سنة اللَّه في كل جبار عنيد، ولذلك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾»[2].

قوله: «**إن اللَّه ليملي للظالم**»: **قال الشيخ العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يملي له: يعني يمهل له، حتى يتمادى في ظلمه والعياذ باللَّه، فلا يعجل له العقوبة، وهذا من البلاء نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم. فمن الاستدراج أن يملي للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب له سريعا حتى يتكدس على الإنسان المظالم، فإذا أخذه اللَّه لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر. ثم قرأ النبي ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[3].

فعلى الإنسان الظالم أن لا يغتر بنفسه ولا بإملاء اللَّه له، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلا، فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم، لكن إذا أملي له واكتسب آثاما أو ازداد ظلما، ازدادت عقوبته والعياذ باللَّه فيؤخذ على غرة، حتى إذا أخذه اللَّه لم يفلته، نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم الاعتبار بآياته، وأن يعيذنا وإياكم من ظلم أنفسنا ومن ظلم غيرنا إنه جواد كريم»[4].

وقد تقدم شرح الحديث في سورة هود عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾[5].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٢) المفهم (٦/ ٥٥٧-٥٥٨).
(٣) هود: الآية (١٠٢).
(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦١١-٦١٢).
(٥) هود: الآية (١٠٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة الذين كذبوا نبينا صلوات اللَّه وسلامه عليه، ينبغي لهم أن يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، لأنهم إذا سافروا مروا بأماكن قوم صالح، وأماكن قوم لوط، وأماكن قوم هود، فوجدوا بلادهم خالية وآثارهم منطمسة، لم يبق منهم داع ولا مجيب، لتكذيبهم رسلهم، وكفرهم بربهم، فيدركون بعقولهم: أن تكذيبهم نبيهم لا يؤمن أن يسبب لهم من سخط اللَّه مثل ما حل بأولئك الذين مروا بمساكنهم خالية، قد عم أهلها الهلاك، وتكون لهم آذان يسمعون بها ما قص اللَّه في كتابه على نبيه من أخبار تلك الأمم، وما أصابها من الإهلاك المستأصل والتدمير، فيحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1] ثم بين تهديده لكفار مكة بما فعل بالأمم الماضية في قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[2] وكقوله في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] وكقوله فيهم: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[4] الآية، وكقوله في قوم لوط وقوم شعيب: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[5] ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[6] لأن معنى الآيتين: أن ديارهم على ظهر الطريق الذي يمرون

---

(١) محمد: الآية (١٠).
(٢) محمد: الآية (١٠).
(٣) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨)
(٤) الحجر: الآية (٧٦).
(٥) الحجر: الآية (٧٨).
(٦) الحجر: الآية (٧٩).

فيه المعبر عنه بالسبيل والإمام، والآيات بمثل هذا كثيرة»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفلم يسيروا هؤلاء المكذبون بآيات اللَّه، والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبي رسل اللَّه الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود، وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكروا فيها، ويعتبروا بها، ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة اللَّه فيمن كفر وعبد غيره، وكذب رسله، فينيبوا من عتوهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك، واعتبروا به وأنابوا إلى الحق ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ حجج اللَّه على خلقه وقدرته على ما بينا، أو آذان يسمعون بها: يقول: أو آذان تصغي لسماع الحق فتعي ذلك، وتميز بينه وبين الباطل. وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم، ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن إبصار الحق ومعرفته»[٢].

قال السعدي: «دعا اللَّه عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ آيات اللَّه ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات، وأما عمى البصر، فغايته بلغة، ومنفعة دنيوية»[٣].

قال شيخ الإسلام: «بين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة، ويستدل بذلك على عقوبة اللَّه لهم وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾[٤] الآيتين. فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك:

أحدهما: ما يعاين ويعقل بالقلوب.

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٧١٤-٧١٥).

(٢) جامع البيان (١٧/ ١٨٢-١٨٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٦).

(٤) الإسراء: الآية (١٧).

والثاني: ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء، ومصدقهم ومكذبهم، وعاينوا من آثارهم ما دل على أنه سبحانه عاقب مكذبهم وانتقم منهم، وأنهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه، وأن من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب اللَّه على أهله، وأن طاعة الرسل طاعة لله، ومعصيتهم معصية لله.

ومن الطرق أيضا: أن يعلم ما تواتر من معجزاتهم الباهرة وآياتهم القاهرة، وأنه يمتنع أن تكون المعجزة على يد مدعي النبوة وهو كذاب، من غير تناقض ولا تعارض كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، ومن الطرق: أن الرسل جاءوا من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة بما هو معلوم عند كل عاقل لبيب، ولا ينكره إلا جاهل غاو»[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «الاستفهام هنا تقريع ونخس لهؤلاء المشركين من قريش، الذين تصدّوا لرسول اللّه، وكذّبوه وآذوه، دون أن ينظروا في عاقبة أمرهم، ودون أن يلتفتوا إلى ما وراء هذا المنكر الذي هم فيه. ولو نظروا فيما حولهم لعرفوا أنهم في معرض الهلاك، إذا هم لم يرجعوا عن هذا الضلال الذي يركبونه، فهم ليسوا أحسن موقفا من أولئك الأقوام الذين كذبوا الرسل من قبلهم، فأهلكهم اللّه. وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ هو إشارة إلى أن السير في الأرض، لا يفيد منه صاحبه شيئا إلا إذا كان معه قلب متفتّح، يتلقّى المؤثّرات الخارجية، ويتأثّر بها ويتفاعل معها؛ فإن لم يكن له هذا القلب اليقظ المتفتّح، فليفتح أذنه لدعوة الداعي، ونذير المنذر.

فإن الأعمى يتّخذ من أذنه أداة عاملة تقوم مقام عينيه، وتصل ما بينه وبين الوجود. أما هؤلاء القوم الضالون، فلم تكن لهم قلوب يعقلون بها، ولم تكن لهم آذان يسمعون بها، لقد عطلوا حواسهم، فهم صمّ بكم عمي لا يعقلون.

ولم يذكر القرآن هنا أبصارهم، ولم يستدعها كما استدعى قلوبهم وآذانهم، ولكن أشار إليها ضمنا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فكأنه قال: أما أبصارهم فلا وزن لها إذا لم تكن هناك القلوب التي تتلقى عنها، وتعي ما يجيء إليها منها؛ فأبصارهم معهم، وهي سليمة لا عيب فيها،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٤-٢١٥).

ولكنهم مع هذا هم عمي؛ لأن العمى ليس عمى الأبصار، ولكنه عمى القلوب التي في الصدور.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ توكيد للقلوب وأنها هي المرادة هنا على سبيل الحقيقة لا المجاز، وذلك لئلا ينصرف مفهوم القلوب إلى العقول، كما يحدث ذلك كثيرا. وقد وصفت القلوب هنا بأنها تعقل وتدرك، فكان تحديد مكانها أمرا لازما، حتى يتقرر أنها المقصودة بذاتها، وليست العقول. واختصاص القلب بالذكر، والنظر إليه على أنه مركز الإدراك والإلهام في هذا المقام؛ لأن الدّين عقيدة، والعقيدة أساسها الحبّ والامتثال والولاء، والقلب هو منبع هذه المشاعر، ومصدر تلك العواطف.

وحقّا إن للعقل مكانه البارز في إدراك الحقائق الدينية وتصوّرها، وإنه بغير هذا الإدراك وذلك التصور لا تقع هذه الحقائق من القلب موقع الحبّ، والتقدير والتقديس. ولكن القرآن الكريم ينظر إلى القلب، لا باعتباره مصدر العواطف والمشاعر وحسب؛ بل ينظر إليه كذلك نظرة وظيفية، كعضو عامل في كيان الإنسان، فهو من هذه الجهة مركز الحياة في الإنسان، بل وفي كل عالم الحيوان حيث يمدّ الجسم كلّه بالدّم المتدفق منه في العروق والشرايين، ولو توقف لحظات لمات الكائن الحيّ، وأصبح جثة هامدة. ومن هنا كان نبض القلب هو الإشارة الدالة على وجود الحياة في الإنسان، وحين يسكت النبض تتوقف الحياة، ويغيض مجراها، وتجفّ ينابيعها.

وإذ كان القلب بهذه المثابة، فإنه هو صاحب الشأن الأول في الإنسان، بحكم آثاره الظاهرة فيه، إنه يعمل دائما في حال اليقظة والنوم.

وأما العقل وإن عرفت آثاره؛ فإنه لا يعرف سرّه، ولو عرف سرّه، فإنه لا يخرج عن أن يكون ربيب القلب، وغذيّ ماء الحياة الذي يمدّه به، أيّا كان موضعه في كيان الإنسان، وأيّا كان مستقرّه.

فإذا أضاف القرآن الكريم إلى القلب علما ومعرفة وحكمة وإيمانا، فإنّما ذلك لأنه سلطان الجسد كلّه، وإلى صلاحه أو فساده يعود صلاح أعضاء الإنسان وفسادها، وسلامة حواسه أو اعتلالها، وليس العقل إلا حاسّة خفية من حواس

الإنسان، ترتبط سلامته بسلامة الجسد، كما ترتبط سلامة الجسد بسلامة القلب، وفي المثل: (العقل السليم في الجسم السليم). وقد كشف عن هذا الرسول الكريم في قوله: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[١]. وعلى هذا يمكن أن نفهم قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ لا على أن القلب هو مصدر الإدراك المباشر، وإنما هو مصدر للعقل الذي يعقل ويدرك. فلو كان القلب سليمًا معافى من العلل لسلم العقل، ثم لكان إدراكه للأمور سليمًا، وتقديره لها صحيحًا. وهذا أبلغ في الكشف عن داء الغفلة المستولي على القوم، وأنه داء ينبع من المنبع الأصلي وهو القلب، وليس داء عارضا أصاب حاسة من الحواس. إنه داء يسري في الجسد كله.

وسواء إذا كان القلب هو موطن المشاعر والمدركات، أم كان عضوا من أعضاء الجسد أو جارحة من جوارحه، فإنه من حيث مكانه في الجسد، ووظيفته العضوية فيه يعدّ مركز الحياة في الكائن الحيّ، تتأثر به كل خلية من خلايا الجسد، كما أنه يتأثر بكل خلية في الجسد ومن هنا صحّ أن يضاف إليه كلّ ما للجوارح من آثار، وما لكل عضو من قوى حسّية أو معنوية»[٢].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩)، وأخرجه دون موضع الشاهد: أحمد (٤/ ٢٧٠) وأبو داود (٣/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣٣٢٩) والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥) والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٢-١٠٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون باللَّه وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1]. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾[2] وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي قد وعد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه والإكرام لأوليائه. قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه عمرو بن عبيد فقال: يا أبا عمرو هل يخلف اللَّه الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد. فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما. أو ما سمعت قول الشاعر:

لا يرهب ابن العم مني سطوتي ... ولا أختتي[3] من سطوة المتهدد

فإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء. وإن أجل وأنظر وأملى. ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾»[4].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم

---

(١) الأنفال: الآية (٣٢). (٢) ص: الآية (١٦).

(٣) اختتأ منه: اختبأ واستتر خوفا وحياء.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣٦).

يستهزئون باستعجال العذاب فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ كان يخوفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ولأن قولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾[1] يدل على ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لأن الوعد بالعذاب إذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ لو بقي وعذب في كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه وهذا قول أبي مسلم، وهو أولى الوجوه.

الوجه الثاني: أن المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة ويرجع معناه إلى قريب مما تقدم وذلك أن الأيام القصيرة إذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الأيام المستطيلة إذا مرت في الشدة ثم إن العذاب الذي يكون طول أيامها إلى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله.

والوجه الثالث: أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضًا إمهال ألف سنة»[2].

قال السعدي: «أي: يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجيزا لله، وتكذيبا لرسله، ولن يخلف اللَّه وعده. فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته، والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله، وشدته، وهوله. فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد: أن اللَّه حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوما عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدة، وإن تطاولتموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإن اللَّه

---

(١) الحجر: الآية (٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ٤٧).

يمهل المدد الطويلة ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم»[١].

قال عبدالكريم الخطيب: «هو ردّ على هؤلاء المشركين الضالين الذين عموا عن الحقّ، وضلوا عن سواء السبيل، ثم هم مع هذا الموقف المكابر المتحدّي يستعجلون العذاب الذي أنذروا به إنهم أعرضوا عن الإيمان بالله، وكذبوا بما جاءهم به رسول الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[٢]. وفي هذا الرد إنكار عليهم، وتسفيه لهم، إذ يطلبون الهلاك، ويستعجلون البلاء، على حين يصرفون وجوههم عن هذا الخير الذي بين أيديهم، ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة، وهذا لا يكون من إنسان له مسكة من العقل والإدراك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ تهديد لهم بالعذاب الذي أنذروا به، وأنه واقع بهم، فهذا وعد من الله، ولن يخلف الله وعده؛ لأن خلف الوعد إنما يكون عن عجز عن الوفاء به. وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هو تأكيد لوقوع وعد الله، وإنجازه وأنهم إذا كانوا قد استبطئوا وقوعه، فإن لله ﷻ تقديرا غير تقديرهم، وحسابا غير حسابهم، وأنه سبحانه لا يقيس الزمن بمقياس الناس، فالناس يتعاملون مع أشياء محدودة في زمن محدود، على حين أن الله سبحانه يدبر الوجود كله في زمن مطلق، وبقدرة مطلقة. وعلى هذا فإنه إذا لم يقع بهم العذاب عاجلا فهو واقع آجلا، وأنهم إذا لم يؤخذوا به في الدنيا، أخذوا به في الآخرة، فهم أبدا في قبضة الزمن الذي هو في قبضة الله ولن يفلتوا أبدا»[٣].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٧).

(٢) فصلت: الآية (١٣).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٥-١٠٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ يقول: أمهلتهم وأخرت عذابهم، وهم بالله مشركون، ولأمره مخالفون، وذلك كان ظلمهم الذي وصفهم الله به جل ثناؤه، فلم أعجل بعذابهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ يقول: ثم أخذتها بالعذاب، فعذبتها في الدنيا بإحلال عقوبتنا بهم ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يقول: وإلي مصيرهم أيضا بعد هلاكهم، فيلقون من العذاب حينئذ ما لا انقطاع له. يقول -تعالى ذكره-: فكذلك حال مستعجليك بالعذاب من مشركي قومك، وإن أمليت لهم إلى آجالهم التي أجلتها لهم، فإني آخذهم بالعذاب، فقاتلهم بالسيف، ثم إلي مصيرهم بعد ذلك، فموجعهم إذن عقوبة على ما قدموا من آثامهم»[1].

قال ابن عاشور: «عطف على جملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أو على جملة ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ باعتبار ما تضمنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنهم آيسون منه لتأخر وقوعه، فذكروا بأن أمما كثيرة أمهلت ثم حل بها العذاب . فوزان هذه الآية وزان قوله آنفا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾إلخ، إلا أن الأولى قصد منها كثرة الأمم التي أهلكت لئلا يتوهم من ذكر قوم نوح ومن عطف عليهم أن الهلاك لم يتجاوزهم، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإهلاك دون الإمهال. وهذه الآية القصد منها التذكير بأن تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذ بعده المناسب للإملاء من حيث إنه دخول في القبضة بعد بعده عنها»[2].

قال عبدالكريم الخطيب: «هو بيان شارح لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ

(١) جامع البيان (١٧/ ١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٢-٢٩٣).

كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، والمعنى أن هؤلاء المشركين إن كانوا يستعجلون العذاب، ويشكون في وقوعه حين أبطأ عليهم، ولم يقع بهم، فما ذلك إلّا لأن لهم حسابا، وأن للّه ﷻ حسابا، وأنهم إذا كانوا قد أملى لهم ولم يؤخذوا بظلمهم إلى يومهم هذا الذي هم فيه فليس هذا لأنهم ممتنعون عن اللّه بقوة أو جاه أو سلطان، وإنما لأن ذلك هو حكم اللّه في عباده، وسنته في الظالمين منهم، لا يعجل لهم العذاب، ولا يبادرهم به، بل يمهلهم ويملي لهم، حتى يراجعوا أنفسهم، ويتدبروا أمرهم، وهذا من رحمة اللّه بهم وفضله عليهم، كما يقول سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾[1] وبين يدي هؤلاء المشركين الضالين شاهد ناطق بهذا فما أكثر القرى الظالمة التي أمهلها اللّه ثم أخذها؛ بل إن هؤلاء المشركين هم شاهد حيّ لهذا، فهم على ما هم فيه من ظلم ما زالوا في عافية من أمرهم، لم يأخذهم اللّه بعذابه، وتلك فرصتهم السانحة للخلاص من بأس اللّه، الذي لا يردّ إذا حان حينه بهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إشارة إلى أنهم إذا لم يؤخذوا بظلمهم في هذه الدنيا، فإنهم صائرون إلى اللّه، وسيلقون جزاء الظالمين يوم القيامة، فإن هم أمهلوا اليوم، فليس معنى ذلك أنهم نجوا من العذاب، بل إن في غد عذابًا فوق العذاب، وبلاء فوق البلاء! ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) النحل: الآية (٦١).

(٢) الزمر: الآية (٢٦).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٦-١٠٥٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

★ **غريب الآية:**

معاجزين: يقال: عاجزته وأعجزته، جعلته عاجزا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الذين آمنوا به وبرسله، وكل ما يجب الإيمان به، وعملوا الفعلات الصالحات من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي لهم من اللَّه مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم: أي حسن، هو ما يرزقهم من أنواع النعيم في جناته، وأن الذين عملوا بخلاف ذلك فهم أصحاب الجحيم: أي النار الشديد حرها، وفي هذه الآية وعد لمن أطاعه ووعيد لمن عصاه. والآيات بمثل ذلك في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾[1] وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[2] الآية إلى غير ذلك من الآيات، وقد أوضحناها في غير هذا الموضع. وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ قال مجاهد: معاجزين يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ وكذا قال عبد اللَّه بن الزبير: مثبطين. وقال ابن عباس: معاجزين أي مغالبين ومشاقين، وعن الفراء معاجزين: معاندين. وعن الأخفش معاجزين: معاندين مسابقين، وعن الزجاج معاجزين: أي ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا ألا بعث، وأن اللَّه لا يقدر عليهم.

واعلم: أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين قرأه الجمهور: معاجزين بألف بين

---

(١) الحجر: الآيتان (٤٩و٥٠).

(٢) غافر: الآية (٣).

العين والجيم بصيغة المفاعلة اسم فاعل عاجزه، وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: معجزين بلا ألف مع تشديد الجيم المكسورة على صيغة اسم الفاعل من عجزه.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: الظاهر بحسب الوضع العربي في قراء الجمهور معاجزين: هو اقتضاء طرفين، لأن الظاهر لا يعدل عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه، والمفاعلة تقتضي الطرفين إلا لدليل يصرف عن ذلك، واقتضاء المفاعلة الطرفين في الآية من طريقين.

الأولى: هي ما قاله ابن عرفة من أن معنى معاجزين في الآية أنهم يعاجزون الأنبياء وأتباعهم، فيحاول كل واحد منهما إعجاز الآخر، فالأنبياء وأتباعهم يحاولون إعجاز الكفار وإخضاعهم لقبول ما جاء عن اللَّه تعالى، والكفار يقاتلون الأنبياء وأتباعهم، ويمانعونهم، ليصيروهم إلى العجز عن أمر اللَّه. وهذا الوجه ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1] وعليه فمفعول معاجزين محذوف: أي معاجزين الأنبياء وأتباعهم، أي مغالبين لهم، ليعجزوهم عن إقامة الحق.

الطريقة الثانية: هي التي ذكرناها آنفا عن الزجاج أن معنى معاجزين: ظانين أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر عليهم لزعمهم أنه لا يقدر على بعثهم بعد الموت كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾[2] وكما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[3] وقال تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[4] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[5] وعلى هذا القول فالكفار معاجزين اللَّه في زعمهم الباطل، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن زعمهم هذا كاذب، وأنهم لا يعجزون ربهم بحال كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[6] وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[7] وقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[8] الآية وقوله تعالى

---

(١) البقرة: الآية (٢١٧).

(٢) التغابن: الآية (٧).

(٣) يس: الآية (٧٨).

(٤) الأنعام: الآية (٢٩).

(٥) الدخان: الآية (٣٥).

(٦) التوبة: الآية (٢).

(٧) التوبة: الآية (٣).

(٨) العنكبوت: الآية (٢٢).

في الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن مما يوضح هذا الوجه الأخير قول كعب بن مالك ﷺ:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

ومراده بسخينة قريش: يعني أنهم يحاولون غلبة ربهم، والله غالبهم بلا شك والوجه الأول أظهر. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: معجزين بكسر الجيم المشددة، بلا ألف، فالأظهر أن المعنى معجزين: أي مثبطين من أراد الدخول في الإيمان عن الدخول فيه، وقيل معجزين من اتبع النبي ﷺ ومعنى ذلك: أنهم ينسبونهم إلى العجز من قولهم: عجزه بالتضعيف إذا نسبه إلى العجز الذي هو ضد الحزم، يعنون أنهم يحسبون المسلمين سفهاء لا عقول لهم، حيث ارتكبوا أمرا غير الحزم والصواب، وهو اتباع دين الإسلام في زعمهم كما قال تعالى عن إخوانهم المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[٢] الآية.. وهذه الآية التي ذكرها هنا في سورة الحج التي هي قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ جاء معناها واضحا في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾[٣] فالعذاب من الرجز الأليم المذكور في سبأ هو عذاب الجحيم المذكور في الحج»[٤].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علم، اتباعا منهم لكل شيطان مريد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم في الدنيا، وعذابه في الآخرة أن تصلوه. مبين: يقول: أبين لكم إنذاري ذلك وأظهره، لتنيبوا من شرككم، وتحذروا ما أنذركم من ذلك، لا أملك لكم غير ذلك، فأما تعجيل العقاب وتأخيره الذي تستعجلونني به فإلى الله، ليس ذلك إلي ولا أقدر عليه، ثم

(١) الجن: الآية (١٢).
(٢) البقرة: الآية (١٣).
(٣) سبأ: الآيتان (٤و٥).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٢٤-٧٢٧).

وصف نذارته وبشارته، ولم يجر للبشارة ذكر، ولما ذكرت النذارة على عمل، علم أن البشارة على خلافه، فقال: والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات منكم أيها الناس ومن غيركم. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يقول: لهم من الله ستر ذنوبهم التي سلفت منهم في الدنيا عليهم في الآخرة. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: ورزق حسن في الجنة.. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ يقول: والذين عملوا في حججنا فصدوا عن اتباع رسولنا، والإقرار بكتابنا الذي أنزلناه، وقال في آياتنا فأدخلت فيه في، كما يقال: سعى فلان في أمر فلان.. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم سكان جهنم يوم القيامة، وأهلها الذين هم أهلها»[1].

قال السعدي: «يأمر تعالى عبده ورسوله محمدا ﷺ أن يخاطب الناس جميعا، بأنه رسول الله حقا، مبشرا للمؤمنين بثواب الله، منذرا للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما حصل منهم من الذنوب. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة. والكريم من كل نوع: ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

وحاصل معنى الآية: فالذين آمنوا بالله ورسوله واستقر ذلك الإيمان بقلوبهم حتى أصبح إيمانا صادقا وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله لذنوبهم التي وقعوا فيها، كما أن لهم رزقا كريما في الجنة، جمع هذا الرزق جميع الفضائل والكمالات.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعي والمعاجزة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: ملازمون للنار الموقدة، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من أليم عقابها.

وحاصل المعنى: والذين أجهدوا أنفسهم في محاربة القرآن، مسابقين

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٨٥-١٨٦).

المؤمنين في زعمهم، معارضين لهم، شاقين، زاعمين خطأ أنهم بذلك يبلغون ما يريدون، أولئك يخلدون في عذاب الجحيم»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٨-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تمنى: التمني هنا التلاوة. قال الشاعر يرثي عثمان:

تمنى كتاب اللّه أول ليلة   وآخرها لاقى حمام المقادر

ينسخ: يبطل ويزيل. تقول: نسخت الريح الأثر: إذا أزالَتْهُ.

شقاق: أصل الشقاق: العداوة والمخاصمة، لأن كل واحد يكون في شق غير شق الآخر. والشق: الناحية.

تخبت: تخشع وتتواضع. من الخبت: وهو المكان المنخفض من الأرض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ هذا فيه تسلية له صلوات اللّه وسلامه عليه. أي: لا يهيدنك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل اللّه ما يلقي الشيطان ويحكم اللّه آياته. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1] يقولون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب اللَّه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب اللَّه أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا تلا. قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي فيبطل اللَّه ﷻ ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر اللَّه ما ألقى الشيطان، وأحكم اللَّه آياته. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق.. قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون باللَّه ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾[2] وقوله: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: تخضع وتذل. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات»[3].

---

(١) البقرة: الآية (٧٨). (٢) فصلت: الآية (٤٢). (٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤١-٤٤٢).

قال السعدي: «يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن اللَّه ما أرسل قبل محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن اللَّه تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن اللَّه، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان. . ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي اللَّه بهم، ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن اللَّه وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا اللَّه ورسوله، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: مشاقة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن اللَّه منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه اللَّه، والباطل العارض الذي ينسخه اللَّه، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن اللَّه حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة،

وهذا النوع من تثبيت اللَّه لعبده»[١].

قال المراغي: «أي وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ، ألقى الشيطان على سامعيه وهو يتلو الوحي الذي أنزل إليه شبهات فيما يقرأ، فيقول قوم إنه سحر، ويقول آخرون إنه نقله الرسول عن بعض الأولين، وهكذا من الأباطيل والترهات التي يتقولونها.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي فيزيل سبحانه تلك الخرافات التي علقت ببعض النفوس، بأن يقيض للدين من يدافع عنه ويدفع الشبهات، ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال.

وخلاصة ذلك أن اللَّه حين أنزل القرآن وقرأه الرسول ﷺ قال المشركون فيه ما قالوا، ثم لما استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر اللَّه المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢] استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم في دينهم أفواجا ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾[٣]. وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطفيلية التي تنبت في الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع، فلا يهدأ للزارع بال حتى يزيلها ويوفي غذاءها للنبات الذي هو في أشد الحاجة إليه.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فإنك الآن لترى أهل أوربا يرسلون الجيوش من القساوسة التي تفتح المدارس في بلاد الشرق ويقولون للمسلمين: إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب، ويشككون فيه من تعلموا في تلك المدارس، ويصدق بعض غوغائهم تلك الأباطيل، حتى لقد قالوا إن هذا الدين لا يعيش في ظل العلم، ولا يقبل الأفكار والآراء الراقية، وهو والعلم عدوان لا يجتمعان، ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال، وقبيح المعتقدات والأعمال، مما جعلهم مضغة في أفواه الأمم المتمدينة: ﴿كَبُرَتْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٩-٣١١).

(٢) الحج: الآية (٤٠).

(٣) التوبة: الآية (٤٠).

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[١] . .

هذا وقد دس بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة، لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها، وأنها ليست من الحق في شيء، وهي مما تشكك المسلمين في دينهم، وتجعلهم في حيرة من أمر الوحي وكلام الرسول، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهريا، ولا يضيعون الزمن في تأويلها وتخريجها، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدثين على وضعها وكذبها، لمصادمتها لأصول الدين التي لا تقبل شكا ولا امتراء[٢].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: والله عليم بكل شيء ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء، حكيم في أفعاله ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات، ليحاج أولياؤه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التي يتشدقون بها، ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات، فتمحو الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الرشاد. وإلى الفريقين أشار بقوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليجعل ما يلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختبارا للمنافقين الذين في قلوبهم مرض، وللكافرين الذي قست قلوبهم، فلا تلين لقبول الحق، ولا ترعوي عما هي فيه من الغي.

ثم بين مجانفة هذين الفريقين للحق وبعدهما عن الرشد لا إلى غاية فقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وإن هذين الصنفين من الضلال لفي عداوة لأمر الله، وبعد عن الرشاد والسداد، بما لا مطمع لهما معه في النجاة والفوز برضا الله.

---

(١) الكهف: الآية (٥).

(٢) يقصد رحمه الله قصة الغرانيق. وهو حديث موضوع باطل، قد بين بطلانه سندا ومتنا الشيخ الألباني رحمه الله في رسالة خاصة أفردها لهذا الحديث أسماها: «نصب المجانيق في نسف حديث الغرانيق».

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ولكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان أنه الحق من ربهم، فيصدقوا به تخضع له قلوبهم وتذعن للإقرار به نفوسهم، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام، وهي مثلجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين، والسير على نهج سيد المرسلين.

ثم بين حسن مآلهم وفوزهم بسعادة العقبى فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله، وموفقهم إلى الحق الواضح، بنسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسوله حين تلاوة الوحي، وحفظ أصول الدين الصحيحة في نفوسهم، والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وخلاصة ذلك إن الله ليهدي الذين آمنوا إلى تأويل ما تشابه من الدين، وتفصيل ما أجمل منه، بما تقتضيه الأصول المحكمة. فلا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة، ولا تزلزل أقدامهم ترهات المبطلين»[1].

قال ابن القيم: «جعل ﷻ القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا. فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما يبسه وقساوته. وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العنين، والعين التي لا تبصر شيئا. وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد. فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الثلاثة:

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك، تام الانقياد والقبول له.

---

(١) تفسير المراغي (١٧/ ١٢٨-١٣١).

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي. وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم. لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له. فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان. وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عرض الفتن على القلوب واستغفار الرسول ﷺ في اليوم مائة مرة

* عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنه ليغان على قلبي. وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة**»[٢].

★ غريب الحديث:

إنه ليغان على قلبي: قال في المرقاة: «ليغان: بضم الياء أي: يطبق ويغشى أو يستر ويغطي».

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «ولا يظن أن أحدا قال إن قلب النبي ﷺ تأثر بسبب ذنب وقع منه بغين أو رين، أو طبع عليه، فإن من جوز الصغائر على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يقل إنها إذا وقعت منهم أثرت في قلوبهم كما تؤثر الذنوب في قلوب العصاة، بل هم مغفور لهم ومكرمون، وغير مؤاخذين بشيء من ذلك، فثبت بهذا

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٤-١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١١-٢٦٠) ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢) وأبو داود (٢/ ١٧٧-١٧٨/ ١٥١٥).

أن ذلك الغين ليس هو بسبب ذنب»[١].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل: ذلك عبارة عن الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان دأبه فيستغفر منه؛ إذ كان أبدا فيمن يدمن ذلك، فرأى الغفلة عنه ذنبا. وقيل: ذلك الغين همه بسبب أمته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده، حتى يستغفر لهم. وقيل: إن ذلك لما يشغله عن عظيم مقامه من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومجابهة عدوه، ومداراتهم للاستئلاف، فيرى شغله لذلك وإن كان من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال- نزولا عن علي درجته، ورفيع مقامه، من حضوره بهمه كله مع اللَّه، ومشاهدته عنده، وفراغه عن غيره إليه، وخلوصه له عمن سواه، فيستغفر لذلك. وقيل: قد يكون هذا الغين السكينة التي تغشى قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾[٢]. واستغفاره إظهار للعبودية والافتقار وملازمة الخضوع، شكرا لما أولاه به»[٣].

قال في عون المعبود: «قال السيوطي هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه. وقد وقف الأصمعي إمام اللغة على تفسيره وقال لو كان قلب غير النبي ﷺ لتكلمت عليه انتهى. قال السندي: وحقيقته بالنظر إلى قلب النبي ﷺ لم لا تدري وإن قدره ﷺ أجل وأعظم مما يخطر في كثير من الأوهام فالتفويض في مثله أحسن نعم القدر المقصود بالإفهام مفهوم وهو أنه ﷺ كان يحصل له حالة داعية إلى الاستغفار فيستغفر كل يوم مائة مرة فكيف غيره واللَّه أعلم»[٤].

* عن حذيفة أنه قدم من عند عمر قال: لما جلسنا إليه أمس، سأل أصحاب محمد ﷺ أيكم سمع قول رسول اللَّه ﷺ في الفتن؟ فقالوا: نحن سمعناه. قال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله؟ قالوا: أجل. قال: لست عن تلك أسأل، تلك يكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع قول رسول اللَّه ﷺ في الفتن التي تموج موج البحر؟ قال: فأسكت القوم؟ وظننت أنه إياي يريد، قلت: أنا. قال لي: أنت لله أبوك! قال: قلت: «**تعرض الفتن على القلوب عرض**

---

(١) المفهم (٧/ ٢٦).
(٢) التوبة: الآية (٤٠).
(٣) الإكمال (٨/ ١٩٧).
(٤) عون المعبود (٤/ ٣٧٩).

الحصير، فأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يصير القلب على قلبين: أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا -وأمال كفه- لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه»[١].

⋆ غريب الحديث:

نكتت فيه نكتة: أي أثر قليل كالنقطة، شبه الوسخ في المرآة ونحوها.

الكوز: كوب بعروة فإذا كان بلا عروة فهو كوب.

مجخيا: قال الهروي: المجخي المائل.

مربادا: قال أبو عبيد: الربدة لون بين السواد والغبرة.

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قال التوربشتي: «**الصفا**» الحجارة الصافية الملساء. وأريد به هاهنا النوع الذي صفا بياضه. وعليه نبه بقوله: «**أبيض**» وإنما ضرب المثل به، لأن الأحجار إذا لم تكن معدنية لم تتغير بطول الزمان. ولم يدخلها لون آخر. لا سيما النوع الذي ضرب به المثل، فإنه أبدا على البياض الخالص الذي لا تشوبه كدرة. والربدة لون بين السواد والغبرة. ومنه ظليم أربد وقد أربد اربدادا، أي تلون وصار على لون الرماد. وإنما وصف القلب بالربدة، لأنه أنكر ما يوجد من أنواع السواد، بخلاف ما تشوبه صفا ويعلوه طراوة من النوع الخالص»[٢].

قوله: «**إلا ما أشرب من هواه**»، **قال الطيبي**: «قال المظهر: يعني لا يعرف القلب إلا ما قبل من الاعتقادات الفاسدة والشهوات النفسانية. أقول: ولعله أراد أنه من باب تأكيد الذم بما يشبه المدح. أي: ليس فيه حبة خير ألبتة إلا هذا، وهذا ليس بخير، فيلزم منه أن يكون في خير»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٦) ومسلم (١/ ١٢٨-١٣٠/ ١٤٤). وأخرجه البخاري (٢/ ٩/ ٥٢٥) دون ذكر محل الشاهد.

(٢) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٠٢).

(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٠٣).

وقد تقدمت فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ من سورة البقرة الآيتان ٦ و٧ فلتنظر هناك لمزيد من الفائدة والله الموفق.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مرية: شك.

يوم عقيم: أي لم يولد فيه خير، يعني لم يوجد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية: أنهم لا يزالون كذلك، حتى تأتيهم الساعة: أي القيامة بغتة: أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم. وقد روى مجاهد عن أبي بن كعب: أن اليوم العقيم المذكور يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير وغير واحد: واختاره ابن جرير كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره ثم قال: وقال مجاهد وعكرمة في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، ثم قال: وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به اهـ. محل الغرض من ابن كثير.

وقد ذكرنا مرارا أنا بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا، ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول. وذكرنا لذلك أمثلة كثيرة. وبه تعلم أن القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم: يوم القيامة، لا يوم بدر، وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم، بقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. وذلك يوم القيامة وقوله: يومئذ: أي يوم إذ تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذاب عقيم، وكل ذلك يوم القيامة. فظهر أن اليوم العقيم: يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عقيما على الكفار،

لأنهم لا خير لهم فيه، وقد أصابهم ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الملك يوم القيامة له، وإن كان الملك في الدنيا له أيضا، لأن في الدنيا ملوكا من المخلوقين، ويوم القيامة لا يكون فيه اسم الملك إلا لله -جل وعلا- وحده، وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الملك يوم القيامة له، ومعلوم أن الملك هو الذي له الحكم بين الخلق بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[١] وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[٢] الآية وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[٤] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة المذكور هنا، وكون الكفار المكذبين بآيات اللَّه لهم العذاب المهين: يتضمن تفصيل حكم اللَّه بينهم في قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وما ذكره هنا من الوعد والوعيد قد بينا الآيات الدالة على معناه مرارا بكثرة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا»[٥].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية. أي: في شك من هذا القرآن. قاله ابن جريج واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مما ألقى الشيطان. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾ بغت القوم أمر اللَّه، وما أخذ اللَّه قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا باللَّه، إنه لا يغتر باللَّه إلا القوم الفاسقون»[٦].

وقال -رحمه الله تعالى- عند قوله: «﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا باللَّه ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا

---

(١) الفاتحة: الآية (٤).
(٢) الفرقان: الآية (٢٦).
(٣) غافر: الآية (١٦).
(٤) الأنعام: الآية (٧٣).
(٥) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥-٧٣٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٢).

به وكذبوا به، وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١] أي: صاغرين»[٢].

قال الرازي: «لما بين سبحانه حال الكافرين أولا، ثم حال المؤمنين ثانيا، عاد إلى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن أو من الرسول، وذلك يدل على أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن هذا وصفه.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من دون أن يشعروا. ثم جعل الساعة غاية لكفرهم، وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء. واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم بدر، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة:

أحدها: أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن.

وثانيها: أن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز.

وثالثها: هو الذي لا خير فيه. يقال ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرًا ولم تلقح شجرًا.

ورابعها: أنه لا مثل له في عظم أمره، وذلك لقتال الملائكة فيه.

القول الثاني: أنه يوم القيامة، وإنما وصف بالعقيم لوجوه:

أحدها: أنهم لا يرون فيه خيرا.

وثانيها: أنه لا ليل فيه، فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة.

وثالثها: أن كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه، وهذا القول أولى لأنه لا يجوز أن يقول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ويكون المراد يوم بدر، لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر، فإن قيل لما ذكر

(١) غافر: الآية (٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٣).

الساعة. فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار؛ قلنا ليس كذلك لأن الساعة من مقدمات القيامة، واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم، وعلى أن الأمر لو كان كما قاله لم يكن تكرارا لأن في الأول ذكر الساعة، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة.

أما قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم، وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواه، فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الأمور غيره، وبين أنه الحاكم بينهم لا حاكم سواه، وذلك زجر عن معصيته، ثم بين كيف يحكم بينهم، وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم، والكافرين في العذاب المهين»[١].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٥٦-٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية: أن المؤمنين الذين هاجروا في سبيل اللَّه، ثم قتلوا بأن قتلهم الكفار في الجهاد، لأن هذا هو الأغلب في قتل من قتل منهم، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفهم في غير جهاد، أنه تعالى أقسم ليرزقنهم رزقا حسنا وأنه خير الرازقين، وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا جاء مبينا في غير هذا الموضع.

أما الذين قتلوا في سبيل الله: فقد بين اللَّه -جل وعلا- أنه يرزقهم رزقا حسنا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1] ولا شك أن ذلك الذي يرزقهم رزق حسن، وأما الذين ماتوا في غير قتال المذكورين في قوله هنا: ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾، فقد قال اللَّه فيهم: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾[2] ولا شك أن من وقع أجره على الله: أن اللَّه يرزقه الرزق الحسن كما لا يخفى»[3].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عمن خرج مهاجرا في سبيل اللَّه ابتغاء مرضاته وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في اللَّه ورسوله، ونصرة لدين اللَّه، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ أي: حتف أنفهم، أي: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾[4].

---

(١) آل عمران: الآية (١٦٩). (٢) النساء: الآية (١٠٠).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٧٣٧-٧٣٨).

(٤) النساء: الآية (١٠٠).

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجنة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾[1] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه.

فأما من قتل في سبيل اللّه من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾[2] والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم. وأما من توفي في سبيل اللّه من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان اللّه إليه»[3].

قال السعدي: «هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل اللّه، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه اللّه، ونصرة لدين اللّه، فهذا قد وجب أجره على اللّه، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدا في سبيل اللّه، ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، أو يحتمل أن المراد أن المهاجر في سبيل اللّه، قد تكفل اللّه برزقه في الدنيا، رزقا واسعا حسنا، سواء علم اللّه منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيدا، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين اللّه. فلم يلبثوا إلا يسيرا، حتى فتح اللّه عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس. ويكون على هذا القول، قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ إما ما يفتح اللّه عليهم من البلدان، خصوصا فتح مكة المشرفة،

---

(١) الواقعة: الآيتان (٨٨و٨٩).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٣-٤٤٤).

فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور. وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة. فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها. ﴿حَلِيمٌ﴾ يعصيه الخلائق، ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله»[1].

قال الرازي: «اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه:

أحدها: التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره.

وثانيها: أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة اللَّه تعالى.

وثالثها: أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره، لا أنه يفعل نفس الرزق.

ورابعها: أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به، إما لأجل أن يخرج عن الواجب، وإما لأجل أن يستحق به حمدا أو ثناء، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية، فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له، فلا يستفيد من شيء كمالا زائدا، فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان.

وخامسها: أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل، وتلك الإرادة من اللَّه. فالرازق في الحقيقة هو اللَّه تعالى.

وسادسها: أن المرزوق يكون تحت منة الرازق، ومنة اللَّه تعالى أسهل تحملا من منة الغير، فكان هو خير الرازقين.

وسابعها: أن الغير إذا رزق فلولا أن اللَّه تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس، وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به، ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق اللَّه وملحوقا به حتى يحصل

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٣-٣١٤).

الانتفاع. وأما رزق اللَّه تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره، فثبت أنه سبحانه خير الرازقين»[1].

وقال أيضا: «إن قيل ما معنى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وما تعلقه بما تقدم؟ قلنا يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك في الجنة، وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية، بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الجهاد والمرابطة في سبيل الله

* عن فضالة بن عبيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كل الميت يختم على عمله، إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر**»[3].

★ غريب الحديث:

المرابط: الرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها[4].

★ فوائد الحديث:

قال في بذل المجهود: «**يختم على عمله**» أي: لا ينمو عمله، ولا يكتب له ثواب جديد «**إلا المرابط فإنه ينمو له**» أي يزاد «**له عمله**» بأن يصل إليه كل لحظة أجر جديد «**إلى يوم القيامة**» فإنه فدى نفسه فيما يعود نفعه على المسلمين وهو إحياء الدين يدفع أعدائهم من المشركين «**ويؤمن من فتان القبر**» أي مع ذلك، ولعله بهذا امتاز عن غيره الوارد في حديث مسلم عن أبي هريرة مرفوعا: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[5]، وهذا إشارة إلى دفع التعارض بين هذا الحديث وحديث أبي هريرة: «إذا

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٥٨-٥٩). (٢) التفسير الكبير (٢٣/ ٦٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠) وأبو داود (٣/ ٢٠/ ٢٥٠٠) والترمذي (٤/ ١٤٢/ ١٦٢١) وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ١٤٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٨٤/ ٤٦٢٤) وغيرهم.

(٤) النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٥٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٢) ومسلم (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١) وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠) والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦) وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣).

مات الإنسان انقطع عمله» الحديث، وتقرير التعارض أن قوله ﷺ كل ميت يختم على عمله إلا المرابط يدل أن غير المرابط لا ينمو له عمل ولا يزاد في ثواب عمله، وحديث أبي هريرة يدل على أن من تصدق بصدقة جارية، أو علم علما انتفع به الناس، أو من خلف له ولد صالح يدعو له فإنهم يزدادون أجرًا وثوابًا، ولم يختم على أعمالهم، والأحسن عندي في الجواب أن يقال إن ازدياد الأجر والثواب على نوعين، أحدهما أن يزداد الأجر بواسطة عمل إنسان آخر من الانتفاع بصدقته كالبئر إذا شرب منه والمسجد إذا صلى فيه أو بواسطة دعاء ولد صالح أو غيره، وثانيهما أن يزداد أجره بنمو عمله من غير واسطة إنسان آخر فالمرابط على النوع الثاني، وما سواه فهو على النوع الأول، فلا تعارض بينهما، والله تعالى أعلم»[١].

قال القرطبي: «جاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها**»[٢]، وفي صحيح مسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان**»[٣]، وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر**»[٤]. وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[٥] وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد. والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا

---

(١) بذل المجهود (١١/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٩) والبخاري (٦/ ١٠٦/ ٢٨٩٢) ومسلم (٣/ ١٥٠٠/ ١٨٨١) والترمذي (٤/ ١٦١/ ١٦٦٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٠) ومسلم (٣/ ١٥٢٠/ ١٩١٣) والترمذي (٤/ ١٦١-١٦٢/ ١٦٦٥) والنسائي (٦/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٣١٦٧-٣١٦٨).

(٤) تقدم تخريجه قريبا.

(٥) تقدم تخريجه قريبا.

المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من اللَّه تعالى إلى يوم القيامة. وهذا لأن أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام. وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة»[١].

قوله: «**ويؤمن من فتان القبر**» قال في عون المعبود: «قال العزيزي: أي فتانيه وهما منكر ونكير. قال العلقمي: يحتمل أن يكون المراد أن الملكين لا يجيئان إليه ولا يختبرانه بل يكفي موته مرابطا في سبيل اللَّه شاهدا على صحة إيمانه، ويحتمل أنهما يجيئان إليه لكن لا يضرانه ولا يحصل بسبب مجيئهما فتنة»[٢].

أما فضيلة الجهاد فقد تقدم الكلام عليها في سورة التوبة الآية (١١١).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) عون المعبود (٧/ ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ذلك بأن من جني عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته. فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم. فإن بغي عليه بعد هذا، فإن اللّٰه ينصره، لأنه مظلوم فلا يجوز أن يبغى عليه، بسبب أنه استوفى حقه. وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره اللّٰه. فالذي بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم وجني عليه، فالنصر إليه أقرب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فاللّٰه هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم اللّٰه كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]»[2].

قال المراغي: «﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الرزق الحسن والمدخل الكريم لمن قتلوا في سبيل اللّٰه أو ماتوا، ولهم أيضا النصر في الدنيا على أعدائهم وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلما من المشركين، فقاتلهم كما قاتلوه ثم بغي عليه باضطراره إلى الهجرة ومفارقة الوطن، لينصرنه اللّٰه الذي لا يغالب، ولينتقمن له من أعدائه، ولينكلن بهم ويمكننه منهم، ويجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

---

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٥).

والخلاصة أنه تعالى كما يدخلهم مدخلا كريما، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم وبغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي وإن اللَّه الذي أحاطت قدرته بكل شيء ليعفو عن المؤمنين، فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام. وما أعرضوا عنه مما ندبه من العفو بمثل قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[1] وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2] وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3] وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم وأحرى بمثلهم.

والخلاصة كأنه سبحانه قال: عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم لأني أذنت بها»[4].

قال الرازي: «ههنا سؤالات:

السؤال الأول: أي تعلق لهذه الآية بما قبلها؟ الجواب: كأنه ﷻ قال مع إكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد، لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم.

السؤال الثاني: هل يرجع ذلك إلى المهاجرين خاصة أو إليهم وإلى المؤمنين؟ الجواب: الأقرب أنه يعود إلى الفريقين فإنه تقدم ذكرهما، وبين ذلك قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا.

السؤال الثالث: ما المراد بالعقوبة المذكورة؟ الجواب: فيه وجهان: أحدهما: المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم، وورد بعضهم إلى غير ذلك، فبين تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم، وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص، لأن ظاهر النص لا يليق إلا بذلك. والجواب الثاني: أن هذه الآية في القصاص والجراحات، وهي آية مدنية عن الضحاك.

السؤال الرابع: لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة؟ الجواب: أطلق اسم العقوبة على الأول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[5]

---

(١) الشورى: الآية (٤٣).
(٢) الشورى: الآية (٤٠).
(٣) البقرة: الآية (٢٣٧).
(٤) تفسير المراغي (١٧/ ١٣٤-١٣٥).
(٥) الشورى: الآية (٤٠).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[(١)].

السؤال الخامس: أي تعلق لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بما تقدم؟ الجواب: فيه وجوه: أحدها: أن اللَّه تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[(٢)] ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾[(٣)]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾[(٤)] فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة، فكأنه سبحانه قال: إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها، فإني أنا الذي أذنت لك فيه. وثانيها: أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي، لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة، فلوح بذكر هاتين الصفتين. وثالثها: أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كيد اليهود للنبي ﷺ

* عن عائشة قالت: سحر رسول اللَّه ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم. قالت: حتى كان رسول اللَّه ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول اللَّه ﷺ، ثم دعا، ثم دعا ثم قال: **يا عائشة أشعرت أن اللَّه أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة. قال وجب طلعة ذكر. قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان.**

قالت: فأتاها رسول اللَّه ﷺ في أناس من أصحابه، ثم قال: «**يا عائشة واللَّه لكأن ماءها نقاعة الحناء. ولكأن نخلها رؤس الشياطين**». قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، أفلا أحرقته؟ قال: «**لا، أما أنا فقد عافاني اللَّه. وكرهت أن أثير**

---

(١) النساء: الآية (١٤٢).
(٢) الشورى: الآية (٤٠).
(٣) البقرة: الآية (٢٣٧).
(٤) الشورى: الآية (٤٣).
(٥) التفسير الكبير (٢٣/ ٦٠-٦١).

على الناس شرًّا. فأمرت بها فدفنت»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «لما أعلم الله عباده أن البغي ينصرف على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[٢] وضمن تعالى نصره لمن بغي عليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ كان الأولى لمن بغي عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغى عليه، وكذلك فعل النبي باليهودي الذي سحره حين عفا عنه، وقد كان له الانتقام بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[٣] لكن آثر الصفح عنه أخذا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[٤] وكذلك أخبرت عائشة عنه ﷺ أنه كان لا ينتقم لنفسه، ويعفو عمن ظلمه»[٥].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣-٦٤) والبخاري (١٠/ ٢٨٥/ ٥٧٦٥) ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٩) وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

(٢) يونس: الآية (٢٣).

(٣) النحل: الآية (١٢٦).

(٤) الشورى: الآية (٤٣).

(٥) شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

★ غريب الآية:

يولج: من أَوْلَجَ الشيءَ يُولِجُهُ: إذا أَدْخَلَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر غير واحد من المفسرين: أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى نصرة من ظلم من عباده المؤمنين المذكور قبله في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ الآية أي ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرة من شاء نصرته، ومن علامات قدرته الباهرة: أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل أو بسبب أنه خالق الليل والنهار، ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون: أي وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن اللَّه هو الحق: أي الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده، وأن كل ما يدعى إلها غيره باطل وكفر، ووبال على صاحبه، وأنه -جل وعلا- هو العلي الكبير، الذي هو أعلا من كل شيء وأعظم وأكبر ﷻ علوا كبيرا.

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا. بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، ولآخره بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الآية.

والأظهر عندي: أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى ما هو أعم من نصرة

المظلوم، وأنها ترجع لقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[1] إلى ما ذكره من نصرة المظلوم: أي ذلك المذكور من كون الملك له وحده، يوم القيامة، وأنه الحاكم وحده بين خلقه، وأنه المدخل الصالحين جنات النعيم والمعذب الذين كفروا العذاب المهين، والناصر من بغى عليه من عباده المؤمنين، بسبب أنه القادر على كل شيء، ومن أدلة ذلك: أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا. وهذا الذي وصف به نفسه هنا من صفات الكمال والجلال ذكره في غير هذا الموضع كقوله في سورة لقمان، مبينا أن من اتصف بهذه الصفات قادر على إحياء الموتى وخلق الناس ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾[3] فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، استدل بها على قدرته في الحج، وفي لقمان. وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان.

الأول: وهو قول الأكثر: هو أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر، إنما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف، لأنه أولج فيه شيء من الليل ويطول الليل في الشتاء: لأنه أولج فيه شيء من النهار، وهذا من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيبوبة الشمس. وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج، ويظلم بفقده. ذكر هذا الوجه الزمخشري، وكأنه يميل إليه والأول أظهر، وأكثر قائلا، والعلم عند اللّه تعالى»[4].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا النصر الذي أنصره على من بغي عليه على الباغي، لأني القادر على ما أشاء، فمن قدرته أن اللّه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يقول: يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ ويدخل ما انتقص من

---

(١) الحج: الآية (٥٦).
(٢) لقمان: الآية (٢٨).
(٣) لقمان: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٣٨-٧٤٠).

ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقص من طول هذا زاد في طول هذا، وبالقدرة التي تفعل ذلك ينصر محمدا ﷺ وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يقول: وفعل ذلك أيضا بأنه ذو سمع لما يقولون من قول، لا يخفى عليه منه شيء، بصير بما يعملون لا يغيب عنه منه شيء، كل ذلك منه بمرأى ومسمع، وهو الحافظ لكل ذلك حتى يجازي جميعهم على ما قالوا وعملوا من قول وعمل جزاءه.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار وإيلاجي النهار في الليل، لأني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلها من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع، يقول لهم -تعالى ذكره-: أفتتركون أيها الجهال عبادة من منه النفع وبيده الضر، وهو القادر على كل شيء، وكل شيء دونه، وتعبدون الباطل الذي لا تنفعكم عبادته وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني بقوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ ذو العلو على كل شيء، هو فوق كل شيء، وكل شيء دونه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني العظيم، الذي كل شيء دونه، ولا شيء أعظم منه»[1].

قال ابن عاشور: «ليس اسم الإشارة مستعملا في الفصل بين الكلامين مثل شبيهه الذي قبله بل الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفل النصر فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة فضرب له مثلا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها لما تقرر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار أي الظلمة والنور. وقريب منها استعارة التلبيس للإقحام في الحرب في قول المرار السلمي:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ الخ. ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده لأنه متصل به لأن جملة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ الخ مرتبطة بجملة ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ الخ.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٩٥-١٩٦).

ولذلك يصح جعل ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الخ متعلقا بقوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾. والإيلاج: الإدخال. مثل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر فإيلاج الليل في النهار: غشيان ضوء النهار على ظلمة الليل. وإيلاج النهار في الليل: غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار. فالمولج هو المختفي. فإيلاج الليل انقضاؤه. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجا. وكذلك تقلص ضوء النهار يحصل تدريجا فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء إذ يبدو داخلا فيه شيئا فشيئا. والباء للسببية. أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم. والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل، وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة ولأن الإيمان نور يتجلى به الحق والاعتقاد الصحيح فصاحبه كالذي يمشي في النهار. ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل. أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك. ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.

وقوله: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ تتميم لإظهار صلاحية القدرة الإلهية. وتقدم في سورة آل عمران وعطف ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ على السبب للإشارة إلى علم الله بالأحوال كلها فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنه ناصره لا محالة فلا يصدر منه شيء إلا عن حكمة»[1].

قال السعدي: «ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٤-٣١٦).

التصرف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا. فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم بالعكس.

فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بَصِيرٞ﴾ يرى دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعا لغايتها ومقصودها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها»[٢].

---

(١) الرعد: الآية (١٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٦-٣١٧).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الظاهر: أن ﴿تَرَ﴾ هنا من رأى بمعنى: علم. لأن إنزال المطر وإن كان مشاهدا بالبصر فكون الله هو الذي أنزله، إنما يدرك بالعلم لا بالبصر. فالرؤية هنا علمية على التحقيق.

فالمعنى: ألم تعلم الله منزلا من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة: أي ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبته الله فيها بسبب إنزاله الماء من السماء، وهذه آية من آياته وبراهين قدرته على البعث كما بيناه مرارا. وهذا المعنى المذكور هنا من كون إنبات نبات الأرض، بإنزال الماء من آياته الدالة على كمال قدرته جاء موضحا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[(١)] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[(٢)] وكقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[(٣)] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٤)] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[(٥)] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[(٦)] أي خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت، كقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[(٧)] وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[(٨)] ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرِجُ

---

(١) فصلت: الآية (٣٩).
(٢) فصلت: الآية (٣٩).
(٣) الروم: الآية (٥٠).
(٤) الروم: الآية (٥٠).
(٥) ق: الآيات (٩-١١).
(٦) ق: الآية (١١).
(٧) الروم: الآية (١٩).
(٨) ق: الآية (١١).

﴿ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] والآيات بمثل هذا كثيرة»[٢].

قال ابن كثير: «وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحابا فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء قحلة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[٣] وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء ههنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾[٤] وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوما. ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي خضراء بعد يبسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾[٥] وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٧] وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٨] ولهذا قال أمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته:

وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه»[٩].

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٤٠-٧٤١).
(٣) فصلت: الآية (٣٩).
(٤) المؤمنون: الآية (١٤).
(٥) لقمان: الآية (١٦).
(٦) النمل: الآية (٢٥).
(٧) الأنعام: الآية (٥٩).
(٨) يونس: الآية (٦١).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٥-٤٤٦).

قال السعدي: «هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها، ويبس ما فيها، من شجر ونبات. ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج. إن الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عباده الخير، ويدفع عنهم الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد. ومن لطفه أنه يري عبده عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في بواطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات، ﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقا وعبيدا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. ومن غناه أنه صمد لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يطعم ولا يطعم. ومن غناه أن الخلق كلهم مفتقرون إليه في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئا. ومن غناه أن يده سحاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود في ذاته وفي أسمائه، لكونها حسنى. وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة

والحكمة. وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة. ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما، وما شاء بعدها. الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ والمعنى أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه، وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضا لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات. فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم، لا لحاجة به إلى ذلك. وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه فكان مستحقا للحمد. فكأنه قال إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا. فلهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٨-٣٢٠).
(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «التسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير. وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل والإبل والبقر والغنم ونحوها بأن جعل اللّه فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان. ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يعذر الانتفاع به لولا ما ألهم اللّه إليه الإنسان من وسائل التغلب عليها بتعرف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره وبالاحتيال على تملكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللؤلؤ والمرجان ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن ومثل التشكيل في صنع الفلك والعجل. ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيات والصياغة. ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء والليل والنهار باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض وما لا يحصى مما ينتفع به الإنسان مما على الأرض فكل ذلك داخل في معنى التسخير. وقد تقدم القول في التسخير آنفا في هذه السورة. وتقدم في سورة الأعراف وسورة إبراهيم وغيرهما. وفي كلامنا هنا زيادة إيضاح لمعنى التسخير. وجملة ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ في موضع الحال من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾. وإنما خص هذا بالذكر لأن ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق. وقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هو أمر التكوين إذ جعل البحر صالحا لحملها وأوحى إلى نوح ﵇ معرفة صنعها ثم تتابع إلهام الصناع لزيادة

إتقانها . والإمساك : السد وهو ضد الإلقاء . وقد ضمن معنى المنع هنا وفي قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ فيقدر حرف جر لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التضمين فيقدر (عن) أو (من)، ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أن إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلبها على المخلوقات الأرضية وحطمها إياها لولا ما قدر اللَّه تعالى لكل نوع منها من سنن ونظم تمنع من تسلط بعضها على بعض كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾[1] . فكما سخر اللَّه للناس ما ظهر على وجه الأرض من موجودات مع ما في طبع كثير منها من مقتضيات إتلاف الإنسان وكما سخر لهم الأحوال التي تبدو للناس من مظاهر الأفق مع كثرتها وسعتها وتباعدها ومع ما في تلك الأحوال من مقتضيات تعذر الضبط كذلك سخر لمصلحة الناس ما في السماوات من الموجودات بالإمساك المنظم المنوط بما قدره اللَّه كما أشار إليه قوله : ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ أي تقديره . ولفظ (السماء) في قوله : ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ يجوز أن يكون بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس فيكون كلا شاملا للعوالم العلوية كلها التي لا نحيط بها علما كالكواكب السيارة وما اللَّه أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان، ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى أن اللَّه بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاما يمنعها من الخرور على الأرض فيكون قوله : ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ امتنانا على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم ويكون قوله : ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ احتراسًا جمعا بين الامتنان والتخويف ويكون الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض. وقد أشكل الاستثناء بقوله : ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ فقيل في دفع الإشكال : إن معناه إلا يوم القيامة بأذن اللَّه لها في الوقوع على الأرض. ولكن لم يرد في الآثار أنه يقع سقوط السماء وإنما ورد تشقق السماء وانفطارها . وفيما جعلنا ذلك احتراسا دفع للإشكال لأن الاحتراس أمر فرضي فلا يقتضي الاستثناء وقوع المستثنى . ويجوز أن يكون لفظ (السماء) بمعنى المطر كقول معاوية بن مالك :

---

(١) يس : الآية (٤٠).

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول زيد بن خالد الجهني في حديث الموطأ: صلى بنا رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية على إثر سماء كانت من الليل[1]، فيكون معنى الآية: أن اللَّه بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدر أسبابها وأنه لو استمر نزول المطر على الأرض لتضرر الناس فكان في إمساك نزوله باطراد منه على الناس وكان تقدير نزوله عند تكوين اللَّه إياه منة أيضا. فيكون هذا مشتملا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث ونعمة السلامة من طغيان المياه. ويجوز أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ (السماء) الذي هو ما علا الأرض فأطلق على ما يحويه كما أطلق لفظ الأرض على سكانها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[2]. فاللَّه يمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء. ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبرد والثلج والصواعق من الوقوع على الأرض والتحك بها إلا بإذن اللَّه فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب. فيكون موقع ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ كموقع قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[3] في سورة الجاثية. ويكون في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إدماجا بين الامتنان والتخويف: فإن من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس ومنه ما هو مكروه. وهذا المحمل الثالث أجمع لما في المحملين الآخرين وأوجز فهو لذلك أنسب بالإعجاز. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ استثناء من عموم متعلقات فعل (يمسك) وملابسات مفعوله وهو كلمة (السماء) على اختلاف محامله أي يمنع ما في السماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلا وقوعا ملابسا لإذن من اللَّه. هذا ما ظهر لي في معنى الآية»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه هو الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض، فتهلك من فيها، وأنه لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٦٦٣-٦٦٤/ ١٠٣٨)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

(٢) الرعد: الآية (٤١). (٣) الجاثية: الآيتان (١٢و١٣). (٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢١-٣٢٥).

فأهلكت من عليها، كما قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[١] الآية. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[٢] الآيـة، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾[٣] على قول من فسرها: بأنه غير غافل عن الخلق بل حافظ لهم من سقوط السموات المعبر عنها بالطرائق عليهم.

تنبيه:

هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[٤] وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٥] وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾[٦]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[٨] الآية، ونحو ذلك من الآيات، يدل دلالة واضحة على أن ما يزعمه ملاحدة الكفرة، ومن قلدهم من مطموسي البصائر ممن يدعون الإسلام أن السماء فضاء لا جرم مبني، أنه كفر وإلحاد وزندقة، وتكذيب لنصوص القرآن العظيم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٩] أي ومن رأفته ورحمته بخلقه: أنه أمسك السماء عنهم، ولم يسقطها عليهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي بعد أن كنتم أمواتا في بطون أمهاتكم قبل نفخ الروح فيكم فهما إحياءتان، وإماتتان كما بينه بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١٠] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[١١] الآية.

---

(١) سبأ: الآية (٩).
(٢) فاطر: الآية (٤١).
(٣) المؤمنون: الآية (١٧).
(٤) فاطر: الآية (٤١).
(٥) سبأ: الآية (٩).
(٦) النبأ: الآية (١٢).
(٧) الذاريات: الآية (٤٧).
(٨) الأنبياء: الآية (٣٢).
(٩) البقرة: الآية (١٤٣).
(١٠) البقرة: الآية (٢٨).
(١١) غافر: الآية (١١).

ونظير آية الحج المذكورة هذه قوله تعالى في الجاثية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1] الآية، وكفر الإنسان المذكور في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ مع أن اللَّه أحياه مرتين، وأماته مرتين، هو الذي دل القرآن على استبعاده وإنكاره مع دلالة الإماتتين والإحياءتين على وجوب الإيمان بالمحيي المميت، وعدم الكفر به في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾[2] الآية»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألم تر أن اللَّه سخر لكم أيها الناس ما في الأرض من الدواب والبهائم، فذلك كله لكم تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ يقول: وسخر لكم السفن تجري في البحر بأمره، يعني بقدرته، وتذليله إياها لكم كذلك.. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ويمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض إلا بإذنه.

ومعنى قوله: ﴿أَن تَقَعَ﴾: أن لا تقع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بمعنى: إنه بهم لذو رأفة ورحمة. فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تفضلا منه عليكم بذلك..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّه الذي أنعم عليكم هذه النعم، هو الذي جعل لكم أجساما أحياء بحياة أحدثها فيكم ولم تكونوا شيئا، ثم هو يميتكم من بعد حياتكم، فيفنيكم عند مجيء آجالكم، ثم يحييكم بعد مماتكم عند بعثكم لقيام الساعة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ يقول: إن ابن آدم لجحود لنعم اللَّه التي أنعم بها عليه من حسن خلقه إياه، وتسخيره له ما سخر، مما في الأرض والبر والبحر، وتركه إهلاكه بإمساكه السماء أن تقع على الأرض بعبادته غيره من الآلهة والأنداد، وتركه إفراده بالعبادة وإخلاص التوحيد له»[4].

قال السعدي: «أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة، وأياديه

---

(١) الجاثية: الآية (٢٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٨).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٧٤٣-٧٤٤).

(٤) جامع البيان (١٧/ ١٩٧-١٩٨).

الواسعة، و ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات. فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم، حيواناتها لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها. ومعادنها يستخرجها، وينتفع بها. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تحملكم، وتحمل تجاراتكم، وتوصلكم من محل إلى محل. وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم. ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر. ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ﴾ وأوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه اللّه ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم اللّه، كفور باللّه، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه»[٢].

* * *

(١) فاطر: الآية (٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٠-٣٢١).

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

★ غريب الآية:

منسكا: أي موضع نحر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الأظهر في معنى قوله: ﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي متعبدا هم متعبدون فيه، لأن أصل النسك التعبد. وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى اللَّه بالذبح، فهو فرد من أفراد النسك، صرح القرآن بدخوله في عمومه. وذلك من أنواع البيان الذي تضمنها هذا الكتاب المبارك.

والآية التي بين اللَّه فيها ذلك هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾[1] الآية وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يدعو الناس إلى ربهم أي إلى طاعته، وطاعة رسله، وأخبره فيها أنه على صراط مستقيم: أي طريق حق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي أمره أن يدعو الناس إليه. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمرين المذكورين، جاء واضحا في مواضع أخر كقوله في الأول منهما: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ

(١) الحج: الآية (٣٤).

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾[2] الآية وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[3] وأخبر -جل وعلا- أنه امتثل الأمر بدعائهم إلى ربهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ ﴾[4] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[5] وكقوله في الأخير: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[6] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾[7] الآية وقوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[8]. والآيات بمثل هذا كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أنه إن جادله الكفار: أي خاصموه بالباطل وكذبوه، أن يقول لهم: اللَّه أعلم بما تعملون.

وهذا القول الذي أمر به تهديد لهم، فقد تضمنت هذه الآية أمرين:

أحدهما: أمر الرسول ﷺ أن يهددهم بقوله: اللَّه أعلم بما تعملون: أي من الكفر، فمجازيكم عليه أشد الجزاء.

الثاني: الإعراض عنهم، وقد أشار تعالى للأمرين اللذين تضمنتهما هذه الآية في غير هذا الموضع.

أما إعراضه عنهم عند تكذيبهم له بالجدال الباطل، فمن المواضع التي أشير له فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[9].

وأما تهديدهم فقد أشار له في مواضع كقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾[10] وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[11] فقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾ الآية فيه أشد الوعيد

---

(١) القصص: الآية (٨٧).
(٢) الشورى: الآية (١٥).
(٣) النحل: الآية (١٢٥).
(٤) المؤمنون: الآية (٧٣).
(٥) الشورى: الآية (٥٢).
(٦) النمل: الآية (٧٩).
(٧) الجاثية: الآية (١٨).
(٨) الفتح: الآية (٢).
(٩) يونس: الآية (٤١).
(١٠) الأحقاف: الآية (٨).
(١١) الأنعام: الآية (١٤٧).

للمكذبين، كما قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[١] في مواضع متعددة، وهم إنما يكذبونه بالجدال، والخصام بالباطل. وقد أمره اللَّه في غير هذا الموضع أن يجادلهم بالتي هي أحسن وذلك في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣] وبين له أنهم لا يأتونه بمثل ليحتجوا عليه به بالباطل، إلا جاءه اللَّه بالحق الذي يدمغ ذلك الباطل، مع كونه أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحقائق وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[٤]»[٥].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ يقول: لكل جماعة قوم هي خلت من قبلك، جعلنا مألفا يألفونه ومكانا يعتادونه لعبادتي فيه وقضاء فرائضي، وعملا يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر. يقال: إن لفلان منسكا يعتاده: يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وإنما سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة.. وقد اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: أي المناسك عني به؟.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول اللَّه ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر اللَّه عنهم في سورة الأنعام. غير أن تلك لم تكن مناسك. فأما التي هي مناسك، فإنما هي هدايا أو ضحايا. ولذلك قلنا: عني بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا.

و قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون باللَّه يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك محق وهم مبطلون.. وقوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وادع يا محمد منازعيك من

(١) المرسلات: الآية (١٥).
(٢) النحل: الآية (١٢٥).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٦).
(٤) الفرقان: الآية (٣٣).
(٥) أضواء البيان (٥/ ٧٤٥-٧٤٧).

المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديق بما جئتم به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان، وتبرءوا منها. إنك لعلى طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك، وهم الضلال على قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعمهم وعبادتهم الآلهة»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا. قال ابن جرير: (يعني لكل أمة نبي منسكا قال: وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها).

فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أي: هؤلاء المشركون، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا كما قال: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾[٢] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: فاعلوه فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق. ولهذا قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾[٤].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾[٥] ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ وهذه كقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ

(١) جامع البيان (١٧/ ١٩٨-١٩٩).
(٢) البقرة: الآية (١٤٨).
(٣) القصص: الآية (٨٧).
(٤) يونس: الآية (٤١).
(٥) الأحقاف: الآية (٨).

أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾ أي: معبدا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[3] الآية. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصا من الأميين، أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضوا على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد، يقولون: (تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله) وكقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾[4] ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالاقتصار على هذه دليل على أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به. فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[5] مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ إرشادا لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول.

---

(١) الشورى: الآية (١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٧-٤٤٨).
(٣) المائدة: الآية (٤٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٥) النمل: الآية (٧٩).

والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره اللَّه بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها وهو ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، فمن وافق الصراط المستقيم فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه فهو من أهل الجحيم»[١].

قال القرطبي: «في هذه الآية أدب حسن، علمه اللَّه عباده في الرد على من جادل تعنتا ومراء ألا يجاب ولا يناظر، ويدفع بهذا القول الذي علمه اللَّه لنبيه ﷺ»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢١-٣٢٣).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٢/ ٩٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ.. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضا فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره وهذا يعصي باختياره وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علما وهو سهل عليه يسير لديه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألم تعلم يا محمد أن اللّه يعلم كل ما في السماوات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بجميع ما عملوه في الدنيا، فمجازي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته. إن ذلك في كتاب: يقول -تعالى ذكره-: إن علمه بذلك في كتاب، وهو أم الكتاب الذي كتب فيه ربنا جل ثناؤه قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ اختلف في ذلك فقال بعضهم: معناه إن الحكم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على اللّه يسير.

ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج عن ابن جريج: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قال: حكمه يوم القيامة ثم قال بين ذلك: ﴿أَلَمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٨-٤٤٩).

تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ .

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن كتاب القلم الذي أمره الله أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن على الله يسير يعني هين، وهذا القول الثاني أولى بتأويل ذلك، وذلك أن قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أقرب وهو له مجاور، ومن قوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متباعد مع دخول قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بينهما. فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وجد للكلام، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كتابة المقادير

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال وعرشه على الماء**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير، فإن ذلك أزلي لا أول له. وقوله: «**وعرشه على الماء**» أي: قبل خلق السماوات والأرض والله أعلم»[٣].

قال البغوي: «الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن خلقهم، قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٤]، وقال الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٦]، فالإيمان والكفر والطاعة والمعصية كلها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية، وأوعد عليهما العقاب،

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩) ومسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٣) والترمذي (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٢١٥٦).

(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٦٦).

(٤) الصافات: الآية (٩٦).

(٥) الرعد: الآية (١٦).

(٦) القمر: الآية (٤٩).

قال ﷻ: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[١]، وقال اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٢]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[٤]..

فالعبد له كسب، وكسبه مخلوق يخلقه اللّٰه حالة ما يكسب، والقدر سر من أسرار اللّٰه لم يطلع عليه ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، لا يجوز الخوض فيه، والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن اللّٰه ﷻ خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلا»[٥].

وانظر بقية فوائده في سورة الأعراف الآية (١٧٩).

* عن عبادة بن الصامت سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللّٰه القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد**»[٦].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «جملة القول في القدر أنه سر اللّٰه لا يدرك بجدال ولا نظر ولا تشفى منه خصومة ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن اللّٰه لا يقوم شيء دون إرادته ولا يكون شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر كله لا شريك له، نظام ذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[٧] وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾[٨] وحسب المؤمن من القدر، أن يعلم أن اللّٰه لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفسا إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم فمن رد على اللّٰه تعالى خبره في الوجهين أو في أحدهما كان عنادا وكفرا، وقد تظاهرت الآثار في التسليم للقدر والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مقدره وحكمته، وفي نقض عزائم الإنسان برهان فيما قلنا وتبيان، واللّٰه المستعان»[٩].

* * *

(١) إبراهيم: الآية (٢٧).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٣) الحج: الآية (١٨).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٥) شرح السنة (١/ ١٤٢-١٤٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧) وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠) والترمذي (٥/ ٣٩٤-٥٩٥/ ٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب» واللفظ له.
(٧) الإنسان: الآية (٣٠).
(٨) القمر: الآية (٤٩).
(٩) فتح البر (٢/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سلطانًا: أي حجة وبرهانًا.

يسطون: يبطشون. يقال: سطا به وعليه بمعنىً واحد. والسطو: شدة البطش.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون اللّه ما لم ينزل به سلطانا، يعني: حجة وبرهانا كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1] ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة. وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من اللّه فيما يحل بهم من العذاب والنكال. ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد اللّه، وأنه لا إله إلا هو وأن رسله الكرام حق وصدق. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم

(١) المؤمنون: الآية (١١٧).

بالسوء. ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء اللَّه المؤمنين في الدنيا. وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال السعدي: «يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو -في نفس الأمر- له حجة ما علمها. فأخبر هنا أن اللَّه لم ينزل في ذلك سلطانا، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه. ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب اللَّه إذا نزل بهم وحل. وهل لهؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ التي هي آيات اللَّه الجليلة، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأسا، بل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ﴾ من بغضها وكراهتها، ترى وجوههم معبسة، وأبشارهم مكفهرة، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ﴾ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة، وشرها بئس الشر. ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروهها وآلامها تزداد على الدوام»[(٣)].

قال الرازي: «بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله. فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ﴾ فبين أن عبادتهم لغير اللَّه تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي، وهو المراد من قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ

---

(١) الفرقان: الآية (٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٤-٣٢٥).

بِهِۦ سُلۡطَـٰنٗا﴾ . ولا عن دليل عقلي ، وهو المراد من قوله : ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ﴾ وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة ، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا ، فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافرا ، وإن لم يعلم كونه كافرا ، ويدل أيضا على فساد التقليد .

أما قوله : ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما : أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من اللَّه كما قد تتفق النصرة في الدنيا .

والثاني : ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة ، فإن الحجة ليست إلا للحق ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم .

أما قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٖ﴾ يعني من تقدم ذكره . وهذه الآيات هي القرآن ، ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام ، فبين أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب ، قال صاحب «الكشاف» المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار ، كالمكرم بمعنى الإكرام . وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله ، وللمفسرين في المنكر عبارات :

أحدها : قال الكلبي : ﴿تَعۡرِفُ﴾ في وجوههم الكراهية للقرآن .

ثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : التجبر والترفع .

وثالثها : قال مقاتل : أنكروا أن يكون من اللَّه تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ فقال الخليل والفراء والزجاج : السطو شدة البطش والوثوب ، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لإنكار ما خوطبوا به ، فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ، ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال : ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ﴾ قال صاحب «الكشاف» قوله : ﴿ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ﴾ أي من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم ، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم ، فقوله : ﴿ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم ، أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم .

والثاني : أن يكون المراد ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ﴾ ما تهمون به فيمن يحاجكم . فإن

أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك، ثم بعده مصيرهم إلى الجنة، وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها»[1].

قال الشوكاني: «وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة مخالفا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل إليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل»[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٦٧-٦٨).

(٢) فتح القدير (٣/ ٦٦٢-٦٦٣).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

★ غريب الآية:

يسلبهم: السلب: خطف الشيء بسرعة. وسلبك: إذا أخذ ما عندك.

قدروا: عظموا ومجدوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: «أي: ما عظموه حق عظمته حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب، وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه، كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم، إن سلبها الذباب منه شيئا لا تقدر على استنقاذه منه، وكونهم لم يعظموا اللّه حق عظمته، ولم يعرفوه حق معرفته، حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع، ولا دفع ضر. ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1] وكقوله في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه: جعل لي شبه أيها الناس يعني بالشبه والمثل: الآلهة. يقول: جعل لي المشركون والأصنام شبها، فعبدوها معي وأشركوها في

(١) الأنعام: الآية (٩١).

(٢) الزمر: الآية (٦٧).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٧٤٧).

عبادتي فاستمعوا له يقول: فاستمعوا حال ما مثلوه وجعلوه لي في عبادتهم إياه شبها، وصفته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ يقول: إن جميع ما تعبدون من دون اللَّه من الآلهة والأصنام، لو جمعت لم يخلقوا ذبابا في صغره وقلته لأنها لا تقدر على ذلك ولا تطيقه، ولو اجتمع لخلقه جميعها. والذباب واحد وجمعه في القلة أذبة وفي الكثير ذبان، نظير غراب يجمع في القلة أغربة وفي الكثرة غربان.

و قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ يقول: وإن يسلب الآلهة والأوثان الذباب شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه من شيء لا يستنقذوه منه: يقول: لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه.

واختلف في معنى قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فقال بعضهم: عني بالطالب: الآلهة وبالمطلوب: الذباب.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج قال: قال ابن جريج قال ابن عباس في قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ قال: آلهتهم ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: الذباب.

وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ من بني آدم إلى الصنم حاجته ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ إليه الصنم أن يعطي سائله من بني آدم ما سأله يقول: ضعف عن ذلك وعجز.

والصواب من القول في ذلك عندنا ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب، وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه وهو الطيب وما أشبهه، والمطلوب: الذباب.

وإنما قلت هذا القول أولى بتأويل ذلك لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فأن يكون ذلك خبرا عما هو به متصل أشبه من أن يكون خبرا عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بم أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريعا منه بذلك عبدتها من مشركي قريش. يقول -تعالى ذكره-: كيف يجعل مثل في العبادة ويشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئا عليه لم يقدر أن يمتنع منه ولا ينتصر، وأنا الخالق ما في السماوات والأرض، ومالك جميع ذلك والمحيي من أردت، والمميت ما أردت

ومن أردت. إن فاعل ذلك لا شك أنه في غاية الجهل.

وقوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يقول: ما عظم هؤلاء الذين جعلوا الآلهة لله شريكا في العبادة حق عظمته حين أشركوا به غيره. فلم يخلصوا له العبادة ولا عرفوه حق معرفته. من قولهم: ما عرفت لفلان قدره إذا خاطبوا بذلك من قصر بحقه، وهم يريدون تعظيمه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا مثل ضربه اللَّه لآلهتهم وقرأ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حين يعبدون مع اللَّه ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه.

و قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ يقول: إن اللَّه لقوي على خلق ما يشاء، من صغير ما يشاء من خلقه وكبيره، ﴿عَزِيزٌ﴾: يقول: منيع في ملكه لا يقدر شيء دونه أن يسلبه من ملكه شيئا، وليس كآلهتكم أيها المشركون الذين تدعون من دونه الذين لا يقدرون على خلق ذباب، ولا على الامتناع من الذباب إذا استلبها شيئا ضعفا ومهانة»[1].

قال السعدي: «هذا مثل ضربه اللَّه لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية، وأسماعا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شمل كل ما يدعى من دون اللَّه، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ بل أبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود من دون اللَّه ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلقون بهذا الضعيف، وينزلونه منزلة رب العالمين.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٠٣-٢٠٤).

فهؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث سووا الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه. سووا من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة. ومن كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن. ومن كمال قوته، أن يمسك السماوات والأرض أن تزولا. ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة. ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير، وسوط من عذابه»[1].

قال ابن القيم: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون اللّه لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها. فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟ وهذا المثل من أبلغ ما أنزله اللّه سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات، فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٦-٣٢٧).

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف، لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه. ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب العابد والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز. وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز. وعلى هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه. وقيل: الطالب الذباب، والمطلوب الإله؛ فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستلِب والمستلَب، فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المصورين

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة**. ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه. فقلت: يا أبا هريرة أشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: منتهى الحلية»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**» أمر بمعنى التعجيز، وهو على سبيل الترقي في الحقارة أو التنزل في الإلزام، والمراد بالذرة إن كان النملة فهو من تعذيبهم وتعجيزهم بخلق الحيوان تارة وبخلق الجماد أخرى، وإن كان بمعنى الهباء فهو بخلق ما ليس له جرم محسوس تارة وبماله جرم أخرى»[٣].

قال النووي: «معناه فليخلقوا ذرة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي هي خلق اللَّه تعالى، وكذلك فليخلقوا حبة حنطة أو شعير، أي ليخلقوا حبة فيها طعم تؤكل وتزرع وتنبت ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢ و٣٩١) والبخاري (١٠/ ٤٧١/ ٥٩٥٣) ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

(٣) الفتح (١٣/ ٦٥٤).

الحب الذي يخلقه اللَّه تعالى وهذا أمر تعجيز»[١].

قال ابن بطال: «قوله في حديث أبي هريرة: قال اللَّه تعالى: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» يريد يصور صورة تشبه خلقي. فسمى فعل الإنسان في تصوير مثالها خلقا له، توبيخا له على تشبهه باللَّه فيما صور فأحكم وأتقن على غير مثال احتذاه ولا من شيء قديم ابتداه، بل أنشأ من معدوم، وابتدع من غير معلوم، وأنتم صورتم من خشب موجود، وحجر غير مفقود، على شبه معهود مضاهين له، وموهمين الأغمار أنكم خلقتم كخلقه، فاخلقوا أقل مخلوقاته وأحقرها الذرة المتعدية في أدق من الشعر، وأنفذ منكم بغير آلة في نحت الحجر فتتخذه مسكنا، وتدخر فيه قوتها نظرا في معاشها، أو اخلقوا حبة من هذه الأقوات التي خلقها اللَّه لعباده، ثم يخرج منها زرعا لا يشبهها نباته، ثم يطلع منها بقدرته من جنسها بعد أن أعدم شخصها عددا من غير نوع نباتها الأخضر قدرة بالغة لمعتبر، وإعجازا لجميع البشر»[٢].

قال الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن عبدالوهاب: «ذكر النبي ﷺ العلة وهي المضاهاة بخلق اللَّه، لأن اللَّه تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾[٣] فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه اللَّه تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهيا لخلق اللَّه، فصار ما صور عذابا له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذابا لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه اللَّه تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئا من العبادة

(١) شرح مسلم (١٤/ ٧٨).
(٢) شرح البخاري لابن بطال (١٠/ ٥٥٥).
(٣) السجدة: الآيات (٧-٩).

التي ما خلق اللَّه الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه اللَّه من العبد ويرضاه؟! فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه وجعله شريكا له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عصي اللَّه تعالى به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه، لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجى اللَّه تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2]»[3].

* * *

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) الحج: الآية (٣١).

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص٧٢٣,-٧٢٤).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصطفي: يجتبي ويختار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يصطفي أي يختار رسلا من الملائكة ومن الناس، فرسل الناس لإبلاغ الوحي، ورسل الملائكة لذلك أيضا، وقد يرسلهم لغيره، وهذا الذي ذكره هنا من اصطفائه الرسل منهما جاء واضحا في غير هذا الموضع، كقوله في رسل الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1] الآية. وقوله في جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾[2] ومن ذكره إرسال الملائكة بغير الوحي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾[3] وكقوله في رسل بني آدم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾[4] وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[5] الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[6] الآية»[7].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال

(١) فاطر: الآية (١).
(٢) التكوير: الآية (٤٠).
(٣) الأنعام: الآية (٦١).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٦) النحل: الآية (٣٦).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٧٤٧-٧٤٨).

عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١) وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾(٢) فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾(٣) الآية»(٤).

قال السعدي: «لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقا، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء. فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واجتباهم ليس جاهلا بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئا دون شيء، وإنما المصطفي لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء. فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٥).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى اللَّه، فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل. وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيرها إلى اللَّه، فلا تعدم منه فضلا أو عدلا»(٦).

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٢) الجن: الآيات (٢٦-٢٨).
(٣) المائدة: الآية (٦٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥١).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ لله في صلاتكم ﴿وَٱسْجُدُوا۟﴾ له فيها ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يقول: وذلوا لربكم واخضعوا له بالطاعة ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ الذي أمركم ربكم بفعله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول: لتفلحوا بذلك فتدركوا به طلباتكم عند ربكم»[1].

قال ابن عاشور: «لما كان خطاب المشركين فاتحا لهذه السورة وشاغلا لمعظمها عدا ما وقع اعتراضا في خلال ذلك. فقد خوطب المشركون بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربع مرات فعند استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم. ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوه بشأنهم، وفي هذا الترتيب إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

والمراد بالركوع والسجود الصلوات. وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ تنبيه على أن الصلاة عماد الدين. والمراد بالعبادة: ما أمر اللَّه الناس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج. وقوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة وحسن المعاملة: كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر مكارم الأخلاق وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخرى. والرجاء المستفاد من ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٠٤).

للفلاح فيما حدد اللَّه تعالى. فهذه حقيقة الرجاء»[(١)].

قال السعدي: «يأمر تعالى، عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموما.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب. فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده. فمن وفق لذلك، فله القدح المعلى، من السعادة والنجاح والفلاح»[(٢)].

قال الزمخشري: «للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات. وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عم بالحث على سائر الخيرات.. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن التنافس في الخير عمل شرعي يتسابق إليه العقلاء

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فهو يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل آتاه اللَّه ما لا فهو ينفقه في حقه فيقول لو أوتيت مثل ما أوتي، عملت فيه مثل ما يعمل**»[(٤)].

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه**

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥-٣٤٦). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٩).
(٣) الكشاف (٣/ ٢٣).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧٩) والبخاري (١٣/ ٦١٤/ ٧٥٢٨) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٦/ ٥٨٤١).

اللَّه مالا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه اللَّه حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(١).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**لا حسد**» أي: لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين، أو لا يحسن الحسد إن حسن، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين كأنه قيل: لولا لم يحصلا إلا بالطريق المذموم لكان ما فيهما من الفضل حاملا على الإقدام على تحصيلهما به، فكيف والطريق المحمود يمكن تحصيلهما به، وهو من جنس قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾(٢) فإن حقيقة السبق أن يتقدم على غيره في المطلوب»(٣).

وقال الطيبي: «قوله: «**لا حسد**» أي لا رخصة فيه، **قال البغوي في شرح السنة**: المراد من الحسد ههنا الغبطة، وهي تمني الرجل مثل ما لأخيه من غير أن يتمنى زواله عنه، والمذموم ما يتمنى الزوال، وهو المسمى بالحسد، ومعنى الحديث: الترغيب في التصدق بالمال، وتعليم العلم، وقيل: إن فيه تخصيصا لإباحة نوع من الحسد، وإن كانت جملته محظورة. وإنما رخص فيهما لما يتضمن مصلحة في الدين. قال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وكما رخص في الكذب لتضمن فائدة هي فوق آفة الكذب. وقيل: معناه لا يحسن الحسد إن حسن في موضع إلا في هذين الموضعين.

أقول: أثبت الحسد في الحديث لإرادة المبالغة في تحصيل النعمتين الخطيرتين، يعني ولو حصلتا بهذا الطريق المذموم فينبغي أن يتحرى ويجتهد في تحصيلها، فكيف بالطريق المحمود؟ بل أقول: هو الطريق المحمود لذاته، والمأمور في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ والمرغب فيه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥) والبخاري (١٣/ ١٥٠/ ٧١٤١) ومسلم (١/ ٥٥٩/ ٨١٦) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٧/ ٤٢٠٨) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٦/ ٥٨٤٠).

(٢) البقرة: الآية (١٤٨).

(٣) الفتح (٩/ ٩٠).

ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾[١] فإن السبق هو روم نيل ما لصاحبك واختصاصك به. قالت الخنساء:

وما بلغت كف امرئ متناولا من المجد إلا والذي نال أطول

وهو الحسد المباح الذي سبق ذكره. وكيف لا؟ وكل واحدة من هاتيك الخصلتين بلغت غاية لا أمد فوقها، ولو اجتمعتا في امرئ بلغ من العلياء كل مكان»[٢].

قال الحافظ: «كأنه قال في الحديث لا غبطة أعظم أو أفضل من الغبطة في هذين الأمرين. ووجه الحصر أن الطاعات إما بدنية أو مالية أو كائنة عنهما، وقد أشار إلى البدنية بإتيان الحكمة والقضاء بها وتعليمها. ولفظ حديث ابن عمر: «**رجل آتاه اللَّه القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار**»[٣] والمراد بالقيام به العمل به مطلقا، أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه والحكم والفتوى بمقتضاه، فلا تخالف بين لفظي الحديثين»[٤].

وقال أيضا: «قال الزين بن المنير: في هذا الحديث حجة على جواز إنفاق جميع المال وبذله في الصحة والخروج عنه بالكلية في وجوه البر، ما لم يؤد إلى حرمان الوارث ونحو ذلك مما منع منه الشرع»[٥].

وقال ابن علان: «قوله: «**ورجل آتاه اللَّه القرآن**» قدم هنا على المال من باب التدلي من الشريف إلى المشروف وعكس في الحديث قبله من باب الترقي، أو لأن ذلك سبق للحض على الاشتغال بالقرآن فقدم في كل ما سبق له الحديث وذكر الآخر بالتبع، أو أن ذلك على وجه التفنن في التعبير؛ وعبر هنا بالقرآن الذي هو منبع العلوم ومعدنها وأصلها ومكمنها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[٧] أي لكل شيء محتاج إليه كما يؤذن به حذف

---

(١) الواقعة: الآيتان (١٠و١١).

(٢) الكاشف (٢/ ٦٦٢-٦٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨-٩) والبخاري (١٣/ ٦١٤/ ٧٥٢٩) ومسلم (١/ ٥٥٨/ ٨١٥) والترمذي (٤/ ٢٩١/ ١٩٣٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧/ ٨٠٧٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢٠٩) من حديث عبد اللَّه بن عمر ﭫ.

(٤) الفتح (١/ ٢٢١).

(٥) الفتح (٣/ ٣٥٣).

(٦) الأنعام: الآية (٣٨).

(٧) الزخرف: الآية (٢).

المعمول لأنه الأصل، وثم بالحكمة مراد بها العلم الشرعي على قول لعموم حاجة الناس في معاشهم ومعادهم إليه **«فهو يقوم به»** أي في صلاته **«آناء الليل وآناء النهار»** منصوب على الظرفية وأعاد المضاف دفعا لتوهم أن المراد آناء مجموعهما لا كل على الانفراد، ويحتمل أن يراد من القيام المداومة على تلاوته لا بخصوص كونه في صلاة **«ورجل آتاه اللّه ما لا»** التنكير فيه للتعظيم كما يدل عليه قوله: **«فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»** ويحتمل أن يكون للشيوع فيشمل الجليل منه والحقير، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[1]»[2].

قال ابن أبي جمرة: «يترتب على هذا من الفقه وجوه منها: الجد في فهم الحديث والكتاب لما فيهما من الخير، وأنه ينبغي لكل من له ولاية على رعية ولو على نفسه الذي لا بد لكل شخص منها، أن ينظر كيف يجلب لهم الخير بحسن إرشاد منه، اقتداء بهذا السيد ﷺ. وفيه إشارة إلى أن العلم لا يكمل الانتفاع به إلا مع العمل به. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: **«ويقضي بها»**»[3].

* * *

(١) الطلاق: الآية (٧).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٥٨٣-٥٨٤).

(٣) بهجة النفوس (٢/ ١٣٠-١٣١).

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

★ غريب الآية:

حرج: ضيق وشدة.

ملة: الملة: الدين والشريعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع اللَّه فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ذكره -جل وعلا- في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[٢] وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وابن عباس أن النبي ﷺ لما قرأ خواتم سورة البقرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾[٣] قال الله: «**قد فعلت**» في رواية ابن عباس. وفي رواية أبي هريرة قال: «**نعم**». ومن رفع الحرج في هذه الشريعة الرخصة في قصر

(١) البقرة: الآية (١٨٥).

(٢) النساء: الآية (٢٨).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

الصلاة في السفر والإفطار في رمضان فيه، وصلاة العاجز عن القيام قاعدا، وإباحة المحظور للضرورة كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[1] الآية إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج، والتخفيف في شريعة نبينا ﷺ، هو إحدى القواعد الخمس التي بني عليها الفقه الإسلامي»[2].

وقال أيضا: «قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: إنما اجتباكم وفضلكم ونوه باسمكم المسلمين من قبل نزول كتابكم، وزكاكم على ألسنة الرسل المتقدمين، فسماكم فيها المسلمين، وكذلك سماكم في هذا القرآن. وقد عرف بذلك أنكم أمة وسط عدول خيار مشهود بعدالتكم، لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، أن الرسل بلغتهم رسالات ربهم، حين ينكر الكفار ذلك يوم القيامة، ويكون الرسول عليكم شهيدا، أنه بلغكم، وقيل: شهيدا على صدقكم فيما شهدتم به للرسل على أممهم من التبليغ.

وهذا المعنى المذكور هنا ذكره اللَّه -جل وعلا- في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3] وقال فيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾[4] الآية. والعلم عند اللَّه تعالى»[5].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[6] وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة، اللَّه اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل اللَّه لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعا وفي السفر تقصر إلى ثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث، وتصلى رجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة

---

(١) الأنعام: الآية (١١٩).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٤٨-٧٤٩).

(٣) البقرة: الآية (١٤٣).

(٤) الفتح: الآية (٨).

(٥) أضواء البيان (٥/ ٧٥٢).

(٦) آل عمران: الآية (١٠٢).

في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(١)] وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «**بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا**»[(٢)] والأحاديث في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق، بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم. قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[(٣)] الآية.

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قال الإمام عبد اللّٰه بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: اللّٰه ﷻ، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: إبراهيم. وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[(٤)]. قال ابن جرير: وهذا لا وجه له، لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال اللّٰه تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: اللّٰه سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن، وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٢٠٩) بهذا اللفظ من حديث جابر بن عبد اللّٰه رضي الله عنه وسنده ضعيف.
وأخرجه أحمد (٦/ ١١٦) بلفظ: «**إني أرسلت بحنيفية سمحة**» من حديث عائشة رضي الله عنها. وسنده حسن. فيه عبدالرحمن بن أبي الزياد وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٣) الأنعام: الآية (١٦١).

(٤) البقرة: الآية (١٢٨).

﴿مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَٰذَا﴾.. ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.. وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق اللَّه عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق اللَّه بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة. وقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتضدوا باللَّه، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم. ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء»[1].

قال السعدي: «﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب. فالجهاد في اللَّه حق جهاده، هو القيام التام بأمر اللَّه، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك.

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي: اختاركم -يا معشر المسلمين- من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام.

ولما كان قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥١-٤٥٣).

باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن (المشقة تجلب التيسير) و(الضرورات تبيح المحظورات) فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المزبورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الكتب السابقة، أنتم مذكورون ومشهورون، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثا، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا عدلا خيارا، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرا لله على ما أولاكم، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه»[1].

قال ابن القيم: «أخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من اجتبى الشيء يجتبيه، إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين. ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلها معبودا محبوبا على كل ما سواه، كما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٩-٣٣١).

اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم. فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه، وآثرهم بذلك على من سواهم. ثم أخبرهم تعالى أنه يسر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج ألبتة. لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم، ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره، ثم أخبر تعالى أنه نوه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسماهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم، ثم نوه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم، ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ويشهدوا هم على الناس؛ فيكونون مشهودا لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة اللَّه عليهم. فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين»[1].

وقال ابن القيم أيضا: «أمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وباللَّه، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء اللَّه في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد، فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في اللَّه لومة لائم.

وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٣٣-١٣٤).

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى. ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحق تقاته وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ والحرج: الضيق، بل جعله واسعا يسع كل أحد كما جعل رزقه يسع كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما. قال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(١)] أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل. وقد وسع الله ﷻ على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة. وجعل بكل ما حرم عليهم عوضا من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال فلا يضيق عنه. وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله، ويسرا بعده، «**فلن يغلب عسر يسرين**»[(٢)] فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم، فضلا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه»[(٣)].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: «أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج فالنصر على هذا العدو أهم والعبد إليه أحوج وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله»[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٥٢٨) عن الحسن ورجاله ثقات، لكنه مرسل.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٨-٩).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٧٩-١٨٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الجهاد في سبيل الله ولزوم الجماعة وأن التيسير ورفع الحرج هو منهاج رسول الله ﷺ ووصيته لأمته

* عن فضالة بن عبيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله**» «أي: قهر نفسه الأمارة بالسوء على ما فيه رضى الله؛ من فعل الطاعة وتجنب المعصية، وجهادها أصل كل جهاد، فإنه ما لم يجاهدها لم يمكنه جهاد العدو الخارج»[(٢)].

قال ابن القيم: «لما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[(٣)] كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج»[(٤)].

وقال أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠ و٢٢) والترمذي (٤/ ١٤٢/ ١٦٢١) وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١١/ ٥/ ٤٧٠٦).

(٢) تحفة الأحوذي (٥/ ٢٠٦).

(٣) تقدم تخريجه قريبا.

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦).

يكتمون ما أنزل اللَّه من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب اللَّه.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى اللَّه، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات»[1].

* عن الحارث الأشعري عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**آمركم بخمس اللَّه أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل اللَّه، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم قالوا: يا رسول اللَّه وإن صام وإن صلى؟ قال: وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم اللَّه ﷻ** المسلمين المؤمنين عباد اللَّه ﷻ»[2].

★ غريب الحديث:

جثا: الجثا جمع جثوة بالضم. وهو الشيء المجموع أي: من جماعة جهنم. وهي في الأصل ما جمع من تراب أو غيره، فاستعير للجماعة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «الجماعة وهي لزوم الطريقة التي يتمسك بها الناس، ولا يكون المرء شاذا خارجا عن منهاجهم. وهذه الجماعة هي الصحابة والتابعون والأخيار المسلمون في جادة الدين ومنهاج الحق المبين، وهي في جمع الكلمة واجتناب الفرقة والاتفاق على أمر، فإذا كان كذلك والمخالف ولا ليس يلتفت إليه والخارج الآخر لا يستبقي عليه بحال التوكيد، ثم أكد ذلك ﷺ بقوله: «**من ادعى**

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه في حديث طويل طرفه «**إن اللَّه أمر يحيى بن زكريا بخمس..**»: أحمد (٤/ ١٣٠) والترمذي (٥/ ١٣٦-١٣٨/ ٢٨٦٣-٢٨٦٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وصححه: ابن خزيمة (٣/ ١٩٥-١٩٦/ ١٨٩٥) وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٢٤-١٢٦/ ٦٢٣٣) وأخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٢/ ٨٨٦٦) هكذا مختصرا.

دعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم»[١]. ودعوى الجاهلية وجوه منها: الاستنصار بالقبائل، كقولهم في غزوة المريسيع: ياللمهاجرين يالالأنصار! فقال النبي ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية، فإنها منتنة**»[٢] ومنها الاستنان بسنتها، وقوله: «**فإنه من جثا جهنم**» يقال بالحاء المهملة من حثا إذا غرف وضم، ويقال من جثا بالجيم جمع جثوة، وهي الجماعة الذين سبق فيهم حكم اللّه بالنار، وذلك وعيد ينفذ فيمن يعتقد ذلك دينا، ومن أتاه وهو يعتقد أنه معصية كان في مشيئة اللّه إن شاء أن يعذبه فعل، وإن شاء أن يعفو عنه تفضل. وقوله: «**وإن صلى وصام**» يريد أن هذه الكبيرة لا توازيها الصلاة والصوم في الموازنة»[٣].

قال الطيبي: «قوله: «**بالجماعة**» المراد بهم الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعي التابعين من سلف الصحابة، أي آمركم بالتمسك بهديهم والانخراط في زمرتهم، والمراد بالسمع الإصغاء إلى الأوامر والنواهي وتفهمهما، وبالطاعة الامتثال بالأوامر والانزجار عن النواهي، وبالهجرة الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام. ويحتمل أنه ﷺ أراد بها ترك المعاصي، والرجوع عنها إلى الطاعات، كما قال ﷺ: «**والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**»[٤] والمراد بالجهاد الجهاد مع الكفار، ويحتمل أن يراد به الجهاد مع النفس بكفها عن شهواتها ومنعها عن لذاتها، فإن معاداة النفس مع الشخص أقوى وأضر من معاداة الكفرة معه»[٥].

وقال أيضا: «**«ومن دعا بدعوى الجاهلية»** عطف على الجملة التي وقعت مفسرة لضمير الشأن، للإيذان بأن التمسك بالجماعة وعدم الخروج عن زمرتهم من شأن المؤمنين، والخروج من زمرتهم من هجيري الجاهلية، كما قال صلوات اللّه عليه: «**من خلع يدا من طاعة لقي اللّه يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه**

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩٢-٣٩٣) والبخاري (٨/ ٨٣٦/ ٤٩٠٥) ومسلم (٤/ ١٩٩٨-١٩٩٩/ ٢٥٨٤(٦٣)) والترمذي (٥/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٣٣١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٩) كلهم من حديث جابر ابن عبد اللّه ﷺ.

(٣) عارضة الأحوذي (١٠/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٤) أخرجه من حديث فضالة بن عبيد ﷺ: أحمد (٦/ ٢١) وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨/ ٣٩٣٤) وابن حبان (١١/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٤٨٦٢ الإحسان) والحاكم (١/ ١٠-١١) وقال: «صحيح على شرطهما ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٥) شرح المشكاة (٨/ ٢٥٧٤).

بيعة مات ميتة جاهلية»[١] فعلى هذا ينبغي أن تفسر دعوى الجاهلية بسننها على الإطلاق، لأنها تدعو إليها، وهو أحد وجهي ما قال القاضي، والوجه الآخر أن الدعوى تطلق على الدعاء وهو النداء، والمعنى من نادى في الإسلام بنداء الجاهلية، وهو أن الرجل منهم إذا غلب عليه خصمه، نادى بأعلى صوته قومه: يا آل فلان! فيبتدرون إلى نصره ظالما كان أو مظلوما جهلا منهم وعصبية. وحاصل هذا الوجه يرجع أيضا إلى الوجه السابق، وينصره ما روي في شرح السنة في آخر هذا الحديث: «**فادعوا المسلمين بما سماهم اللّه المسلمون المؤمنون عباد الله**»»[٢].

وقال أيضا عند قوله ﷺ: «**قيد شبر**»: «شبه ذمة الإسلام وعهده بالربقة التي تجعل في أعناق البهائم، من حيث أنه يقيده فيمنعه أن يتخطى حدود اللّه ويرتع مراتع حرماته. والمعنى أن من فارق الجماعة بترك السنة وارتكاب البدعة ولو بشيء يسير، نقض عهد الإسلام ونزع اليد عن الطاعة»[٣].

* عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا**»[٤].

* عن أبي موسى الأشعري ﵁ أن النبي ﷺ بعثه ومعاذا إلى اليمن قال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[٥].

⋆ فوائد الحديثين:

تقدمت فوائدهما في سورة البقرة الآية (١٨٥).

* عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول اللّه ﷺ فقال: «**أيها الناس قد فرض اللّه عليكم الحج فحجوا**». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا. فقال رسول اللّه ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني**

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٣) ومسلم (٣/ ١٤٧٨/ ١٨٥١) من حديث عبد اللّه بن عمر ﵄.
(٢) شرح المشكاة (٨/ ٢٥٧٥).
(٣) شرح المشكاة (٨/ ٢٥٧٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣١و٢٠٩) والبخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٥) ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩/ ٥٨٩٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٢) والبخاري (٦/ ١٩٩/ ٣٠٣٨) ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٣).

ما تركتكم. فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير رسول اللَّه ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول اللَّه ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة اللَّه فينتقم بها لله[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «قول عائشة: (ما خير رسول اللَّه ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما). تعني أنه كان ﷺ إذا خيره أحد في شيئين يجوز له فعل كل واحد منهما، أو عرضت عليه مصلحتان، مال للأيسر منهما، وترك الأثقل أخذا بالسهولة لنفسه، وتعليما لأمته، فإذا كان في أحد الشيئين إثم تركه، وأخذ الآخر وإن كان الأثقل»[٣].

قال ابن بطال: «قولها: «**ما خير رسول اللَّه ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما**» يحتمل أن يكون هذا التخيير ليس من الله؛ لأن اللَّه لا يخير رسوله بين أمرين عليه في أحدهما إثم. فمعنى هذا الحديث: ما خير رسول اللَّه ﷺ أصحابه بين أن يختار لهم أمرين من أمور الدنيا على سبيل المشورة والإرشاد، إلا اختار لهم أيسر الأمرين، ما لم يكن عليهم في الأيسر إثم؛ لأن العباد غير معصومين من ارتكاب الإثم. ويحتمل أن يكون ما لم يكن إثما في أمور الدين، وذلك أن الغلو في الدين مذموم والتشديد فيه غير محمود لقوله ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين**»[٤].

فإذا أوجب الإنسان على نفسه شيئا شاقا عليه من العبادة فادحا له ثم لم يقدر

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٨) والبخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧) والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨) وابن ماجه (١/ ٣/ ٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٤) والبخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٦) و(٦/ ٧٠٢/ ٣٥٦٠) و(١٢/ ١٠٢/ ٦٧٨٦) ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧ [٧٧]) وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٠/ ٩١٦٣).

(٣) المفهم (٦/ ١١٨).

(٤) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٢١٥) والنسائي (٥/ ٢٩٦/ ٣٠٥٧) وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨/ ٣٠٢٩) وابن حبان (٩/ ١٨٣-١٨٤/ ٣٨٧١ الإحسان) والحاكم (١/ ٤٦٦) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

على التمادي فيه كان ذلك إثما، ولذلك نهى النبي ﷺ أصحابه عن الترهب»[1].

قال الحافظ: «وقوع التخيير بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه من قبل المخلوقين واضح، وأما من قبل اللَّه ففيه إشكال، لأن التخيير إنما يكون بين جائزين. لكن إذا حملناه على ما يفضي إلى الإثم أمكن ذلك، بأن يخيره بين أن يفتح عليه من كنوز الأرض ما يخشى من الاشتغال به أن لا يتفرغ للعبادة مثلا، وبين أن لا يؤتيه من الدنيا إلا الكفاف، فيختار الكفاف وإن كانت السعة أسهل منه. والإثم على هذا أمر نسبي لا يراد منه معنى الخطيئة لثبوت العصمة له»[2].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث أخذه ﷺ بأيسر الأمرين إذا خير بينهما وبعده ﷺ من الإثم. وهل هذا التخير على عمومه أعني تفضيله ﷺ الأيسر من الأمرين أم لا؟ والجواب أن أخذه ﷺ الأيسر من الأمرين إذا خير على العموم موجود بما استقري من سنته ﷺ، ويحتاج إلى تقسيم، لأنه لا يخلو أن يكون ما يخير فيه من أمور الدنيا أو أمور الآخرة، فإن كان من أمور الدنيا فاللفظ على عمومه، فما خير ﷺ بين شيئين من أمور الدنيا إلا أخذ أيسرهما..

وأما أمر الآخرة فما كان يختار فيه فيما يخصه ﷺ إلا الأرفع والأقرب إلى اللَّه تعالى، كما فعل ﷺ في تعبده الذي قام حتى تورمت قدماه فقيل له: يا رسول اللَّه تفعل ذلك واللَّه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[3] وإذا كان الأمر في حق أمته أخذ ﷺ لهم ما هو الأيسر والأقرب رحمة بهم، كما فعل ﷺ في قيام رمضان حين كثر الناس فقاموا معه فجعل يتخلف ثم قال لهم: «**إنما تخلفت لئلا يكتب عليكم فلا تطيقون**»[4] أو كما قال ﷺ، وكما فعل ﷺ معهم في شأن الوصال الذي كان ينهاهم عنه ويواصل ﷺ حتى كان يربط على

---

(١) شرح البخاري (٨/ ٤٠٥). (٢) الفتح (٦/ ٧١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٥) والبخاري (١١/ ٣٦٦/ ٦٤٧١) ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩) والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢) والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣) وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩) كلهم من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٢) والبخاري (١٣/ ٣٢٨/ ٧٢٩٠) ومسلم (١/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٧٨١) وأبو داود (٢/ ١٤٥/ ١٤٤٧) والنسائي (٣/ ٢١٩-٢٢٠/ ١٥٩٨). وأخرجه الترمذي (٢/ ٣١٢/ ٤٥٠) مختصرا. كلهم من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة، فقيل له: تنهانا عن الوصال وأنت تفعله؟ فقال: «إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[١] وكان ﷺ يقول لهم: «أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»[٢] والأحاديث في هذا الشأن كثيرة. فعلى هذا فيكون عاما فيما كان من أمور الدنيا، ويكون خاصا فيما كان من أمور الآخرة، وقد يحتمل أن يكون عاما في أمور الآخرة بوجه ما، وهو مثل أن يخير بين عملين أحدهما يكون في الوقت الوصول إليه قريب، والذي الوصول إليه أبعد يكون أرفع، فيختار الأيسر اعتناء منه ﷺ للطاعة والمبادرة للخدمة وخوف الفوت أنه لا يدرك الذي هو أرفع. فإن أدركه لم يتركه كما كان أبو بكر ﷺ يفعل في وتره، يقدمه أول الليل. وقد صح من السنة أن الأفضل في الوتر آخر الليل[٣]، فكان أبو بكر ﷺ فهم عن النبي ﷺ هذا الذي أشرنا إليه، فعمل عليه فأقره النبي ﷺ على ذلك وقال له: «أخذت بالحزم»[٤] وهي المبادرة»[٥].

قال ابن عبدالبر: «في هذا الحديث دليل على أن المرء ينبغي له ترك ما عسر عليه من أمور الدنيا والآخرة، وترك الإلحاح فيه، إذا لم يضطر إليه، والميل إلى اليسر أبدا، فإن اليسر في الأمور كلها أحب إلى الله وإلى رسوله، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٦]، وفي معنى هذا، الأخذ برخص الله تعالى، ورخص رسوله ﷺ، والأخذ برخص العلماء، ما لم يكن القول خطأ بينا»[٧].

قال النووي: «هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٢٥-١٢٦) والبخاري (٤/ ٢٥٣/ ١٩٦٤) ومسلم (٢/ ٧٧٦/ ١١٠٥) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٤٢/ ٣٢٦٦) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠) والبخاري (٤/ ٢٦٧-٢٦٨/ ١٩٧٠) ومسلم (٢/ ٨١١/ ٧٨٢) وأبو داود (٢/ ١٠١/ ١٣٦٨) والنسائي (٢/ ٤٠٢/ ٧٦١) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٠) ومسلم (١/ ٥٢٠/ ٧٥٥) من حديث جابر ﵁.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٩) وابن ماجه (١/ ٣٧٩/ ١٢٠٢) من حديث جابر ﵁. وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده حسن».

(٥) بهجة النفوس (٤/ ٦٢-٦٣).

(٦) البقرة: الآية (١٨٥).

(٧) فتح البر (١٠/ ٢٥٨).

الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه، والمقصود التنبيه على أصل ذلك وهذا الحديث موافق لقول اللَّه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[(١)] وأما قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[(٢)] ففيها مذهبان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

والثاني: وهو الصحيح أو الصواب وبه جزم المحققون أنها ليست منسوخة بل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسرة لها ومبينة للمراد بها قالوا: و ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو امتثال أمره واجتناب نهيه. ولم يأمر ﷺ إلا بالمستطاع. قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٣)]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ واللَّه أعلم»[(٤)].

قال الحافظ: «والمراد بهذا الأمر ترك السؤال عن شيء لم يقع خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالبا من التعنت، وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستثقل، فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة. قال ابن فرج: معنى قوله: «**ذروني ما تركتكم**» لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مفيدة لوجه ما ظهر ولو كانت صالحة لغيره، كما أن قوله: «**حجوا**» وإن كان صالحا للتكرار فينبغي أن يكتفى بما يصدق عليه اللفظ وهو المرة فإن الأصل عدم الزيادة، ولا تكثروا التنقيب عن ذلك لأنه يفضي إلى مثل ما وقع لبني إسرائيل، إذ أمروا أن يذبحوا البقرة، فلو ذبحوا أي بقرة كانت لامتثلوا، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، وبهذا تظهر مناسبة قوله: «**فإنما هلك من كان قبلكم**» إلى آخره بقوله: «**ذروني ما تركتكم**»»[(٥)].

قلت: العلاقة بين الخالق سبحانه والمخلوق علاقة رحيم بمرحوم، فلا أرحم

---

(١) التغابن: الآية (١٦).
(٢) آل عمران: الآية (١٠٢).
(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٤) شرح مسلم (٩/ ٨٦).
(٥) الفتح (١٣/ ٣٢٤).

منه -تبارك وتعالى-، فهو الرحمن وهو الذي كتب على نفسه الرحمة، فأنزل واحدة وادخر تسعة وتسعين جزءًا، وجعل أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- رحماء بالخلق، وأنزل كتبه كلها رحمة بخلقه، وجعل صحابة نبيه ﷺ رحماء، وجعل جنته رحمة للطائعين، وسن نبيه ﷺ افتتاح كل عمل بهذين الاسمين الرحمن والرحيم، فكل الأذكار متضمنة للرحمة، فيستحيل أن يكون في شريعته ما يتنافى مع أعظم أسمائه، فلهذا عَلَّم نبيه ﷺ أن تكون معظم دعوته في تصفية القلوب مما يخدش في منازعته في رحمته، ولا شك أن التوحيد عمود الرحمة، ومن حققه تحققت له الرحمة كاملة، ولهذا كانت عمود دعوة الأنبياء إليه والصادقين من عباده في كل عصر ومصر، فالعذاب كله في الشرك، وأي شعرة من شعرات الشرك تصيب بني آدم فهي عذاب عليهم في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الشرك كله أثقال وأغلال، وانحراف وضلال، ومن وقع فيه وقع في عذاب الدنيا قبل الآخرة، ولهذا وصف اللّٰه -تبارك وتعالى- الذي يقع فيه فكأنما يخر من السماء فيتمزق وتتشتت أوصاله، وتتخطفه الطير قبل أن يصل إلى الأرض.

والشرائع كلها جاءت لتكميل التوحيد والتعبير عنه بالعبادات القولية والفعلية، فلهذا نزلت العبادات في شريعة رسولنا ﷺ وعلمت فرضيتها تدريجيًّا، حيث استغرقت أكثر من نصف زمان النبوة، فجاءت متفاوتة في أزمانها، ومن درس الإسلام دراسة فاحصة في كلياته وجزئياته يجده طبقًا من ذهب في التيسير، وكل ما يمارسه المسلم من عبادات قولية أو فعلية فهي كلها خدمة لظاهره وباطنه، وهي عبارة عن مقومات يستفيد منها جسمه وتنشط بها روحه، فلهذا تجد الفرق الكبير واضحًا بين الكافر والمسلم، فتجد المسلم في غاية الطيبوبة والنور الظاهر والباطن، وتجد الخبث في ظاهر الكافر وباطنه، فاقدًا لمقومات الحياة، مشابهًا للحيوانات السائمة؛ بل هي أفضل منه وأنشط منه، فما ذكره علماؤنا من صور للتيسير في الإسلام ورفع للحرج إنما هو قطرة من بحر، فلو علم العقلاء من الكفار ما للإسلام من أهمية في حياة الإنسان لجالدونا عليه بالسيوف، ولسبقوا إليه وجعلوه لباسهم الظاهري والباطني. ولكن كما مر في هذه السورة المباركة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]. اللهم بصرنا بمحاسن ديننا،

(١) الحج: الآية (٤٦).

وحببه إلينا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، فأنت الرحيم بنا، والمتفضل بهدايتنا، وكل نعمة فهي منك وإليك وأنت صاحبها، فالخير خيرك، والفضل فضلك، فلا تكلنا إلى غيرك، فمن وكل إلى غيرك حرم الخير كله. واللَّه أعلم.

قال المراغي: «خلاصة ما تضمنته السورة من الحكم والأحكام:

١- وصف حال يوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال تشيب منها الولدان.

٢- جدال عبدة الأصنام والأوثان بلا حجة ولا برهان.

٣- إثبات البعث وإقامة الأدلة عليه.

٤- وصف المنافقين المذبذبين في دينهم وعدم ثباتهم على حال واحدة.

٥- ما أعد اللَّه لعباده المؤمنين من الثواب المقيم في جنات النعيم.

٦- بيان أن اللَّه ناصر نبيه ومظهر دينه على سائر الأديان.

٧- بيان أن اللَّه يحكم يوم القيامة بين عباده من أرباب الديانات المختلفة ويجازي كلا بما يستحق.

٨- إقامة الأدلة على وجود خالق السماوات والأرض، وبيان أن العالم كله خاضع لقدرته.

٩- أمر المؤمنين بقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، وبيان أن هذا القتال لا بد منه لنصرة الحق في كل زمان ومكان، وأن اللَّه ينصر من يدافع عنه.

١٠- تسلية الرسول على ما يناله من أذى قومه وأنهم ليسوا بدعا في الأمم، فكثير ممن قبلهم كذبوا رسلهم ثم كانت العاقبة للمتقين، وأهلك اللَّه القوم الظالمين، والعبرة ماثلة أمامهم في حلهم وترحالهم.

١١- بيان أن المفسدين يلقون الشبهات على الحق ليزلزلوا عقائد المؤمنين، لكنها لا تلبث أن تزول وينكشف نور الحق ويزيل ظلام الباطل.

١٢- الثواب على الهجرة لله ورسوله سواء قتل المهاجر أو مات.

١٣- وصف حال الكافرين إذا تلي عليهم القرآن، بما يظهر على وجوههم من أمارات الغضب.

١٤- بيان أن اللَّه يرسل رسلا من الملائكة ورسلا من البشر، وأن اللَّه عليم بمن

يصلح لهذه الرسالة.

١٥- أمر المؤمنين بدوام الصلاة والزكاة وفعل الخيرات والجهاد حق الجهاد في سبيل الحق.

١٦- بيان أن الدين يسر لا عسر، وأنه كملة إبراهيم سمح لا شدة فيه.

١٧- بيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة، وأن هذه الأمة تشهد على الأمم السالفة بأن رسلهم قد بلغوهم شرائع اللّه وما قصروا في ذلك.

اللهم ألهمنا الحق، واهدنا سبيل الرشاد، وتقبل أعمالنا إنك أنت السميع المجيب»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٧/ ١٥٠-١٥٢).



سورة المؤمنون

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية، وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه. فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك. وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد اللَّه تعالى بالإلهية، لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته، ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات، وأن اللَّه لم يخلق الخلق سدى ولعبا. وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة اللَّه تعالى، وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات اللَّه تعالى، التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات، وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل، ومن تسخير المنافع للناس، وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر، وورد ذكر الحمل على الفلك، فكان منه تخلص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان. وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح، وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق وما كان من عقاب المكذبين، وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد ﷺ، فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا، وبتنبيه المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة،

وكلمتهم واحدة، فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة، وقد أراهم اللَّه مخائل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد، فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم، وذكروا بأنهم يقرون إذا سئلوا بأن اللَّه مفرد بالربوبية، ولا يجرون على مقتضى إقرارهم، وأنهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموت وفي يوم القيامة، وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته، ونصحه المجرد عن طلب المنفعة لنفسه إلا ثواب اللَّه، فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة، ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق، وما تخلل ذلك من جوامع الكلم، وختمت بأمر النبي ﷺ أن يغض عن سوء معاملتهم، ويدفعها بالتي هي أحسن، ويسأل المغفرة للمؤمنين، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز قطع القراءة ببعض السورة

* عن عبد اللَّه بن السائب صلى لنا رسول اللَّه ﷺ الصبح بمكة. فاستفتح سورة المؤمنين. حتى جاء ذكر موسى وهارون. أو ذكر عيسى (محمد بن عباد يشك أو اختلفوا عليه) أخذت النبي ﷺ سعلة. فركع. وعبد اللَّه بن السائب حاضر ذلك[٢].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «في الحديث جواز قطع القراءة ببعض السورة، وهذا جائز بلا خلاف ولا كراهية فيه إن كان القطع لعذر، وإن لم يكن له عذر فلا كراهة فيه أيضا، ولكنه خلاف الأولى، هذا مذهبنا ومذهب الجمهور، وبه قال مالك -رحمه الله تعالى- في رواية عنه، والمشهور عنه كراهته»[٣].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٦-٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١١) والبخاري تعليقا (٢/ ٣٢٤) ومسلم (١/ ٣٣٦/ ٤٥٥) واللفظ له، وأبو داود (١/ ٤٢٦/ ٦٤٩) والنسائي (٢/ ٥١٧/ ١٠٠٦) وابن ماجه (١/ ٢٦٩/ ٨٢٠).

(٣) شرح مسلم للنووي (٤/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا تنويه من اللّه، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي: شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصا، كثرة وقلة»[١].

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ قد أدرك الذين صدقوا اللّه ورسوله محمدا ﷺ، وأقروا بما جاءهم به من عند اللّه، وعملوا بما دعاهم إليه مما سمى في هذه الآيات الخلود في جنات ربهم، وفازوا بطلبتهم لديه»[٢].

قال الشنقيطي: «وفلاح المؤمنين مذكور ذكرا كثيرا في القرآن كقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾[٣].. واعلم أن معنى أفلح: نال الفلاح، والفلاح يطلق في لغة العرب على معنيين:

الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر، ومنه قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

أي فاز من رزق العقل بالمطلوب الأكبر.

والثاني: هو إطلاق الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، ومنه قول لبيد أيضا في رجز له:

لو أن حيا مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٧).

(٢) جامع البيان (١٨/ ١).

(٣) الأحزاب: الآية (٤٧).

يعني مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع:

لكل هم من الهموم سعه والمسى والصبح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه، ولا شك أن من اتصف بهذه الصفات التي ذكرها اللَّه في أول هذه السورة الكريمة دخل الجنة كما هو مصرح به في الآيات المذكورة، وأن من دخل الجنة نال الفلاح بمعنييه المذكورين، والمعنيان اللذان ذكرنا للفلاح بكل واحد منهما، فسر بعض العلماء حديث الأذان والإقامة في لفظة: حي على الفلاح»[1].

قال ابن عاشور: «﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم، فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه. ولما كانت همة المؤمنين منصرفة إلى تمكن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم، كان ذلك إعلاما بأنهم نجحوا فيما تعلقت به هممهم من خير الآخرة، وللحق من خير الدنيا، ويتضمن بشارة برضى اللَّه عنهم، ووعدا بأن اللَّه مكمل لهم مايتطلبونه من خير. وأكد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي: التوكيد. فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الاسمية أي يفيد توكيدا قويا.

ووجه التوكيد هنا أن المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، فكانوا لا يعرفون تحقق أنهم أتوا بما أرضى ربهم، ويخافون أن يكونوا فرطوا في أسبابه، وما علق عليه وعده إياهم، بله أن يعرفوا اقتراب ذلك، فلما أخبروا بأن ما ترجوه قد حصل، حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقق. فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله. ولعل منه: «**قد قامت الصلاة**»[3] إشارة إلى رغبة المصلين في حلول وقت

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٧٥٥-٧٥٧). (٢) الحج: الآية (٧٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٥) وأبو داود (١/ ٣٥٠/ ٥١٠) والنسائي (١/ ٣٣/ ٦٢٧) وفي الكبرى (١/ ٤٩٥-٤٩٦/ ١٥٩٣) وابن خزيمة (١/ ١٩٣-١٩٤/ ٣٧٤) وابن حبان (٤/ ٥٦٥-٥٦٦/ ١٦٧٤) والحاكم (١/ ١٩٧-١٩٨) وصححه ووافقه الذهبي.

الصلاة، وقد قال النبي ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»[1]، وشأن المؤمنين التشوق إلى عبادتهم، كما يشاهد في تشوق كثير إلى قيام رمضان. وحذف المتعلق للإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحا كاملا، والفلاح: الظفر بالمطلوب من عمل العامل.. ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح، فإن الإيمان وصف جامع للكمال لتفرع جميع الكمالات عليه»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦٦) وأبو داود (٥/ ٢٦٢/ ٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود.
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٨).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها، وقيل: إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنهوا بهذه الآية عن ذلك.. واختلف أهل التأويل في الذي عنى به في هذا الموضع من الخشوع، فقال بعضهم: عنى به: سكون الأطراف في الصلاة.. وقال آخرون: عنى به الخوف في هذا الموضع.. وقد بينا فيما مضى قبل من كتابنا أن الخشوع: التذلل والخضوع بما أغنى من إعادته في هذا الموضع، وإذ كان ذلك كذلك ولم يكن الله -تعالى ذكره- دل على أن مراده من ذلك معنى دون معنى في عقل ولا خبر، كان معلوما أن معنى مراده من ذلك العموم، وإذ كان ذلك كذلك فتأويل الكلام ما وصفت من قبل من أنه: والذين هم في صلاتهم متذللون لله بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته، وإذا تذلل لله فيها العبد رؤيت ذلة خضوعه في سكون أطرافه، وشغله بفرضه، وتركه ما أمر بتركه فيها»[1].

قال ابن العربي: «الخشوع هو الخضوع، وهو الإخبات، والاستكانة، وهي ألفاظ مترادفة أو متقاربة، أو متلازمة.. وحقيقته السكون على حالة الإقبال التي تأهب لها واحترم بها بالسر في الضمير، وبالجوارح في الظاهر؛ فقد كان النبي ﷺ لا يلتفت في صلاته خاشعا خاضعا، وكذلك كان أبو بكر لا يلتفت، وكذلك كان حفيده عبد الله بن الزبير.

قال ابن المنكدر لعروة: لو رأيت قيام ابن الزبير -يعني أخاه عبد الله- في الصلاة لقلت: غصن تصفقه الرياح، وحجارة المنجنيق تقع هاهنا، ورضف عن

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١-٣).

يمينه وعن يساره وهو قائم يصلي.

وقال مجاهد: كان ابن الزبير إذا قام يصلي كأنه عود من الخشوع.

وقال عمرو بن دينار: إن ابن الزبير كان يصلي في الحجر مرخيا ثيابه.

فجاء حجر الخذاف، فذهب بطائفة من ثوبه، فما التفت، وكذلك كان عبد اللَّه بن مسعود إذا صلى لا يتحرك منه شيء؛ ومن هاهنا قال العلماء: . . إنه يضع بصره في موضع سجوده؛ وبه قال الشافعي والصوفية بأسرهم، فإنه أحضر لقلبه، وأجمع لفكره.

قال مالك: إنما ينظر أمامه، فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المنقوض عليه في الرأس، وهو أشرف الأعضاء منه، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقة عظيمة وحرج، يعرفون ذلك بالتجربة، وما جعل علينا في الدين من حرج؛ وإنما أمرنا أن نستقبل الجهة ببصائرنا وأبصارنا، أما إنه أفضل لمن قدر عليه متى قدر وكيف قدر، وإنما الممنوع أن يرفع بصره في الصلاة إلى السماء، فإنه لم يؤمر أن يستقبل السماء، وإنما أمر أن يستقبل الجهة الكعبية، فإذا رفع بصره فهو إعراض عن الجهة التي أمر بها، حتى قال النبي ﷺ: «**لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لتخطفن أبصارهم**»[1]. . حتى قال علماؤنا حين رأوا عامة الخلق يرفعون أبصارهم إلى السماء وهي سالمة: إن المراد بالخطف هاهنا أخذها عن الاعتبار حين يمر بآيات السماء والأرض، وهو معرض، وذلك أشد الخطف، ومن الحنيفية السمحة برفع الحرج الإذن في أن يلحظ يمينا وشمالا، وإن كان يصلي ببصره ورأسه دون بدنه، أذن الشرع فيه. . ونكتة المسألة أن قولك: (اللَّه أكبر) يحرم عليك الأفعال بالجوار، والكلام باللسان؛ ونية الصلاة تحرم عليك الخواطر بالقلب، والاسترسال عن الأفكار، إلا أن الشرع لما علم أن ضبط النشر من السر يفوت طوق البشر سمح فيه، كما تقدم بياننا له. واللَّه أعلم»[2].

قال ابن كثير: «والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ،

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٣٠٧-١٣٠٩).

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**حبب إلي الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن رجل من أسلم، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يا بلال، أرحنا بالصلاة**»[2]»[3].

قال ابن عاشور: «وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، وخاصة إذا كان في حال الصلاة؛ لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة، ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته. وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته، ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة؛ لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له، وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى، وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها، ولهذا الاعتبار قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين، وجعل مواليا للإيمان، فقد حصل الثناء عليهم بوصفين. وتقديم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ على ﴿خَٰشِعُونَ﴾ للاهتمام بالصلاة للإيذان بأن لهم تعلقا شديدا بالصلاة؛ لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه؛ لأنها على معنى لام الاختصاص. فلو قيل: الذين إذا صلوا خشعوا فات هذا المعنى، وأيضا لم يتأت وصفهم بكونهم خاشعين إلا بواسطة كلمة أخرى نحو: كانوا خاشعين. وإلا يفت ما تدل عليه الجملة الاسمية من ثبات الخشوع لهم ودوامه، أي: كون الخشوع خلقا لهم بخلاف نحو: الذين خشعوا، فحصل الإيجاز ولم يفت الإعجاز»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهمية الخشوع في الصلاة

* عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ قال:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٧٢/ ٣٩٤٩) وصححه الحاكم (٢/ ١٢٠) ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ١١٦).

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٩-١٠).

(الخشوع في القلب وأن تلين كتفك للمرء المسلم وأن لا تلتفت في صلاتك)[١].

* عن عائشة قالت: سألت رسول اللَّه ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[٢].

* عن جبير بن نفير عن عوف بن مالك أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول اللَّه ذات يوم فنظر في السماء ثم قال: «هذا أوان العلم أن يرفع» فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: أيرفع العلم يا رسول اللَّه، وفينا كتاب اللَّه، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن كنت لأظنك من أفقه أهل المدينة»، ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب اللَّه ﷻ. فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلى، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال: صدق عوف. ثم قال: وهل تدري ما رفع العلم؟ قال: قلت: لا أدري. قال: ذهاب أوعيته. قال: وهل تدري أي العلم أول أن يرفع؟ قال: قلت: لا أدري. قال: الخشوع، حتى لا تكاد ترى خاشعا»[٣].

* عن حذيفة ﷺ قال: (أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، وليصلين النساء وهن حيض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم ولا يخطأنكم حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا إنما قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[٤] لا تصلوا إلا ثلاثا. وتقول الأخرى: إيمان المؤمنين باللَّه كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق حق على اللَّه أن يحشرهما مع

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٩٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٦) والبخاري (٢/ ٢٩٧/ ٧٥١) وأبو داود (١/ ٥٦٠/ ٩١٠) والترمذي (٢/ ٤٨٤/ ٥٩٠) وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٣/ ١٢/ ١١٩٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) والحاكم (١/ ٩٩) وقال: «هذا صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته والشاهد لذلك فيه شداد بن أوس فقد سمع جبير بن نفير الحديث منهما جميعا ومن ثالث من الصحابة وهو أبو الدرداء»، ووافقه الذهبي. قال الشيخ ناصر في المشكاة (١/ ٨١): «وسنده صحيح». وانظر تفصيل الكلام عن هذا الحديث في تفسيرنا: للآية (٦٦) من سورة المائدة.

(٤) هود: الآية (١١٤).

الدجال)[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القرطبي: «اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين، والصحيح الأول ومحله القلب وهو أول علم يرفع»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الخشوع يتضمن معنيين:

أحدهما: التواضع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضا، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا، وهذا: التواضع، والسكون، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ قال: مخبتون أذلاء. وعن الحسن وقتادة: خائفون. وعن مقاتل: متواضعون. وعن علي: الخشوع في القلب، وأن تلين للمرء المسلم كنفك، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا. وقال مجاهد: غض البصر وخفض الجناح. وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يشد بصره، أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا.

وعن عمرو بن دينار: ليس الخشوع الركوع والسجود، ولكنه السكون وحب حسن الهيئة في الصلاة. وعن ابن سيرين وغيره: كان النبي ﷺ وأصحابه يرفعون أبصارهم في الصلاة إلى السماء، وينظرون يمينا وشمالا حتى نزلت هذه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ الآية. فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون، وما رؤي أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض. وعن عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك وأنت في الصلاة..

و(خشوع الجسد) تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرائيا يظهر ما ليس في

---

(١) أخرجه: الحاكم (٤/ ٤٦٩) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠/ ٣٤٨٠٨) مختصرا.

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٧٠).

قلبه. . وهو أن يري الجسد خاشعا والقلب خاليا لاهيا. فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1] فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا.

وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]. والذين يخشون ربهم، هم الذين إذا ذكر اللّه تعالى وجلت قلوبهم.

فإن قيل: فخشوع القلب لذكر اللّه وما نزل من الحق واجب، قيل: نعم، لكن الناس فيه على قسمين: (مقتصد) و(سابق) فالسابقون يختصون بالمستحبات والمقتصدون الأبرار: هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة، ومن لم يكن من هؤلاء، ولا هؤلاء: فهو ظالم لنفسه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع**»[3].

وقد ذم اللّه قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع. فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[4]»[5].

قال ابن بطال: «الالتفات في الصلاة مكروه عند العلماء، وذلك أنه إذا أومأ ببصره وثنى عنقه يمينا وشمالا ترك الإقبال على صلاته، ومن فعل ذلك فقد فارق الخشوع المأمور به في الصلاة، ولذلك جعله النبي اختلاسا للشيطان من الصلاة، وأما إذا التفت لأمر يعن له من أمر الصلاة أو غيرها فمباح له ذلك وليس من الشيطان.واللّه أعلم»[6].

وقال ابن حجر: «والمراد بالالتفات المذكور ما لم يستدبر القبلة بصدره أو عنقه

---

(١) الحديد: الآية (١٦).
(٢) الزمر: الآية (٢٣).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧١) ومسلم (٤/ ٢٠٨٨/ ٢٧٢٢) والترمذي (٥/ ٥٢٨/ ٣٥٧٢) مختصرا، والنسائي (٨/ ٦٥٣/ ٥٤٧٣) من حديث زيد بن أرقم.
(٤) البقرة: الآية (٧٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨-٣٠).
(٦) شرح ابن بطال (٢/ ٣٦٥).

كله، وسبب كراهة الالتفات يحتمل أن يكون لنقص الخشوع، أو لترك استقبال القبلة ببعض بدنه»[١].

قوله: «هو اختلاس» قال الحافظ: «هو اختطاف بسرعة، ووقع في النهاية: والاختلاس افتعال من الخلسة وهي ما يؤخذ سلبا مكابرة، وفيه نظر.

وقال غيره: المختلس الذي يختطف من غير غلبة ويهرب ولو مع معاينة المالك له، والناهب يأخذ بقوة، والسارق يأخذ في خفية. فلما كان الشيطان قد يشغل المصلي عن صلاته بالالتفات إلى شيء ما بغير حجة يقيمها أشبه المختلس»[٢].

قال ابن بطال: «وقال المهلب: قوله: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**» هو حض على إحضار المصلي ذهنه ونيته لمناجاة ربه، ولا يشتغل بأمر دنياه، وذلك أن العبد لا يستطيع أن يخلص صلاته من الفكر في أمور دنياه، لأن الرسول قد أخبر أن الشيطان يأتي إليه في صلاته، فيقول له: «**اذكر كذا اذكر كذا**»[٣]. لأنه موكل به في ذلك، وقد قال ﷺ: «**من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له**»[٤] وهذا لمغالبته الإنسان، فمن جاهد شيطانه ونفسه وجبت له الجنة، وقد نظر ﷺ إلى أعلام الخميصة وقال: «**إنها شغلتني**»[٥]، فهذا مما لا يستطاع على دفعه في الأعم»[٦].

قال ابن القيم: «الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله ﷻ إلى غير الله تعالى.

الثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه، ولا يزال الله مقبلا على عبده ما دام العبد مقبلا على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه، وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان**

---

(١) الفتح (٢/ ٢٩٨).

(٢) الفتح (٢/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٠) والبخاري (٢/ ١٠٨/ ٦٠٨) ومسلم (١/ ٢٩١-٢٩٢/ ٣٨٩) وأبو داود (١/ ٣٥٥/ ٥١٦) والنسائي (٢/ ٣٥٠-٣٥١/ ٦٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٥٩) والبخاري (١/ ٣٤٤/ ١٥٩) ومسلم (١/ ٢٠٤-٢٠٥/ ٢٢٦) وأبو داود (١/ ٧٨-٧٩/ ١٠٦) والنسائي (١/ ٦٩/ ٨٥) وابن ماجه (١/ ١٠٥/ ٢٨٥) من حديث عثمان بن عفان.

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) شرح ابن بطال (٢/ ٣٦٥).

من صلاة العبد» . . ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه، مثل رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينا وشمالا، وقد انصرف قلبه عن السلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضرا معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتا مبعدا قد سقط من عينيه؟فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على اللَّه تعالى في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره، أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل على اللَّه ﷻ، والآخر ساه غافل.

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله، وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالا ولا تقريبا، فما الظن بالخالق ﷻ؟ وإذا أقبل على الخالق ﷻ وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفة بها ملأى منها فكيف يكون ذلك إقبالا، وقد ألهته الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله، حتى يهون عليه شأن الصلاة فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عدو اللَّه تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة، وأيس منها، فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن اللَّه ﷻ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال اللَّه تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه ﷻ الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي اللَّه تعالى بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطا وراحة وروحا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينه ونعيم

روحه، وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها لا منها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»(١)، ولم يقل أرحنا منها، وقال ﷺ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»(٢) فمن جعلت قرة عينه في الصلاة كيف تقر عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها؟ فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرة عينه في الصلاة هي التي تصعد ولها نور وبرهان، حتى يستقبل بها الرحمن ﷻ، فتقول حفظك اللَّه تعالى كما حفظتني، وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها، فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق، ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول ضيعك اللَّه كما ضيعتني. فالصلاة المقبولة والعمل المقبول أن يصلي العبد صلاة تليق بربه ﷻ، فإذا كانت صلاة تصلح لربه تبارك وتعالى وتليق به، كانت مقبولة، والمقبول من العمل قسمان:

أحدهما: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات، وقلبه متعلق باللَّه ﷻ، ذاكر لله ﷻ على الدوام، فأعمال هذا العبد تعرض على اللَّه ﷻ حتى تقف قبالته، فينظر اللَّه ﷻ إليها، فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية، وقد صدرت عن قلب سليم مخلص محب لله ﷻ، متقرب إليه، أحبها ورضيها وقبلها. والقسم الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة، وينوي بها الطاعة والتقرب إلى اللَّه، فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاه عن ذكر اللَّه، وكذلك سائر أعماله، فإذا رفعت أعمال هذا إلى اللَّه ﷻ لم تقف تجاهه، ولا يقع نظره عليها، ولكن توضع حيث توضع دواوين الأعمال حتى تعرض عليه يوم القيامه فتميز، فيثيبه على ما كان له منها، ويرد عليه ما لم يرد وجهه به منها، فهذا قبوله لهذا العمل إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين، وإثابة الأول رضا العمل لنفسه ورضاه عن معاملة عامله وتقريبه منه، وإعلاء درجته ومنزلته، فهذا يعطيه بغير حساب، فهذا لون والأول لون، والناس في الصلاة على مراتب خمسة: أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٧٢/ ٣٩٤٩) وصححه الحاكم (٢/ ١٢٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ١١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

ومواقيتها وحدودها وأركانها .

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار .

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها ، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته ، فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها ، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئا منها ، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي ، وإكمالها وإتمامها ، قد استغرق قلب شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ ، ناظرا بقلبه إليه مراقبا له ممتلئا من محبته وعظمته ، كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه ، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض ، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به .

فالقسم الأول معاقب ، والثاني محاسب ، والثالث مكفر عنه ، والرابع مثاب ، والخامس مقرب من ربه ؛ لأن له نصيبا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة ، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة ، وقرت عينه أيضا به في الدنيا ، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . . وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة ، واشتغاله فيها بربه ﷻ إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعدا تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار؟

والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الإيمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه ، لأنه قد اتخذه بيتا ووطنا ، وتحكم فيه بما يريد ، وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثاني : قلب قد استنار بنور الإيمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة

الشهوات، وعواصف الأهوية، فللشيطان هنالك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في قلبه إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة اللَّه تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئا إلا على غرة وغفلة وخطفة. وقد مثل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وجواهره، وليس جواهر الملك وذخائره، وبيت خال صفر لا شيء فيه، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق؟ فإن قلت من البيت الخالي كان محالا، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لابن عباس ﵄: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟ وإن قلت: يسرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس واليزك وما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه؟ وكيف يستطيع اللص الدنو منه، وحوله من الحرس والجند ما حوله؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث، فهو الذي يشن عليه الغارات. فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، ولينزله على القلوب فإنها على منواله.

فقلب خلا من الخير كله، وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك بيت الشيطان، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكنا ومستقرا، فأي شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه.

وقلب قد امتلأ من جلال اللَّه ﷿ وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه، فأي شيطان يجترئ على هذا القلب؟ وإن أراد سرقة شيء منه فماذا يسرق، وغايته أن

يظفر في الأحايين منه بخطفة ونهبة يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد له منها إذ هو بشر، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع . . وقلب فيه توحيد اللَّه تعالى ومعرفته ومحبته، والإيمان به والتصديق بوعده ووعيده، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعي الهوى والطبع، وقلب بين هذين الداعيين: فمرة يميل بقلبه داعي الإيمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده، ومرة يميل بقلبه داعي الشيطان والهوى والطباع، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع، وله منه منازلات ووقائع، ويعطي اللَّه النصر من يشاء ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[١] وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه، فيدخل إليه الشيطان فيجد سلاحه عنده، فيأخذه ويقاتله، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأماني الكاذبة؛ وهي في القلب، فيدخل الشيطان فيجدها عنده فيأخذها ويصول بها على القلب، فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها انتصف من الشيطان، وإلا فالدولة لعدوه عليه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، فإذا أذن العبد لعدوه، وفتح له باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم.

فنفسك لم ولا تلم المطايا ... ومت كمدا فليس لك اعتذار»[٢].

* عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم»**[٣].

* عن أنس بن مالك حدثهم قال: قال النبي ﷺ: **«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم؟ فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم»**[٤].

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: (لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم)[٥].

---

(١) آل عمران: الآية (١٢٦).
(٢) الوابل الصيب (ص٤٩-٦١).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/١٠٨) ومسلم (١/ ٣٢١/ ٤٢٨) وابن ماجه (١/ ٣٣٢/ ١٠٤٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٠) والبخاري (٢/ ٢٩٦/ ٧٥٠) وأبو داود (١/ ٥٦١-٥٦٢/ ٩١٣) والنسائي (٣/ ١١/ ١١٩٢) وابن ماجه (١/ ٣٣٢/ ١٠٤٤).
(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة (٢/ ٤٨/ ٦٣١٩)، ويشهد له ما تقدم في الصحيحين.

* عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (أما يخشى أحدكم إذا رفع بصره إلى السماء أن لا يرجع إليه بصره يعني وهو في الصلاة)[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال النووي: «فيه -أي الحديث- النهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك وقد نقل الإجماع في النهي عن ذلك»[٢].

وقال ابن رجب: «والمعنى في كراهة ذلك -أي رفع الأبصار- خشوع المصلي وخفض بصره، ونظره إلى محل سجوده، فإنه واقف بين يدي اللَّه ﷻ يناجيه، فينبغي أن يكون منكسا رأسه مطرقا إلى الأرض»[٣].

قوله: «**أولا ترجع إليهم**» وفي رواية: «**أو لتخطفن أبصارهم**».

قال الحافظ: «واختلف في المراد بذلك: فقيل هو وعيد، وعلى هذا فالفعل المذكور حرام، وأفرط ابن حزم فقال: يبطل الصلاة. وقيل المعنى أنه يخشى على الأبصار من الأنوار التي تنزل بها الملائكة على المصلين».

وقال: «و(أو) هنا للتخيير نظير قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾[٤] أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة وإما الإسلام، وهو خبر في معنى الأمر»[٥].

* عن عائشة أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «**اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي**».

وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: قال النبي ﷺ: «**كنت أنظر إلى علمها وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتنني**»[٦].

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٢/ ٤٨/ ٦٣١٨)، ويشهد له ما تقدم في الصحيحين.

(٢) شرح مسلم (٤/ ١٢٧).

(٣) الفتح (٦/ ٤٤٢).

(٤) الفتح: الآية (١٦).

(٥) الفتح (٢/ ٢٩٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٧) والبخاري (١/ ٦٣٦/ ٣٧٣) ومسلم (١/ ٣٩١/ ٥٥٦) وأبو داود (١/ ٥٦٢/ ٩١٤) والنسائي (٢/ ٤٠٦-٤٠٧/ ٧٧٠) وابن ماجه (٢/ ١١٧٦/ ٣٥٥٠).

★ **غريب الحديث:**

خميصة: بفتح المعجمة وكسر الميم وبالصاد المهملة كساء مربع له علمان.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «قال ابن عيينة إنما رد رسول اللَّه ﷺ الخميصة إلى أبي جهم، لأنه كرهها إذ كانت سبب غفلة وشغل عن ذكر اللَّه، كما فعل في الموضع الذي نام فيه عن الصلاة لما نال فيه الشيطان منهم من الغفلة؛ قال: ولم يكن رسول اللَّه ﷺ ليبعث إلى أبي جهم بشيء يكرهه لنفسه.. وكان رسول اللَّه ﷺ أوقى خلق اللَّه على أمر اللَّه، وعلى رد كل وسوسة؛ ولكنه كرهها وأبغضها، إذ كانت سبب الغفلة عن الذكر؛ هذا معنى قول ابن عيينة في سؤال نعيم بن حماد له عن ذلك، حدثناه جماعة عن عبد اللَّه بن عثمان، عن سعد بن معاذ، عن ابن أبي مريم، عن نعيم عنه»[1].

وقال: «وفيه دليل على أن الالتفات في الصلاة والنظر إلى ما يشغل الإنسان عنها، لا يفسدها إذا تمت بحدودها من ركوعها وسجودها، وسائر فرائضها؛ لأن رسول اللَّه ﷺ إذ نظر إلى أعلام خميصة أبي جهم، واشتغل بها، لم يعد صلاته»[2].

قلت: ومما تقدم من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء وتوجيهاتهم، ولاسيما الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم؛ تتضح أهمية الخشوع في الصلاة، وهو روحها وحياتها، وخشوع الرجل في صلاته دليل على كمال صدقه في هذه العبادة، ومما يؤسف له أن هذه الصفة العظيمة أصبحت مفقودة في كثير من أهل هذه الأزمان شرقًا وغربًا، حتى في العلماء الذين يظن بهم الالتزام بهذه الصفة؛ فإنهم يضيعونها، فترى المصلي منشغلًا بإصلاح ثيابه تارة، وبالنظر إلى ساعته تارة أخرى وكأنه غير داخل في الصلاة! وأنواع العبث في الصلاة لا تحصى. وكثير من المفارش التي صممت في الوقت الحاضر مذهبة للخشوع، وعوارض الخشوع في هذه العصور كثيرة، نسأل اللَّه العافية وأن يمنّ علينا بالخشوع.

* * *

---

(١) فتح البر (٤/ ٤٤٦).

(٢) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «وفي اللغو أقوال:

أحدها: أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة.

وثانيها: أنه عبارة عن كل ما كان حراما فقط، وهذا التفسير أخص من الأول.

وثالثها: أنه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة، وهذا أخص من الثاني.

ورابعها: أنه المباح الذي لا حاجة إليه، واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[1] فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغوا بما أنه يلغى، وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو، فوجب أن يكون كل حرام لغوا، ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾[2] وقد يكون كذبا لقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾[3] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾[4] ثم إنه ﷻ مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو، والإعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[5].

واعلم أنه ﷻ لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم»[6].

---

(١) المائدة: الآية (٨٩).
(٢) فصلت: الآية (٢٦).
(٣) الغاشية: الآية (١١).
(٤) الواقعة: الآية (٢٥).
(٥) الفرقان: الآية (٧٢).
(٦) التفسير الكبير (٢٣/ ٨٠).

قال ابن عاشور: «الإعراض: الصد أي عدم الإقبال على الشيء من العرض بضم العين وهو الجانب؛ لأن من يترك الشيء يوليه جانبه ولا يقبل عليه، فيشمل الإعراض إعراض السمع عن اللغو. وتقدم عند قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[(١)] في سورة النساء، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[(٢)] في سورة الأنعام، وأهمه الإعراض عن لغو المشركين عند سماع القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[(٤)]. ويشمل الإعراض عن اللغو بالألسنة أي: أن يلغوا في كلامهم. وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأن الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع؛ لأن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل، ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور. وفي الحديث: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم**»[(٥)]. والإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد، ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة، فالجد في الأمور من خلق الإسلام، كما أفصح عن ذلك قول أبي خراش الهذلي بذكر الإسلام:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

والإعراض عنه يقتضي بالأولى اجتناب قول اللغو، ويقتضي تجنب مجالس أهله.

واعلم أن هذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض الناس، وهم الطبقة غير المحترمة؛ لأن أهل اللغو ليسوا بمرتبة التوقير، فالإعراض عن لغوهم ربء عن التسفل معهم»[(٦)].

---

(١) النساء: الآية (٦٣).
(٢) الأنعام: الآية (٦٨).
(٣) فصلت: الآية (٢٦).
(٤) الفرقان: الآية (٧٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤) والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٨) ومسلم (٤/ ٩٢٢/ ٨٨٩٢) والترمذي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٢٣١٤) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧٠) من حديث أبي هريرة.
(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ١١).

قال ابن عطية: «واللغو سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه، وكأن الآية فيها موادعة»[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه. وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة»[1].

قال الشنقيطي: «في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم.

أحدهما: أن المراد بها زكاة الأموال، وعزاه ابن كثير للأكثرين.

الثاني: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس أي تطهيرها من الشرك، والمعاصي بالإيمان بالله، وطاعته وطاعة رسله -عليهم الصلاة والسلام-، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[2] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾[3] الآية. وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[4] وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾[5] الآية، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾[6] على أحد التفسيرين. وقد يستدل لهذا القول الأخير بثلاث قرائن.

الأولى: أن هذه السورة مكية، بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم. فدل على أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة، فدل على أن المراد به غيرها.

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٢٤).
(٢) الشمس: الآيتان (٩و١٠).
(٣) الأعلى: الآية (١٤).
(٤) النور: الآية (٢١).
(٥) الكهف: الآية (٨١).
(٦) فصلت: الآيتان (٦و٧).

القرينة الثانية: هي أن المعروف في زكاة الأموال: أن يعبر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[١] وقوله: ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٢] ونحو ذلك. وهذه الزكاة المذكورة هنا، لم يعبر عنها بالإيتاء، بل قال تعالى فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ فدل على أن هذه الزكاة: أفعال المؤمنين المفلحين، وذلك أولى بفعل الطاعات، وترك المعاصي من أداء مال.

الثالثة: أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة، من غير فصل بينهما كقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٣] وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٤] وقوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٥] وهذه الزكاة المذكورة هنا فصل بين ذكرها وبين ذكر الصلاة بجملة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

والذين قالوا المراد بها زكاة الأموال قالوا: إن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة، وأن الزكاة التي فرضت بالمدينة سنة اثنتين هي ذات النصب والمقادير الخاصة.

وقد أوضحنا هذا القول في الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[٦] وقد يستدل، لأن المراد بالزكاة في هذه الآية غير الأعمال التي تزكى بها النفوس من دنس الشرك والمعاصي، بأنا لو حملنا معنى الزكاة على ذلك، كان شاملا لجميع صفات المؤمنين المذكورة في أول هذه السورة، فيكون كالتكرار معها، والحمل على التأسيس والاستقلال أولى من غيره، كما تقرر في الأصول.. والذين قالوا: هي زكاة الأموال قالوا: فاعلون أي مؤدون، قالوا: وهي لغة معروفة فصيحة، ومنها قول أمية بن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الأز مـة والـفـاعـلـون لـلـزكـوات

وهو واضح بحمل الزكاة على المعنى المصدري بمعنى التزكية للمال، لأنها فعل المزكي كما هو واضح. ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، ودفع زكاة المال كلاهما من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة.

---

(١) البقرة: الآية (٤٣).
(٢) الأنبياء: الآية (٧٣).
(٣) البقرة: الآية (٤٣).
(٤) البقرة: الآية (٢٧٧).
(٥) الأنبياء: الآية (٧٣).
(٦) الأنعام: الآية (١٤١).

وقد قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد يحتمل أن المراد بالزكاة ها هنا: زكاة النفس من الشرك، والدنس إلى أن قال ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا وهو زكاة النفوس، وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم. اهـ منه»[1].

* * *

(١) أضواء البيان (٥/ ٧٥٧-٧٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم اللَّه عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها اللَّه لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله اللَّه له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ يقول: فمن التمس لفرجه منكحا سوى زوجته وملك يمينه ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يقول: فهم العادون حدود اللَّه المجاوزون ما أحل اللَّه لهم إلى ما حرم عليهم»[2].

قال الشنقيطي: «وبين معنى العادين في هذه الآية قوله تعالى في قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[3]، وهذا الذي ذكره هنا ذكره أيضا في سورة سأل سائل لأنه قال فيها في الثناء على المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١﴾[4]...

اعلم أنا قدمنا في سورة النساء، أن هذه الآية التي هي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ تدل بظاهرها على منع نكاح المتعة، لأنه -جل وعلا- صرح فيها بما يعلم منه، وجوب حفظ الفرج عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨).

(٢) جامع البيان (١٨/ ٤).

(٣) الشعراء: الآيتان (١٦٥و١٦٦).

(٤) المعارج: الآيات (٢٩-٣١).

غير الزوجة والسرية، ثم صرح بأن المبتغي وراء ذلك من العادين بقوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ وأن المرأة المستمتع بها في نكاح المتعة، ليست زوجة، ولا مملوكة. أما كونها غير مملوكة فواضح. وأما الدليل على كونها غير زوجة، فهو انتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث والعدة والطلاق والنفقة، ونحو ذلك، فلو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق، ووجبت لها النفقة، فلما انتفت عنها لوازم الزوجية علمنا أنها ليست بزوجة، لأن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم بإجماع العقلاء.

فتبين بذلك أن مبتغي نكاح المتعة من العادين المجاوزين ما أحل اللَّه إلى ما حرم، وقد أوضحنا ذلك في سورة النساء بأدلة الكتاب والسنة، وأن نكاح المتعة ممنوع إلى يوم القيامة»[1].

قال القاسمي: «تنبيهات:

الأول: دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور: من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين. وأنه من الملومين، ومن العادين. ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم. فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك. وقد أمر اللَّه تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر. كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر. ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة. ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيرا.

الثاني: روي عن الإمام أحمد أنه قال: لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى. واحتج بحديث عبد اللَّه بن مسعود أنه قال: يا رسول اللَّه أي الذنب أعظم؟ قال: «أن

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٧٦٠-٧٧٢).

تجعل لله ندا وهو خلقك. قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[١]. والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل. فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا. وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق، فالزنى بالمرأة التي لها زوج، أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات الزوج، فإذا كان زوجها جارا له، انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى. وذلك من أعظم البوائق. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[٢]. ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند اللّه من الزنى بامرأة الجار. فإن كان الجار أخا له أو قريبا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الإثم، فإن كان الجار غائبا في طاعة اللّه، كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها. فإن اتفق أن يكون الزاني محصنا، كان الإثم أعظم. فإن كان شيخا كان أعظم إثما، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم اللّه يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند اللّه، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة، تضاعف الإثم، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة واللّه المستعان.

الثالث: أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره. ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ وقاس ذلك على أمته

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (١٣/ ٦٠٠/ ٧٥٢٠) ومسلم (١/ ٩٠-٩١/ ٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٤/ ٣١٨٢) والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٢١) ومسلم (١/ ٦٨/ ٤٦(٧٣)) من حديث أبي هريرة.

المملوكة، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد. فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه. وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم. أفاد هذا وما قبله الإمام ابن القيم في «الجواب الكافي»»[١].

قال السعدي: «ويدل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الزنا وما قالته أم المؤمنين في المتعة

* عن ابن أبي مليكة قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن متعة النساء فقالت: (بيني وبينكم كتاب الله: قال وقرأت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ ما زوجه اللّه أو ملكه فقد عدا)[٣].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ خيبر، فلما فتح اللّه عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب -وقد قتل زوجها وكانت عروسًا- فاصطفاها رسول اللّه ﷺ لنفسه فخرج بها، حتى بلغنا سد الروحاء حلت فبنى بها، ثم صنع حيسا في نطع صغير، ثم قال رسول اللّه ﷺ: «آذن من حولك»، فكانت تلك وليمة رسول اللّه ﷺ على صفية. ثم خرجنا إلى المدينة قال: فرأيت رسول اللّه ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[٤].

---

(١) محاسن التأويل (١٢/ ٧٢-٧٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٨).
(٣) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٠٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ٥٣٢/ ٢٢٣٥) ومسلم (٢/ ١٠٤٧/ ١٣٦٥) وأبو داود (٣/ ٣٩٨/ ٢٩٩٥).

★ **فوائد الحديث:**

ترجم البخاري في صحيحه لهذا الحديث بقوله: (باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها؟ ولم ير الحسن بأسا أن يقبلها أو يباشرها. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا وهبت الوليدة التي توطأ أو بيعت أو عتقت فليستبرأ رحمها بحيضة، ولا تستبرأ العذراء. وقال عطاء: لا بأس أن يصيب من جاريته الحامل ما دون الفرج. وقال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، قال الحافظ: «هكذا قيد بالسفر، وكأن ذلك لكونه مظنة الملامسة والمباشرة غالبا، قوله: (ولم ير الحسن بأسا أن يقبلها أو يباشرها) وصله ابن أبي شيبة من طريق يونس بن عبيد عنه، قال: وكان ابن سيرين يكره ذلك. وروى عبدالرزاق من وجه آخر عن الحسن قال: يصيب ما دون الفرج. قال الداودي: قول الحسن إن كان في المسبية صواب وتعقبه ابن التين بأنه لا فرق في الاستبراء بين المسبية وغيرها، قوله: وقال ابن عمر إذا وهبت الوليدة التي توطأ أو بيعت أو عتقت فليستبرأ رحمها بحيضة، ولا تستبرأ العذراء، أما قوله الأول فوصله ابن أبي شيبة من طريق عبد اللَّه عن نافع عنه وأما قوله: ولا تستبرأ العذراء، فوصله عبدالرزاق من طريق أيوب عن نافع عنه وكأنه يرى أن البكارة تمنع الحمل أو تدل على عدمه أو عدم الوطء وفيه نظر، وعلى تقديره ففي الاستبراء شائبة تعبد ولهذا تستبرأ التي أيست من الحيض، قوله وقال عطاء لا بأس أن يصيب من جاريته الحامل ما دون الفرج قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾»[1].

قال الحافظ: «وجه استدلاله بالآية أنها دلت على جواز الاستمتاع بجميع وجوهه، فخرج الوطء بدليل، فبقي الباقي على الأصل، ثم ذكر المصنف في الباب حديث أنس في قصة صفية.. والغرض منه هنا.

قوله: حتى بلغنا سد الروحاء حلت فبنى بها، فإن المراد بقوله: حلت، أي: طهرت من حيضها، وقد روى البيهقي بإسناد لين أنه ﷺ استبرأ صفية بحيضة، وأما ما رواه مسلم من طريق ثابت عن أنس أنه ﷺ ترك صفية عند أم سليم حتى انقضت عدتها، فقد شك حماد راويه عن ثابت في رفعه، وفي ظاهره نظر لأنه ﷺ دخل بها

---

(١) الفتح (٤/ ٥٣٢).

منصرفه من خيبر بعد قتل زوجها بيسير، فلم يمض زمن يسع انقضاء العدة، ولا نقلوا أنها كانت حاملا فتحمل العدة على طهرها من المحيض، وهو المطلوب، والصريح في هذا الباب حديث أبي سعيد مرفوعا: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة**» قاله في سبايا أوطاس أخرجه أبو داود وغيره وليس على شرط الصحيح[1]»[2].

قال العيني: «ومما يستفاد من هذا الحديث أنه يدل على أن الاستبراء أمانة يؤتمن المبتاع عليها بأن لا يطأها حتى تحيض حيضة إن لم تكن حاملا؛ لأن الحامل لا توطأ حتى تضع لئلا يسقي ماؤه زرع غيره، وأجمع الفقهاء على أن حيضة واحدة براءة في الرحم، إلا أن مالكا والليث قالا إن اشتراها في أول حيضها اعتد بها، وإن كانت في آخرها لم يعتد بها، وقال ابن المسيب: حيضتان، وقال ابن سيرين: ثلاث حيض، واختلف إذا أمن فيها الحمل، فقال مالك يستبرئ، وقال مطرف وابن الماجشون: لا»[3].

قلت: ومما تقدم من الآيات والأحاديث وكلام أهل العلم تظهر شناعة موبقة الزنى، وأنها من أخطر ما تبتلى به الأمم، فهي سرطان قاتل لا نهاية لخطره، ومن أعظم دلالة الإسلام وآياته تحذيره من هذه الموبقة، ووصف خطرها في الحال والمآل، كما قال في (الإسراء): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[4] الآية. والأمم المعاصرة في هذه الأزمان تعاني من هذه الموبقة مسلمهم وكافرهم، وقد ترتب عليها من الخطر ما يسمى (الإيدز) وهو داء فقد المناعة، وأقيمت لهذا المرض الخطير مؤتمرات دولية، ولجهل كثير من الأمم والشخصيات بالإسلام يقترحون اقتراحات، ويكتبون توصيات هي بمعزل تمامًا عن الدواء الحقيقي الذي جاء به الإسلام، وهو تحريم الزنى ووسائله؛ من النظر واللمس والمصافحة والاختلاط والخلوة وغيرها من الوسائل، ورتب على فعلها لغير المحصن الجلد تأديبًا له ذكرًا

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨) وأبو داود (٢/ ٦٣٤/ ٢١٥٧) والحاكم (٢/ ١٩٥) وقال: «صحيح على شرط مسلم» وصححه الألباني في صحيح أبي داود وقال: «على شرط مسلم إلا أنه لم يخرج لشريك -وهو ابن عبد الله القاضي- إلا متابعة».

(٢) الفتح (٤/ ٥٣٣).

(٣) عمدة القاري (٨/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٤) الإسراء: الآية (٣٢).

كان أو أنثى، وجعل الرجم للمتزوج المحصن حتى يجتث هذا المرض من القلوب، ويُعتبر بصاحبه الذي ارتكبه، وكما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] الآية. فالإسلام حرص حرصًا شديدًا على طهارة المجتمع من كل ما يفسد أخلاقه وينتهك حرماته. فالدخول في الإسلام دواء ناجع لكل الأمم، والتمسك به وقاية من كل الأمراض الحسية والمعنوية، والخروج منه يعرض لكل أذى حسًّا ومعنًى. اللهم رد الأمم ردًّا جميلًا، واهدهم إلى هذا الدين القويم إنك سميع مجيب.

* * *

(١) البقرة: الآية (١٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾[1] فجميع ما أوجبه اللّه على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[2].

وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها»[3].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من حفظ الأمانات والعهود جاء مبينا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾[5] وقوله تعالى في سأل سائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾[6] وقوله في العهد: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[7] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[8] الآية. وقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[9] وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[10] وقد أوضحنا هذا في

---

(١) الأحزاب: الآية (٧٢).
(٢) النساء: الآية (٥٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٨).
(٤) النساء: الآية (٥٨).
(٥) الأنفال: الآية (٢٧).
(٦) المعارج: الآية (٣٢).
(٧) الإسراء: الآية (٣٤).
(٨) المائدة: الآية (١).
(٩) الفتح: الآية (١٠).
(١٠) النحل: الآية (٩١).

سورة الأنبياء في الكلام على قوله: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾[١] الآية.
وقوله: راعون: جمع تصحيح للراعي، وهو القائم على الشيء، بحفظ أو إصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، وفي الحديث: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[٢]»[٣].

قال الرازي: «اعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلا في الخيانة وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾[٤] فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك، لأنها إما أن تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها.. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة)[٥] ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما. ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء لأنه مؤتمن في ذلك، ومن ذلك أن يراعي أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره، وأما العهد فإنه دخل فيه العقود والأيمان والنذور، فبين سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح»[٦].

قال ابن عاشور: «والوفاء بالعهد من أعظم الخلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، فإن المرأين قد يلتزم كل منهما للآخر عملا عظيما، فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما، فيصعب عليه أن يتجشم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو، فتسول له نفسه الختر بالعهد شحا أو خورا في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟

(١) الأنبياء: الآية (٧٨).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥) والبخاري (٩/ ٣١٦/ ٥١٨٨) ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩) وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨) والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٣) من حديث ابن عمر.
(٣) أضواء البيان (٥/ ٧٧٤).
(٤) الأنفال: الآية (٢٧).
(٥) أخرجه: عبدالرزاق (٣/ ٣٦٣/ ٥٩٨١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١/ ٨٦٩٨) والحاكم (٤/ ٥٠٤) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١-٥٢) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة». وصححه إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ١٩).
(٦) التفسير الكبير (٢٣/ ٨٢).

بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[1]»[2].

وقال: «والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد لأن العهد كالأمانة؛ لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد، وذكرهما عقب أداء الزكاة لأن الزكاة أمانة اللَّه عند الذين أنعم عليهم بالمال ولذلك سميت: حق اللَّه وحق المال وحق المسكين»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهمية الأمانة وصفات المنافقين

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان**»[4].

★ غريب الحديث:

اوتمن: الأمانة مصدر قولهم أمن يأمن أمانة أي: صار أمينا وهو مأخوذ من مادة (أ م ن) التي تدل على سكون القلب. والأمانة: ضد الخيانة.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال ابن التين: الأمانة كل ما يخفى ولا يعلمه إلا اللَّه من المكلف. وعن ابن عباس: هي الفرائض التي أمروا بها ونهوا عنها وقيل: هي الطاعة، وقيل التكاليف، وقيل: العهد الذي أخذه اللَّه على العباد. وهذا الاختلاف وقع في تفسير الأمانة المذكورة في الآية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[5] وقال صاحب التحرير: الأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة المذكورة في الآية وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت في القلب قام بأداء ما أمر به واجتنب ما نهي عنه»[6].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول، والفعل، والنية، فنبه على فساد

(١) الإسراء: الآية (٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٧).
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٧) والبخاري (١/ ١٢٠/ ٣٣) ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٩) والترمذي (٥/ ٢٠/ ٢٦٣١) وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٨/ ٤٩١/ ٥٠٣٦).
(٥) الأحزاب: الآية (٧٢).
(٦) الفتح (١٣/ ٤٩).

القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف، لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارنا للوعد، أما لو كان عازما ثم عرض له مانع أو بدا له رأي، فهذا لم توجد منه صورة النفاق»[١].

قال ابن بطال: «قال أبو الزناد: ولم يرد النبي ﷺ بالنفاق المذكور في هذين الحديثين النفاق الذي صاحبه في الدرك الأسفل من النار؛ الذي هو أشد الكفر، وإنما أراد أنها خصال تشبه معنى النفاق؛ لأن النفاق في اللغة أن يظهر المرء خلاف ما يبطن. وهذا المعنى موجود في الكذب وخلف الوعد والخيانة.

فإن قيل: قد قال عليه السلام في حديث عبد اللَّه بن عمرو: «**كان منافقا خالصا**»[٢].

قيل: معناه خالصا في هذه الخلال المذكورة في الحديث فقط لا في غيرها، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣].

وقد ثبت عن الرسول أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

قال المهلب: والمراد بالحديث -واللَّه أعلم- من يكون الكذب غالبا على كلامه ومستوليا على حديثه، والخيانة على أمانته، والخلف على مواعيده، فإذا كان هذا شأنه قويت العلامة والدلالة.

وأما من كان الكذب على حديثه نادرا في خبره تافها، والخيانة في أمانته شاذة يدعي العذر فيها، والخلف في أوعاده، مثل ذلك معتذر بآفات منعته من الإنجاز فلا يقضى عليه بالنادر اليسير؛ إذ لا يمكن أن يسلم أحد من كذب.

وقد سئل مالك بن أنس عمن جرب عليه كذب، قال: أي نوع من الكذب، لعله إذا حدث عن غضادة عيش سلف زاد في وصفه وأفرط في ذكره، أو أخبر عما رآه في سفره، أعيا في خبره وأسرف، فهذا لا يضره؛ وإنما يضر من حدث عن الأشياء بخلاف ما هي عليه عامدا للكذب.

---

(١) الفتح (١/ ١٢١-١٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩) والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤) ومسلم (١/ ١٧٨/ ٥٨) وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨) والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥).

(٣) النساء: الآية (٤٨) والآية (١١٦).

وكذلك الخلف في الوعد، والخيانة في الأمانة إذا كانت شاذة يدعي فيها العذر.

وذلك مغتفر له غير محكوم عليه في نفاق أو سوء معتقد، وقد جرب على من سلف من الأئمة بعض ذلك، فلم يضرهم؛ لأنه كان نادرا. هذا وجه الحديث إن شاء الله»[1].

قلت: ما ذكر في الأحاديث من النفاق هو نوعان: نفاق عملي، ونفاق عقدي. فالنفاق العملي قد يبتلى به المسلم، وهو لا يخلد صاحبه في النار، وهو داخل في آيات وأحاديث الوعيد، وأما النفاق الاعتقادي فهو أن يبطن الكفر ويظهر الإسلام، وهذا حال المنافقين في عهد النبي ﷺ ومن كان على مثل حالهم في كل زمان، فمن أبغض الإسلام أو كره جزءًا منه أو صفة من صفاته كالحجاب أو الأكل باليمين أو تقصير الثياب أو تحريم الذهب على الذكر أو سنة من سنن النبي ﷺ أو آية من كتاب الله؛ فهو مثل المنافقين الذين كانوا في عهد النبي ﷺ حكمًا وصفةً. ومن رجع إلى كتب الفقه في كتب المرتد عرف ما أشرنا إليه، والأمر واضح جدًّا.

فالإسلام حب للَّه ورسوله وكتابه ودينه، والكفر بغض للإسلام ورسوله ورد لهما على سبيل العناد والكراهية. فمن رد على اللَّه دينه أو رسوله كارهًا له مبغضًا؛ فلا شك في كفره وردته وأنه كافر مرتد. فنرجو اللَّه السلامة والعافية من أن نرد على اللَّه دينه.

* * *

---

(١) شرح ابن بطال (١/ ٩١-٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم يحافظون على صلواتهم والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر تعالى بالمحافظة عليها في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[1] الآية. وقال تعالى في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾[2] وقال فيها أيضا: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾[3] وذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾[4].

وقد أوضحنا ذلك في سورة مريم، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[5] الآية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[6] الآية. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه سأل رسول اللّه ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» الحديث[7]»[8].

قال الرازي: «وإنما أعاد تعالى ذكرها لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين، فإن الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته، والمحافظة إنما تصح حال ما لم يؤدها بكمالها. بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما، والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت»[9].

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٨).
(٢) المعارج: الآية (٣٤).
(٣) المعارج: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٤) مريم: الآية (٥٩).
(٥) الماعون: الآيتان (٤و٥).
(٦) النساء: الآية (١٤٢).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠) والبخاري (٢/ ١١/ ٥٢٧) ومسلم (١/ ٨٩-٩٠/ ٨٥) والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣) والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩).
(٨) أضواء البيان (٥/ ٧٧٤-٧٧٥).
(٩) التفسير الكبير (٢٣/ ٨٢).

قال ابن عاشور: «وقد جمعت هذه الآية أصول التقوى الشرعية؛ لأنها أتت على أعسر ما تراض له النفس من أعمال القلب والجوارح، فجاءت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[2]. ثم ذكرت الصلاة وهي عماد التقوى، والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي اللَّه ومناجاته.

وذكرت الخشوع وهو تمام الطاعة؛ لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غير مستحضر خشوعا لربه الذي كلفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربه فامتثل واجتنب. فهذان من أعمال القلب.

وذكرت الإعراض عن اللغو، واللغو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه، فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك. وفي الإعراض عن اللغو خلق للسمع أيضا كما علمت.

وذكرت إعطاء الصدقات وفي ذلك مقاومة داء الشح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وذكرت حفظ الفرج. وفي ذلك خلق مقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم، فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخلقا.

وذكرت أداء الأمانة، وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه، ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا، وذكرت الوفاء بالعهد، وهو مظهر لخلق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس، بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء.

وذكرت المحافظة على الصلوات، وهو التخلق بالعناية والوقوف عند الحدود والمواقيت، وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقا راسخا.

وأنت إذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس

---

(١) البلد: الآية (١٧).
(٢) النور: الآية (٣٩).
(٣) الحشر: الآية (٩).

إهماله مثل الصلاة، والخشوع وترك اللغو، وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة وأداء الأمانة، فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل، والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها»[١].

قال المروزي: «مدح اللَّه عباده المؤمنين، فبدأ بذكر الصلاة قبل كل عمل، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ فمدحهم في أول نعتهم بالخشوع فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر القصة إعظاما لقدرها، في القربة إليه، ولما أعد للقائمين بها، المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾.

ولم نجد اللَّه ﷻ مدح أحدا من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مدح من واظب على الصلوات في أوقاتها، ألا تراه كيف ذكرها مبتدأة من بين سائر الأعمال، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٢] ثم لم يبرئ أحدا من هذين الخلقين المذمومين من جميع الناس قبل المصلين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾[٣] ثم أعاد ذكرهم في آخر الآية، بذكر آخر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾[٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٥] في كل ذلك يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، تبعها ما تبعها من سائر الطاعات، فكرر الثناء عليهم، ومدحهم بالمحافظة عليها، ليدوموا عليها، كل ذلك تأكيدا لها، وتعظيما لشأنها»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المحافظة على الصلاة

* قال عبد اللَّه بن مسعود: سألت رسول اللَّه ﷺ قلت: يا رسول اللَّه أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قلت: ثم**

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨-١٩).
(٢) المعارج: الآيات (١٩-٢١).
(٣) المعارج: الآيتان (٢٢ و٢٣).
(٤) المعارج: الآيتان (٣٤ و٣٥).
(٥) فاطر: الآية (٢٩).
(٦) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٣٥-١٣٦).

أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». فسكتُّ عن رسول اللَّه ﷺ ولو استزدته لزادني[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عثيمين: «في هذا الحديث يخبر عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، أنه سأل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى اللَّه عز وجل ليتبع ما هو أحب إلى اللَّه، ويقدمه على غيره، ولعلم النبي ﷺ بإيمان عبد اللَّه بن مسعود، ومعرفته بمرتبة الإيمان أجابه ﷺ عن مراتب الأعمال الظاهرة البدنية، فبين له أن أحب الأعمال إلى اللَّه الصلاة في الوقت المطلوب فعلها فيه، وهو أول الوقت إلا العشاء الآخرة، لأن الصلاة أعظم حقوق اللَّه بعد الإيمان باللَّه، ثم الإحسان إلى الوالدين، لأن حقهما أعظم الحقوق بعد حق اللَّه ورسوله، ثم الجهاد في سبيل اللَّه بقتال أعدائه والذب عن شريعته، ثم بين عبد اللَّه بن مسعود أنه لو طلب من النبي ﷺ زيادة تبيان مراتب الأعمال لزاده، ولكن ترك ذلك خوف السآمة والملل بالزيادة على الثلاث»[٢].

قال ابن بطال: «في حديث عبد اللَّه أن الصلاة لوقتها أحب إلى اللَّه من كل عمل، وذلك يدل أن تركها أبغض الأعمال إلى اللَّه بعد الشرك.. وفيه أن البدار إلى الصلاة في أول أوقاتها، أفضل من التراخي فيها، لأنه إنما شرط فيها أن تكون أحب الأعمال إلى اللَّه إذا أقيمت لوقتها المستحب الفاضل»[٣].

قال ابن رجب: «وفي قول النبي ﷺ: «**الصلاة على وقتها- أو على مواقيتها**»: دليل -أيضا- على فضل أول الوقت للصلاة؛ لأن (على) للظرفية، كقولهم: (كان كذا على عهد فلان)، والأفعال الواقعة في الأزمان المتسعة عنها لا تستقر فيها، بل تقع في جزء منها، لكنها إذا وقعت في أول ذلك الوقت فقد صار الوقت كله ظرفا لها حكما.

ولهذا سمي المصلي مصليا في حال صلاته وبعدها إما حقيقة أو مجازا على اختلاف في ذلك، وأما قبل الفعل في الوقت فليس بمصل حقيقة ولا حكما، وإنما هو مصل بمعنى استباحة الصلاة فقط، فإذا صلى في أول الوقت فإنه لم يسم مصليا

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠) والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٢) ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥) والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣) وقال: «حسن صحيح».

(٢) تنبيه الأفهام (ص١٠٩).

(٣) شرح ابن بطال (٢/ ١٥٧).

إلا في آخر الوقت»[١].

* عن ثوبان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سددوا وقاربوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «قوله في هذا الحديث: «**سددوا وقاربوا**» يفسر قوله: «**استقيموا ولن تحصوا**»[٣] يقول سددوا وقاربوا فلن تبلغوا حقيقة البر، ولن تطيقوا الإحاطة في الأعمال، ولكن قاربوا فإنكم إن قاربتم ورفقتم كان أجدر أن تدوموا على عملكم»[٤].

وقوله: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»، **قال الطيبي**: «أي: إن لم تطيقوا ما أمرتم به من الاستقامة فحق عليكم أن تلزموا بعضها، وهي الصلاة التي هي جامعة لكل عبادة من القراءة، والتسبيح، والتهليل والتكبير والإمساك عن كلام الغير والمفطرات، وهي معراج المؤمن، ومقربته إلى جناب الحضرة الأقدس فالزموها، وأقيموا حدودها، لا سيما مقدمتها التي هي شطر الإيمان، فحافظوا عليها، فإنه لا يحافظ عليها إلا كل مؤمن تقي»[٥].

* * *

(١) فتح الباري (٤/ ٢٠٩-٢١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٢) وابن حبان (٣/ ٣١١/ ١٠٣٧ الإحسان). قال الألباني في الإرواء (٢/ ١٣٦): «هذا إسناد حسن متصل بالتحديث ورجاله كلهم ثقات رجال البخاري غير ابن ثوبان وهو عبدالرحمن بن ثابت وهو حسن الحديث».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧) وابن ماجه (١/ ١٠١-١٠٢/ ٢٧٧) والحاكم (١/ ١٣٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، من حديث ثوبان ﷺ.

(٤) فتح البر (٣/ ١٩٥).

(٥) شرح الطيبي (٣/ ٧٥١).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولا، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المؤمنين المتصفين بالصفات، التي قدمناهم الوارثون، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الوارثون، لدلالة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ عليه. والفردوس: أعلا الجنة، وأوسطها، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن -جل وعلا-، وعبر تعالى عن نيل الفردوس هنا باسم الوراثة.

وقد أوضحنا معنى الوراثة والآيات الدالة على ذلك المعنى، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾[2] وقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[4] الآية في سورة مريم في الكلام على قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾[5] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.. وقوله هنا: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي بلا انقطاع أبدا، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٨).
(٢) مريم: الآية (٦٣).
(٣) الأعراف: الآية (٤٣).
(٤) الزمر: الآية (٧٤).
(٥) مريم: الآية (٦٣).

غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[١] أي غير مقطوع. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] كما قدمناه مستوفى»[٤].

قال ابن كثير: «فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة اللَّه تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ، بل أبلغ من هذا أيضا، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها اللَّه لهم ويضعها على اليهود والنصارى»**[٥]. وفي لفظ له قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة دفع اللَّه لكل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقال: هذا فكاكك من النار. فاستحلف عمر بن عبدالعزيز أبا بردة باللَّه الذي لا إله إلا هو، ثلاثة مرات، أن أباه حدثه عن رسول اللَّه ﷺ**، قال: فحلف له»[٦]»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ميراث جنة الفردوس

* عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ قال: (يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم الذين أعدت لهم إذا أطاعوا الله)[٨].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا له منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾»**[٩].

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **«يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها اللَّه لهم، ويضعها على اليهود والنصارى»**[١٠].

---

(١) هود: الآية (١٠٨).
(٢) ص: الآية (٥٤).
(٣) النحل: الآية (٩٦).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٥٧-٧٧٦).
(٥) سيأتي تخريجه.
(٦) أخرجه: مسلم (٤/ ٢١١٩/ ٢٧٦٧(٤٩)).
(٧) التفسير (٥/ ٤٥٩).
(٨) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٩٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
(٩) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٤٥٣/ ٤٣٤١). قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين»، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٤١-٣٤٢/ ٣٧٧) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٢٧٩).
(١٠) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩١) ومسلم (٤/ ٢١١٩/ ٢٧٦٧(٥١)).

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: هذه الأحاديث ظاهرها الإطلاق والعموم وليست كذلك، وإنما هي في ناس مذنبين تفضل اللَّه تعالى عليهم برحمته ومغفرته، فأعطى كل إنسان منهم فكاكا من النار من الكفار، واستدلوا بحديث أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها اللَّه لهم ويضعها على اليهود والنصارى**» خرجه مسلم عن محمد بن عمرو بن عياد بن جبلة بن أبي رواد. قال حدثنا حرمي بن عمارة قال حدثنا شداد أبو طلحة الراسي عن عباس عن غيلان بن جرير عن أبي بردة عن النبي ﷺ قالوا: وما معنى فيغفرها لهم؟ أي يسقط المؤاخذة عنهم بها حتى كأنهم لم يذنبوا، ومعنى قوله: ويضعها على اليهود والنصارى أنه يضاعف عليهم عذاب ذنوبهم، حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم وجرم مذنبي المسلمين، لو أخذوا بذلك، لأنه تعالى لا يأخذ أحدا بذنب أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] وله سبحانه أن يضاعف لمن يشاء العذاب، ويخفف عن من يشاء بحكم إرادته ومشيئته، إذ لا يسأل عن فعله، قالوا وقوله في الرواية الأخرى: «**لا يموت رجل مسلم إلا أدخل مكانه يهوديا أو نصرانيا**» فمعنى ذلك أن المسلم المذنب لما كان يستحق مكانا من النار بسبب ذنوبه، وعفى اللَّه عنه وبقي مكانه خاليا منه، أضاف اللَّه تعالى ذلك المكان إلى يهودي أو نصراني ليعذب فيه زيادة على تعذيب مكانه الذي يستحقه بحسب كفره، ويشهد لهذا قوله ﷺ في حديث أنس للمؤمن الذي يثبت عند السؤال في القبر فيقول له: «**انظر إلى مقعدك من النار، فقد أبدلك اللَّه به مقعدا من الجنة**»[2].

قد جاءت أحاديث دالة على أن لكل مسلم مذنبا كان أو غير مذنب منزلين: منزلا من الجنة ومنزلا من النار، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي يرث المؤمنون منازل الكفار، ويجعل الكفار في منازلهم في النار على ما يأتي بيانه،

---

(١) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦) والبخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٤) ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠) وأبو داود (٥/ ١١٢-١١٤/ ٤٧٥١) والنسائي (٤/ ٤٠٣/ ٢٠٥٠) من حديث أنس.

وهو مقتضى حديث أنس عن النبي ﷺ أن العبد إذا وضع في قبره، الحديث وقد تقدم. إلا أن هذه الوراثة تختلف: فمنهم من يرث ولا حساب، ومنهم من يرث بحسابه وبمناقشته وبعد الخروج من النار، حسب ما تقدم من أحوال الناس والله أعلم.

وقد يحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرهم وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[1]»[2].

وقد تقدم شيء من فوائد حديث أبي موسى رضي الله عنه في سورة الأعراف الآية (٤٣).

* عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة -وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب- فإن كان في الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة. وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها**. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: **إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة -أراه قال: وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة**»[4].

* **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على هذين الحديثين في سورة التوبة الآية (٧٢).

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٧٤).

(٢) التذكرة (٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٠ و٢٦٠) والبخاري (٦/ ٣٢/ ٢٨٠٩) والترمذي (٥/ ٣٠٦/ ٣١٧٤) وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥) والبخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠) والترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سلالة: السلالة: هنا الصفوة التي اسْتُلَّتْ من الأرض. أصلها من السَّلِّ، وهو نزع الشيء من الشيء. يقال: سَلَلْتُ السَّيْفَ: إذا نزعته من الغمد. وسلالة الرجل ذريته. قال امرؤ القيس:

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنّي خَلِيقَةٌ فَسُلّي ثِيَابي مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ

نطفة: أصل النطفة: الماء، قَلَّ أو كَثُرَ. والمراد هنا: المني المخلوق منه البشر.

مكين: ثابت وراسخ. يقال: فلان مكين عند السلطان، أي ذو تمكن ومكانة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «وهذا شروع في الاستدلال على انفراد اللَّه تعالى بالخلق، وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أن الإنسان مربوب لله تعالى وحده، والاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة. فالمقصود منه إبطال الشرك لأن ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمدية.

ويتضمن ذلك امتنانا على الناس بأنهم أخرجهم من مهانة العدم إلى شرف الوجود، وذلك كله ليظهر الفرق بين فريق المؤمنين الذين جروا في إيمانهم على ما يليق بالاعتراف بذلك، وبين فريق المشركين الذين سلكوا طريقا غير بينة فحادوا عن مقتضى الشكر بالشرك، وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعى فيه

التعريض بالمشركين المنزلين منزلة من ينكر هذا الخبر لعدم جريهم على موجب العلم»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ⑫﴾ أسللناه منه، فالسلالة هي المستلة من كل تربة، ولذلك كان آدم خلق من تربة أخذت من أديم الأرض. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف منهم في المعنى بالإنسان في هذا الموضع فقال بعضهم: عني به آدم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد خلقنا ولد آدم، وهو الإنسان الذي ذكر في هذا الموضع من سلالة، وهي النطفة التي استلت من ظهر الفحل من طين، وهو آدم الذي خلق من طين.. وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم، وهي صفة مائه، وآدم هو الطين لأنه خلق منه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية لدلالة قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ⑬﴾ على أن ذلك كذلك، لأنه معلوم أنه لم يصر في قرار مكين إلا بعد خلقه في صلب الفحل، ومن بعد تحوله من صلبه صار في قرار مكين، والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته لأنهما مسلولان منه، ومن السلالة قول بعضهم:

حملت به عضب الأديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين

وقول الآخر:

وهل كنت إلا مهرة عربية سلالة أفراس تحللها بغل

فمن قال: سلالة جمعها سلالات وربما جمعوها سلائل، وليس بالكثير؛ لأن السلائل جمع للسليل، ومنه قول بعضهم:

إذا أنتجت منها المهارى تشابهت على القود إلا بالأنوف سلائله

وقول الراجز:

يقذفن في أسلابها بالسلائل

يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ⑬﴾ ثم جعلنا الإنسان الذي جعلناه من سلالة من طين نطفة في قرار مكين، وهو حيث استقرت فيه

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١-٢٢).

نطفة الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين لأنه مكن لذلك، وهيئ ليستقر فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قرارا، وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ يقول: ثم صيرنا النطفة التي جعلناها في قرار مكين علقة، وهي القطعة من الدم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ يقول: فجعلنا ذلك الدم مضغة، وهي القطعة من اللحم، وقوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ يقول: فجعلنا تلك المضغة اللحم عظاما.. وقوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ يقول: فألبسنا العظام لحما وقد ذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: «ثم خلقنا النطفة عظما وعصبا فكسوناه لحما» وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يقول: ثم أنشأنا هذا الإنسان خلقا آخر وهذه الهاء التي في ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ عائدة على الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ قد يجوز أن تكون من ذكر العظم والنطفة والمضغة، جعل ذلك كله كالشيء الواحد فقيل: ثم أنشأنا ذلك خلقا آخر.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقال بعضهم: إنشاؤه إياه خلقا آخر: نفخه الروح فيه، فيصير حينئذ إنسانا، وكان قبل ذلك صورة.. وقال آخرون: إنشاؤه خلقا آخر تصريفه إياه في الأحوال بعد الولادة: في الطفولة والكهولة والاغتذاء ونبات الشعر والسن ونحو ذلك من أحوال الأحياء في الدنيا.. وقال آخرون: بل عنى بإنشائه خلقا آخر: سوى شبابه.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: قال: عنى نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول خلقا آخر إنسانا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحول أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنسانا وخلقا آخر غير الطين الذي خلق منه.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معناه فتبارك الله أحسن الصانعين.. وقال آخرون: إنما قيل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لأن عيسى ابن مريم كان يخلق، فأخبر -جل ثناؤه- عن نفسه أنه يخلق أحسن مما كان يخلق.. وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد؛ لأن العرب تسمي كل صانع خلقا ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض ... القوم يخلق ثم لا يفري

ويروى:

ولأنت تخلق ما فريت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري»[(١)].

قال الشنقيطي: «وقوله هنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ يعني: بدأه خلق نوع الإنسان بخلق آدم، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً﴾ أي بعد خلق آدم وحواء، فالضمير في قوله: ثم جعلناه لنوع الإنسان، الذي هو النسل لدلالة المقام عليه، كقولهم: عندي درهم ونصفه: أي ونصف درهم آخر. كما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾[(٢)] وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[(٣)] وما ذكره هنا من أطوار خلقه الإنسان، أمر كل مكلف أن ينظر فيه. والأمر المطلق، يقتضي الوجوب إلا لدليل صارف عنه، كما أوضحناه مرارا. وذلك في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾[(٤)] الآية. وقد أشار في آيات كثيرة، إلى كمال قدرته بنقله الإنسان في خلقه من طور إلى طور، كما أوضحه هنا وكما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[(٥)] وبين أن انصراف خلقه عن التفكر في هذا والاعتبار به مما يستوجب التساؤل والعجب، وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة، إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة الخ. مع أنه لم يشق بطن أمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات: وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين، وذلك في قوله -جل وعلا-: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[(٦)] فتأمل معنى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي عن هذه العجائب والغرائب، التي فعلها فيكم ربكم ومعبودكم. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[(٧)] وقال:

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٧-١١).

(٢) السجدة: الآيات (٦-٩).

(٣) الروم: الآية (٢٠).

(٤) الطارق: الآيتان (٥و٦).

(٥) نوح: الآيتان (١٣و١٤).

(٦) الزمر: الآية (٦).

(٧) آل عمران: الآية (٦).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1] ثم ذكر الحكمة فقال: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي لنظهر لكم بذلك عظمتنا، وكمال قدرتنا، وانفرادنا بالإلهية واستحقاق العبادة، وقال في سورة المؤمن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[3] والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد أبهم هذه الأطوار المذكورة في قوله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[4] وذلك الإبهام يدل على ضعفهم وعظمة خالقهم -جل وعلا-، فسبحانه -جل وعلا- ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته، وما أظهر براهين توحيده، وقد بين في آية المؤمنون هذه: أنه يخلق المضغة عظاما، وبين في موضع آخر: أنه يركب بعض تلك العظام مع بعض، تركيبا قويا، ويشد بعضها مع بعض، على أكمل الوجوه وأبدعها، وذلك في قوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ﴾[5] الآية، والأسر: شد العظام بعضها مع بعض، وتأسير السرج ومركب المرأة السيور التي يشد بها، ومنه قول حميد بن ثور:

وما دخلت في الخدب حتى تنقضت ... تآسير أعلى قده وتحطما

وفي صحاح الجوهري: أسر قتبه يأسره أسرا شده بالأسار وهو القد، ومنه سمي الأسير، وكانوا يشدونه بالقد، فقول بعض المفسرين واللغويين: أسرهم: أي خلقهم فيه قصور في التفسير، لأن الأسر هو الشد القوي بالأسار الذي هو القد، وهو السير المقطوع من جلد البعير ونحوه، الذي لم يدبغ والله -جل وعلا- يشد بعض العظام ببعض، شدا محكما متماسكا كما يشد الشيء بالقد، والشد به قوي جدا. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ القرار هنا: مكان الاستقرار، والمكين: المتمكن. وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه»[6].

---

(١) الحج: الآية (٥).
(٢) غافر: الآية (٦٧).
(٣) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).
(٤) المعارج: الآية (٣٩).
(٥) الإنسان: الآية (٢٨).
(٦) أضواء البيان (٥/ ٧٧٨-٧٨٠).

قال الرازي: «في الآية دلالة على بطلان قول النظام في أن الإنسان هو الروح لا البدن، فإنه سبحانه بين أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات، وفيها دلالة أيضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون إن الإنسان شيء لا ينقسم، وإنه ليس بجسم»(١).

قال ابن عطية: «ومن هذه الآية قول ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا اللَّه أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس، فقال: يا أمير المؤمنين إن اللَّه خلق السماوات سبعا، والأرضين سبعا، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين، فقال: آعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه، وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبة فأراد ابن عباس بقوله خلق ابن آدم من سبع هذه الآية، وبقوله جعل رزقه في سبع قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾(٢) الآية السبع منها لابن آدم والأب للأنعام والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء هذا قول، وقيل القضب البقول لأنها تقضب فهي رزق ابن آدم، وقيل القضب والأب للأنعام والستة الباقية لابن آدم، والسابعة هي الأنعام إذ هي من أعظم رزق ابن آدم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق آدم وخلق بنيه

* عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك. والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك**»(٤).

★ غريب الحديث:

قبضة: بالضم والفتح وهو ملء الكف والقبض: الأخذ بجميع الكف.

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٨٦).

(٢) عبس: الآيات (٢٧-٣١).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٣٨-١٣٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٠ و٤٠٦) وأبو داود (٥/ ٦٧/ ٤٦٩٣) والترمذي (٥/ ١٨٧-١٨٨/ ٢٩٥٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

السهل: اللين المنقاد.

الحزن: بفتح الحاء وسكون الزاي: الغليظ الطبع.

الخبيث: خبيث الخصال الذي يراد به الأرض السبخة. الكافر.

الطيب: الذي يعني به الأرض العذبة. المؤمن الذي نفع كله.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «**«فجاء بنو آدم على قدر الأرض»**: أي مبلغها من الألوان والطباع «**منهم الأحمر والأبيض والأسود**»: بحسب ترابهم، وهذه الثلاثة هي أصول الألوان والطباع، وما عداها مركب منها، وهو المراد، بقوله: «**وبين ذلك**»: أي بين الأحمر والأبيض والأسود باعتبار أجزاء أرضه «**والسهل**»: أي ومنهم السهل أي اللين «**والحزن**»: بفتح الحاء وسكون الزاي أي الغليظ، «**والخبيث**»: أي خبيث الخصال، «**والطيب**»: على طبع أرضهم، وكل ذلك بتقدير اللَّه تعالى لونا وطبعا وخلقا»[١].

قال الطيبي: «لما كانت الأوصاف الأربعة من الأمور الظاهرة في الإنسان والأرض أجريت على حقيقتها، وتركت الأربع الأخيرة مفتقرة إلى تأويل، لأنها من الأخلاق الباطنة، فإن المعني بـ(السهل) الرفق واللين، وبـ(الحزن) الخرق والعنف، وبـ(الطيب) الذي يعني به الأرض العذبة المؤمن الذي نفع كله، وبـ(الخبيث) الذي يراد به الأرض السبخة الكافر الذي هو ضر وخسران في الدارين قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[٢]، والذي سيق له الكلام في الحديث هو الأمور الباطنة لأنها داخلة في حديث القدر: «**من الخير والشر**»، وأما الأمور الظاهرة من الأكوان، وإن كانت مقدرة فلا اعتبار لها فيه، واللَّه أعلم اهـ»[٣].

* عن ابن مسعود قال حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن

(١) المرقاة (١/ ٣٠١).

(٢) الأعراف: الآية (٥٨).

(٣) شرح الطيبي (٢/ ٥٦٤).

أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللَّه إليه ملكا بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»(١).

* عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**وكل اللَّه بالرحم ملكا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد اللَّه أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**»(٢).

* عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة. فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان. فيقول: أي رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص**»(٣).

⋆ فوائد الأحاديث:

قال ابن رجب: «فهذا الحديث يدل على أنه يتقلب في مئة وعشرين يوما، في ثلاثة أطوار، في كل أربعين منها يكون في طور، فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة، ثم في الأربعين الثالثة مضغة، ثم بعد المئة وعشرين يوما ينفخ الملك فيه الروح، ويكتب له هذه الأربع كلمات.

وقد ذكر اللَّه في القرآن في مواضع كثيرة تقلب الجنين في هذه الأطوار، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢و٤٣٠) والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣) وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨) والبخاري (١١/ ٥٨٣/ ٦٥٩٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٨/ ٢٦٤٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٦-٧) ومسلم (٤/ ٢٠٣٧/ ٢٦٤٤).

مُّسَمًّى﴾(١).

وذكر هذه الأطوار الثلاثة: النطفة والعلقة والمضغة في مواضع متعددة من القرآن، وفي موضع آخر ذكر زيادة عليها، فقال في سورة المؤمنين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾. فهذه سبع تارات ذكرها اللَّه في هذه الآية لخلق ابن آدم قبل نفخ الروح فيه»(٢).

وقد تقدم شرح الأحاديث في سورة الأعراف.

* * *

---

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص١٥٥ - ١٥٦).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم إنكم أيها الناس من بعد إنشائكم خلقا آخر، وتصييرناكم إنسانا سويا ميتون وعائدون ترابا كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وعودكم رفاتا باليا مبعوثون من التراب خلقا جديدا كما بدأناكم أول مرة، وإنما قيل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ لأنه خبر عن حال لهم يحدث لم يكن. وكذلك تقول العرب لمن لم يمت: هو مائت وميت عن قليل، ولا يقولون لمن قد مات مائت، وكذلك هو طمع فيما عندك إذا وصف بالطمع، فإذا أخبر عنه أنه سيفعل ولم يفعل، قيل هو طامع فيما عندك غدا، وكذلك ذلك في كل ما كان نظيرا لما ذكرناه»[(١)].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنهم بعد أن أنشأهم خلقا آخر، فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيرا، ثم يكون محتلما، ثم يكون شابا، ثم يكون كهلا، ثم يكون شيخا، ثم هرما؛ أنهم كلهم صائرون إلى الموت، من عُمِّر منهم ومن لم يعمر، ثم هم بعد الموت يبعثون أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا الموت والحياة المذكوران هنا كل واحد منهما له نظير آخر، لأنهما إماتتان وإحياءتان ذكر من كل منهما واحدة هنا، وذكر الجميع في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[(٢)] وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[(٣)] كما قدمنا إيضاحه في سورة الحج والبقرة، وكل ذلك دليل على كمال قدرته، ولزوم الإيمان به، واستحقاقه للعبادة وحده ﷻ علوا كبيرا»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١١-١٢).
(٢) البقرة: الآية (٢٨).
(٣) غافر: الآية (١١).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

طرائق: جمع طريقة. والمراد: السماوات. سميت بذلك لكونها متطارقة بعضها فوق بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السماوات السبع، وكثيرا ما يذكر تعالى خلق السماوات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[1]. وهكذا في أول ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، التي كان رسول اللّه ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السماوات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: قال مجاهد: يعني السماوات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾[3]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾[4]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: و﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]. وهو -سبحانه- لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضا، ولا جبل إلا يعلم ما

---

(١) غافر: الآية (٥٧).
(٢) الإسراء: الآية (٤٤).
(٣) نوح: الآية (١٥).
(٤) الطلاق: الآية (١٢).
(٥) الحديد: الآية (٤).

في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1]». اهـ[2]

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ قد قدمنا أن معناه كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾[3] لأن من يمسك السماء لو كان يغفل لسقطت فأهلكت الخلق، كما تقدم إيضاحه، وقال بعضهم: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ بل نحن القائمون بإصلاح جميع شؤونهم، وتيسير كل ما يحتاجون إليه وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ يعني السماوات، برهان على قوله قبله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ مع عظمها فلا شك أنه قادر على خلق الإنسان كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾[5] الآية. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[6] والآيات بمثل هذا متعددة.

وقد قدمنا براهين البعث التي هذا البرهان من جملتها، وأكثرنا من أمثلتها وهي مذكورة هنا، ولم نوضحها هنا لأنا أوضحناها فيما سبق في النحل والبقرة. والعلم عند اللَّه تعالى»[7].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٥٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤).
(٣) الحج: الآية (٦٥).
(٤) غافر: الآية (٥٧).
(٥) النازعات: الآية (٢٧).
(٦) يس: الآية (٨١).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٧٨٣-٧٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «هذه من نعم اللّه على خلقه، ومما امتن عليهم به، ومن أعظم المنن الماء الذي به حياة الأبدان ونماء الحيوان.

والماء المنزل من السماء على قسمين: هذا الذي ذكره اللّه في هذه الآية، وأخبر عنه بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مخزونا لسقيا الناس، يجدونه عدة عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار والعيون، وما يستخرج من الآبار.

والقسم الآخر هو الذي ينزل من السماء على الأرض في كل وقت»[١].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الحاجة، لا كثيرا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيرا لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرز»، يسوق اللّه إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طينا أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا أذى

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٣١٢).

لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون وتتنظفون، فله الحمد والمنة»[١].

قال الشنقيطي: «وهذه المسائل الثلاث التي ذكرها في هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في غير هذا الموضع.

الأولى: التي هي كونه: أنزله بقدر أشار إليها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[٢].

والثانية: التي هي إسكانه الماء المنزل من السماء في الأرض بينها في قوله - جل وعلا -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣] والينبوع: الماء الكثير وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[٤] على ما قدمنا في الحجر.

والثالثة: التي هي قدرته على إذهابه أشار لها في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾[٥] ويشبه معناها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[٦] لأنه إذا صار ملحا أجاجا لا يمكن الشرب منه، ولا الانتفاع به صار في حكم المعدوم، وقد بين كيفية إنزاله الماء من السماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[٧] فصرح بأن الودق الذي هو المطر يخرج من خلال السحاب الذي هو المزن، وهو الوعاء الذي فيه الماء، وبين أن السحابة تمتلئ من الماء حتى تكون ثقيلة لكثرة ما

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥).
(٢) الحجر: الآية (٢١).
(٣) الزمر: الآية (٢١).
(٤) الحجر: الآية (٢٢).
(٥) الملك: الآية (٣٠).
(٦) الواقعة: الآية (٧٠).
(٧) النور: الآية (٤٣).

فيها من الماء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾[1] الآية فقوله: ثقالا جمع ثقيلة، وثقلها إنما هو بالماء الذي فيها، وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[2] جمع سحابة ثقيلة.

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله يجمع الماء في المزن، ثم يخرجه من خلال السحاب، وخلال الشيء ثقوبه وفروجه التي هي غير مسدودة، وبين -جل وعلا- أنه هو الذي ينزله ويصرفه بين خلقه كيف يشاء، فيكثر المطر في بلاد قوم سنة، حتى يكثر فيها الخصب وتتزايد فيها النعم، ليبتلي أهلها في شكر النعمة، وهل يعتبرون بعظم الآية في إنزال الماء، ويقل المطر عليهم في بعض السنين، فتهلك مواشيهم من الجدب ولا تنبت زروعهم، ولا تثمر أشجارهم، ليبتليهم بذلك، هل يتوبون إليه، ويرجعون إلى ما يرضيه.

وبين أنه مع الإنعام العام على الخلق بإنزال المطر بالقدر المصلح، وإسكان مائه في الأرض ليشربوا منه هم وأنعامهم، وينتفعوا به، أبى أكثرهم إلا الكفر به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ۝٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾[3].

ولا شك أن من جملة من أبى منهم إلا كفورا، الذين يزعمون أن المطر لم ينزله منزل هو فاعل مختار، وإنما نزل بطبيعته، فالمنزل له عندهم: هو الطبيعة، وأن طبيعة الماء التبخر، إذا تكاثرت عليه درجات الحرارة من الشمس أو الاحتكاك بالريح، وأن ذلك البخار يرتفع بطبيعته. ثم يجتمع، ثم يتقاطر. وأن تقاطره ذلك أمر طبيعي لا فاعل له، وأنه هو المطر. فينكرون نعمة الله في إنزاله المطر وينكرون دلالة إنزاله على قدرة منزله، ووجوب الإيمان به واستحقاقه للعبادة وحده، فمثل هؤلاء داخلون في قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) الرعد: الآية (١٢).

(٣) الفرقان: الآيات (٤٨-٥٠).

وقد صرح في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أنه تعالى، هو مصرف الماء، ومنزله حيث شاء كيف شاء. ومن قبيل هذا المعنى: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: صلى بنا رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي: فأما من قال مطرنا بفضل اللَّه ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**» هذا لفظ مسلم رحمه الله في صحيحه[1]، ولا شك أن من قال: مطرنا ببخار كذا مسندا ذلك للطبيعة، أنه كافر باللَّه مؤمن بالطبيعة والبخار. والعرب كانوا يزعمون أن بعض المطر أصله من البحر، إلا أنهم يسندون فعل ذلك للفاعل المختار -جل وعلا-، ومن أشعارهم في ذلك قول طرفة بن العبد:

لا تلمني إنها من نسوة ... رقد الصيف مقاليت نزر
كبنات البحر يمأدن إذا ... أنبت الصيف عساليج الخضر

فقوله: بنات البحر يعني: المزن التي أصل مائها من البحر.

وقول أبي ذؤيب الهذلي:

سقى أم عمرو كل آخر ليلة ... حناتم غرماؤهن نجيج
سقى أم عمرو كل آخر ليلة ... متى لجج خضر لهن نئيج

ولا شك أن خالق السماوات والأرض -جل وعلا-، هو منزل المطر على القدر الذي يشاء كيف يشاء، ﷻ عما يقول الظالمون علوا كبيرا»[2].

قال القرطبي في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾: «هذا تهديد ووعيد، أي في قدرتنا إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ -أي غائرا- ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[3]»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧) والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦) ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١) وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦) والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤) وفي الكبرى (٦/ ٢٢٩/ ١٠٧٦١).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٨٤-٤٨٧).

(٣) الملك: الآية (٣٠).

(٤) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١١٢).

قال الزمخشري: «وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل. والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه. وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾[1]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر»[2].

قلت: وهذه الإشارة من المفسر الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المحافظة على النعم، وخصوصًا نعمة الماء التي بها حياة الإنسان وحياة النبات وحياة الحيوان وحياة الأرض؛ كلها إشارة جيدة، ولهذا جاء النهي عن الإسراف في الوضوء، فبقدر المحافظة على النعمة وشكر صاحبها بقدر ما تدوم، فالإسلام عدل واعتدال ووسط بين طرفين إفراط وتفريط، فكل نعمة حسب الحاجة إليها، فالماء يستعمل حسب الحاجة إليه، فلا يقع فيه التبذير، ولا يسقى به ما لا يحتاج إلى السقي، أو يغسل به ما لا يحتاج إلى الغسل؛ فهو كالأكل للحاجة، فنسأل اللَّه أن يجعلنا من المحافظين على النعم كلها، وأن لا يجعلنا من المبذرين إخوان الشياطين.

قال القرطبي: «كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه، على ما يأتي في الفرقان بيانه»[3].

قال ابن العربي: «وقد قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.. فهذا عام في ماء المطر والماء المختزن في أرض، فصارت إحدى الآيتين عامة وهي آية الطهور.

والآية الأخرى خاصة وهي ماء القدر المسكن في الأرض، ومن هاهنا قال من قال: إن ماء البحر لا يتوضأ به؛ لأنه مما لم يخبر اللَّه عنه أنه أنزل من السماء. وقد بينا أن النبي ﷺ قال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[4]، وهذا نص فيه»[5].

---

(١) الملك: الآية (٣٠).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٨).

(٣) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١١٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١) وأبو داود (١/ ٦٤/ ٨٣) والترمذي (١/ ١٠٠-١٠١/ ٦٩) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٣/ ٥٩) وابن ماجة (١/ ١٣٦/ ٣٨٦) وابن خزيمة (١/ ٥٩/ ١١١) وابن حبان (٤/ ٤٩/ ١٢٤٣) والحاكم (١/ ١٤٠-١٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أحكام القرآن (٣/ ١٣١٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «وهذا -أي حديث أبي هريرة- تفسير لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨﴾ يعني به نهرا يجري، وعينا تسيل، وماء راكدا في جوفها واللَّه أعلم»[٢].

قال النووي: «وأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ففيه تأويلان ذكرهما القاضي عياض:

أحدهما: أن الإيمان عم بلادها، أو الأجسام المتغذية بمائها صائرة إلى الجنة.

والثاني: وهو الأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة والجنة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة، وقد ذكر مسلم في كتاب الإيمان في حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة، وفي البخاري من أصل سدرة المنتهى»[٣].

قال المناوي: «ولا يكره استعمال مياه هذه الأربعة في الحدث والخبث، وإن كانت من الجنة، لأن المنع منها تضييق»[٤].

* عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ قال: «**ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات..**»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٩) ومسلم (٤/ ٢١٨٣/ ٢٨٣٩).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٣١٤).

(٣) شرح مسلم (١٧/ ١٤٦).

(٤) فيض القدير (٤/ ٤٢٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٧-٢١٠) والبخاري (٧/ ٢٥٥-٢٥٧/ ٣٨٨٧) ومسلم (١/ ١٤٩-١٥١/ ١٦٤) والنسائي (١/ ٢٣٧-٢٤١/ ٤٤٧) والكبرى (١/ ١٣٨-١٤٠/ ١١٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال النووي في هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء اللَّه، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها، ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر فليعتمد، وأما قول عياض: إن الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض لكونه قال إن النيل والفرات يخرجان من أصلها، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض، فيلزم منه أن يكون أصل السدرة في الأرض، وهو متعقب، فإن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض، والحاصل أن أصلها في الجنة وهما يخرجان أولا من أصلها، ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض ثم ينبعان، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات لكون منبعهما من الجنة، وكذا سيحان وجيحان. قال القرطبي: لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء لكونهما ليسا أصلا برأسهما، وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات، قال وقيل: إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيها لها بأنهار الجنة، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة والأول أولى، واللَّه أعلم»[١].

* * *

---

(١) الفتح (٧/ ٢٧١-٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة اللَّه عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره»[١].

قال ابن عطية: «وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما قاله الطبري، ولأنهما أيضا أشرف الثمار، فذكرها مثالا تشريفا لها وتنبيها عليها، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الجنات، فيريد حينئذ جميع أنواع الفاكهة، ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة، إذ فيها مراتب وأنواع، والأول أعم لسائر الثمرات»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٣٩).
(٣) النحل: الآية (١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥-١٦).

قال القرطبي: «من حلف ألا يأكل فاكهة، ففي الرواية عندنا يحنث بالباقلاء الخضراء وما أشبهها.

وقال أبو حنيفة، لا يحنث بأكل القثاء والخيار والجزر، لأنها من البقول لا من الفاكهة.

وكذلك الجوز واللوز والفستق، لأن هذه الأشياء لا تعد من الفاكهة.

وإن أكل تفاحا أو خوخا أو مشمشا أو تينا أو إجاصا يحنث.

وكذلك البطيخ، لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكه قبل الطعام وبعده، فكانت فاكهة.

وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البطيخ اليابس، لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان.

ولا يحنث بأكل البطيخ الهندي، لأنه لا يعد من الفواكه.

وإن أكل عنبا أو رمانا أو رطبا لا يحنث.

وخالفه صاحباه فقالا يحنث، لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه، وتؤكل على وجه التنعم.

والإفراد لها بالذكر في كتاب اللّه عز جل لكمال معانيها، كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة.

واحتج أبو حنيفة بأن قال: عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨﴾[1] ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١﴾[2] والمعطوف غير المعطوف عليه، ولا يليق بالحكمة ذكر الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنة.

والعنب والرمان يكتفى بهما في بعض البلدان فلا يكون فاكهة، ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه ويابسه، ويابس هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها»[3].

---

(١) الرحمن: الآية (٦٨).

(٢) عبس: الآية (٣١).

(٣) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١١٣-١١٤).

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صبغ: الصبغ والصباغ: ما يصبغ به. والمراد هنا: الإدام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأنشأنا لكم أيضا شجرة تخرج من طور سيناء، وشجرة منصوبة عطفا على الجنات، ويعني بها: شجرة الزيتون.

وقوله: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ يقول: تخرج من جبل ينبت الأشجار.. وأما قوله: ﴿سَيْنَآءَ﴾ فإن القراء اختلفت في قراءته عامة قراء المدينة والبصرة سيناء بكسر السين وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة ﴿سَيْنَآءَ﴾ بفتح السين، وهما جميعا مجمعون على مدها. والصواب من القول في ذلك: أنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

و اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم: معناه: المبارك: كأن معنى الكلام عنده: وشجرة تخرج من جبل مبارك.. وقال آخرون: معناه: حسن.. وقال آخرون: هو اسم جبل معروف.. وقال آخرون: معناه: أنه جبل ذو شجر.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن سيناء اسم أضيف إليه الطور يعرف به، كما قيل جبلا طيئ فأضيفا إلى طيئ، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال من قال معناه حسن لكان الطور منونا، وكان قوله سيناء من نعته على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك -إن شاء الله- كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ وهو مع ذلك مبارك لا أن معنى سيناء معنى مبارك.

و قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿تَنۢبُتُ﴾ فقرأته عامة قراء الأمصار ﴿تَنۢبُتُ﴾ بفتح التاء بمعنى: تنبت هذه الشجرة بثمر الدهن. . والدهن الذي هو ثمره الزيت. كما حدثني علي قال: ثنا عبد اللّٰه قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ يقول: هو الزيت يؤكل ويدهن به.

و قوله: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ يقول: تنبت بالدهن وبصبغ للآكلين يصطبغ بالزيت الذين يأكلونه.

كما حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال: ابن زيد في قوله: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ قال: هذا الزيتون صبغ للآكلين يأتدمون به ويصطبغون به. قال أبو جعفر: فالصبغ عطف على الدهن»[1].

قال ابن عطية: «والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النعم التي لا غنى بالصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار»[2].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة والتخلق كقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾[3] وقوله: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾[4]. وذلك أن حقيقة الخروج هو البروز من المكان، ولما كان كل مخلوق يبرز بعد العدم، وكان المكان لازما لكل حادث، شبه ظهور الشيء بعد أن كان معدوما بخروج الشيء من المكان الذي كان محجوبا فيه. وهي استعارة شائعة في القرآن، فيظهر أن المعنى أن اللّٰه خلق أول شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن، كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها؛ لأن بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر، لمناسبة بين طبيعة المكان، وطبيعة الشيء الموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء

(١) جامع البيان (١٨/ ١٣-١٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٤٠).
(٣) طه: الآية (٥٣).
(٤) الزمر: الآية (٢١).

لبعض آخر، والصيف لبعض غيرها، فاللَّه تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها، فالحيوان والنبات كله جار على هذا القانون.

ثم إن البشر إذا نقلوا حيوانا أو نباتا من أرض إلى أرض، أو أرادوا الانتفاع به في فصل غير فصله، ورأوا عدم صلاحية المكان أو الزمان المنقول إليهما، يحتالون له بما يكمل نقصه من تدفئة في شدة برد، أو تبريد بسبح في الماء في شدة الحر، حتى لا يتعطل تناسل ذلك المنقول إلى غير مكانه، فكما أن بعض الحيوان أو النبات لا يعيش طويلا في بعض المناطق غير الملائمة لطباعه، كالغزال في بلاد الثلوج، فكذلك قد يكون بعض الأماكن من المنطقة الملائمة للحيوان أو النبات أصلح به من بعض جهات تلك المنطقة، فلعل جو طور سيناء لتوسطه بين المناطق المتطرفة حرا وبردا، ولتوسط ارتفاعه بين النجود والسهول، يكون أسعد بطبع فصيلة الزيتون كما قال تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[1]، فاللَّه تعالى هيأ لتكوينها حين أراد تكوينها ذلك المكان، كما هيأ لتكوين آدم طينة خاصة فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾[2]. ثم يكون الزيتون قد نقل من أول مكان ظهر فيه إلى أمكنة أخرى، نقله إليها ساكنوها للانتفاع به، فنجح في بعضها ولم ينجح في بعض.. ويجوز أن يكون معنى (تخرج) تظهر وتعرف، فيكون أول اهتداء الناس إلى منافع هذه الشجرة، وانتقالهم إياها، كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما نسمي الديك الرومي في بلدنا بالديك الهندي؛ لأن الناس عرفوه من بلاد الهند، وكما تسمى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفية لأنها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهند لأنه يجلب من الهند، وقد كان الزيت يجلب إلى بلاد العرب من الشام ومن فلسطين.

وأيا ما كان فليس القصد من ذكر أنها تخرج من طور سيناء إلا التنبيه على أنه منبتها الأصلي، وإلا فإن الامتنان بها لم يكن موجها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلا للتنويه بشرف منبتها، وكرم الموطن الذي ظهرت فيه، ولم تزل

---

(١) النور: الآية (٣٥).

(٢) الرحمن: الآية (١٤).

شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس. ورأيت في لسان العرب عن الأصمعي عن عبدالملك بن صالح: أن كل زيتونة بفلسطين من غرس أمم يقال لهم اليونانيون. والظاهر أنه يعني به زيتون زمانهم الذي أخلفوا به أشجارا قديمة بادت. . وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب، إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب اللَّه بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1]. والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كونت بها تلك الشجرة في أول تكوينها، حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات في طور سيناء. وذلك كقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾[2]. وهذا أنسب بالوجه الأول في تفسير معنى ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾.

ومعنى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أنها تنبت ملابسة للدهن فالباء للملابسة. وهذه الآية مثال لباء الملابسة. والملابسة معنى واسع. فملابسة نبات شجرة الزيتون للدهن والصبغ ملابسة بواسطة ملابسة ثمرتها للدهن والصبغ؛ فإن ثمرتها تشتمل على الزيت، وهو يكون دهنا وصبغا للآكلين. فأما كونه دهنا فهو أنه يدهن به الناس أجسادهم، ويرجلون به شعورهم، ويجعلون فيه عطورا فيرجلون به الشعور، وقد كان النبي ﷺ يدهن بالزيت في رأسه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل شجرة الزيتون

* عن أبي أسيد قال: قال النبي ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»[4].

---

(١) النور: الآية (٣٥).

(٢) المائدة: الآية (١١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٤-٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٧) والترمذي (٤/ ٢٥١/ ١٨٥٢) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه إنما نعرفه من حديث سفيان». والحاكم (٢/ ٣٩٧-٣٩٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وانظر كلام الشيخ ناصر في الصحيحة (٣٧٩).

★ **فوائد الحديث:**

وفي هذا الحديث من الفوائد: «الحث على الائتدام بالزيت والإدمان به. وفيه أن علة ذلك أنه من شجرة مباركة وهي شجرة الزيتون»[(١)].

وقوله: «**من شجرة مباركة**»، قال القاري: «يعني ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾[(٢)] ثم وصفها بالبركة لكثرة منافعها، وانتفاع أهل الشام بها كذا قيل، والأظهر لكونها تنبت في الأرض التي بارك اللَّه فيها للعالمين.. ويلزم من بركة هذه الشجرة بركة ثمرتها، وهي الزيتون، وبركة ما يخرج منها، وهو الزيت، وكيف لا وفيه التأدم والتدهن، وهما نعمتان عظيمتان، وفيه تسريج القناديل في المساجد الثلاثة، فما أبركها زمانا ومكانا»[(٣)].

* * *

---

(١) إهداء الديباجة (٤/ ٤٥٤).

(٢) النور: الآية (٣٥).

(٣) المرقاة (٨/ ٥١-٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأنعام: تقال للإبل والبقر والغنم. واحدها: نَعَم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبرون بها فتعرفون بها أيادي اللَّه عندكم، وقدرته على ما يشاء، وأنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يعجزه شيء شاءه ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من اللبن الخارج من بين الفرث والدم ﴿وَلَكُمْ﴾ مع ذلك ﴿فِيهَآ﴾ يعني في الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وذلك كالإبل التي يحمل عليها، ويركب ظهرها، ويشرب درها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني من لحومها تأكلون وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يقول: وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون على هذه في البر وعلى هذه في البحر»[1].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم»[2].

قال الشنقيطي: «وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من الامتنان على خلقه بما يسر لهم من الركوب والحمل على الأنعام والسفن، جاء موضحا في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3] وقوله

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦).
(٣) غافر: الآيتان (٧٩و٨٠).

في الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1] وقوله فيها: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾[2] وقوله في الفلك والأنعام معا: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[3] وقوله في السفن: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[4] وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[6] والآيات بمثل هذا كثيرة، وهذا من نعمه وآياته، وقرن الأنعام بالفلك في الآيات المذكورة لأن الإبل سفائن البر»[7].

* * *

---

(١) يس: الآيتان (٧١و٧٢).
(٢) النحل: الآية (٧).
(٣) الزخرف: الآيات (١٢-١٤).
(٤) يس: الآيتان (٤١و٤٢).
(٥) الحج: الآية (٦٥).
(٦) فاطر: الآية (١٢).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٧٨٩-٧٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة، وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من النعم الفائتة للحصر، وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيرا للمخاطبين، وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثر قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ من حسن الموقع ما لا يوصف»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب اللَّه وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من اللَّه في إشراككم به»[2].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تربصوا: التربص: الانتظار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم في الكفر وشدة شكيمتهم فيه، أي قالوا لعوامهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم، وصفوه بذلك إغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام، وإغراء لهم على معاداته عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام، أي لو شاء اللّه تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة، وإنما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾[1] ونظائره ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة اللّه خاصة وترك عبادة ما سواه، وقيل: بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة في آبائنا الأولين، أي الماضين قبل بعثته عليه السلام، قالوه إما لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة، وإما لفرط غلوهم في التكذيب والعناد، وانهماكهم في الغي والفساد، وأيا ما كان فقولهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادئ دعوته عليه السلام، كما تنبئ عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الخ، وقيل: معناه ماسمعنا به عليه السلام أنه نبي، فالمراد بآبائهم

(١) النحل: الآية (٩).

الأولين الذين مضوا قبلهم في زمن نوح ﷺ، وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخر أمره ﷺ، وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه ﷺ، وقولهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو إلا رجل به جنة، أي جنون أو جن يخيلونه، ولذلك يقول ما يقول: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ﴾ أي احتملوه واصبروا عليه وانتظروا حتى حين، لعله يفيق مما فيه، محمول حينئذ على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد، وإضرابهم عما وصفوه ﷺ به من البشرية، وإرادة التفضل إلى وصفه ﷺ بما ترى، وهم يعرفون أنه ﷺ أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا، وعلى الأول على تناقض مقالاتهم الفاسدة، قاتلهم اللَّه أنى يؤفكون»[(١)].

قال ابن عاشور: «ولما كان السماع المنفي ليس سماعا بآذانهم لكلام في زمن آبائهم، بل المراد ما بلغ إلينا وقوع مثل هذا في زمن آبائنا، عدي فعل (سمعنا) بالباء لتضمينه معنى الاتصال. جعلوا انتفاء علمهم بالشيء حجة على بطلان ذلك الشيء، وهو مجادلة سفسطائية، إذ قد يكون انتفاء العلم عن تقصير في اكتساب المعلومات، وقد يكون لعدم وجود سبب يقتضي حدوث مثله، بأن كان الناس على حق فلم يكن داع إلى مخاطبتهم بمثل ذلك، وقد كان الناس من زمن آدم على الفطرة حتى حدث الشرك في الناس فأرسل اللَّه نوحا، فهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض كما ورد في حديث الشفاعة»[(٢)].

قال الرازي: «ثم إنه سبحانه حكى عنهم شبههم في إنكار نبوة نوح ﷺ.

الشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذه الشبهة تحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال إنه لما كان مساويا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم، والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله، لأن الرسول لا بد وأن يكون عظيما عند اللَّه تعالى وحبيبا له، والحبيب لا بد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة، فلما فقدت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة والثاني: أن يقال هذا الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلا إلا بادعاء النبوة، فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته، فهذا

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٠-١٣١).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٣).

الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرا عنهم ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

الشبهة الثانية: قولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وشرحه أن اللَّه تعالى لو شاء إرشاد البشر، لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد إفضاء إلى المقصود، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد إفضاء إلى هذا المقصود من بعثة البشر، لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم، فالخلق ينقادون إليهم، ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولا ألبتة.

الشبهة الثالثة: قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله بهذا إشارة إلى نوح عليه السلام، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة اللَّه تعالى، أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعي وهو بشر أنه رسول اللَّه، وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقواما لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها. قال القاضي: يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا، لأنه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة، ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم إلى عبادة اللَّه تعالى وحده، لأن آباءهم كانوا على عبادة الأوثان.

الشبهة الرابعة: قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ والجنة: الجنون أو الجن، فإن جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام، فإنه -عليه الصلاة والسلام- كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنه مجنون، ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا.

الشبهة الخامسة: قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهذا يحتمل أن يكون متعلقا بما قبله، أي أنه مجنون فاصبروا إلى زمان حتى يظهر عاقبة أمره، فإن أفاق وإلا قتلتموه، ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا، وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا، فإنه إن كان نبيا حقا فاللَّه ينصره ويقوي أمره، فنحن حينئذ نتبعه، وإن كان كاذبا فاللَّه يخذله ويبطل أمره، فحينئذ نستريح منه، فهذه مجموع الشبه التي حكاها اللَّه تعالى

---

(١) يونس: الآية (٧٨).

عنهم، واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولا إلا لأنه من جنس الملك، وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات، فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر، فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا، بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة، وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة، وأما قولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول، وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد، فالأنبياء منزهون عن ذلك، وأما قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشيء، وهو في غاية السقوط لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء، فعدمه من أين يدل على عدمه، وأما قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، وأما قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ فضعيف لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته، وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته، لأن الدولة لا تدل على الحقية، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله، سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر، ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور لا جرم تركها اللَّه سبحانه»[١].

قلت: هذه الشبه التي بينها الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ وعددها شبهة شبهة وأجاب عنها؛ هي شبه كل الأمم في أنبيائهم، بل هي شبه كل المبطلين في دعاة الحق، فيجلبون عليهم من الشبه ما يحاولون به إقناع عموم الناس ببطلان دعوتهم، كما هو واقعنا الآن في شبه المعاصرين المبطلين العلمانيين الحاقدين الدجالين، فأحيانًا يتهمون الداعية بالتطرف ولا تطرف عنده، وإنما استقامة واعتدال، وأحيانًا يصفونه بالأصولية، والحقيقة أن أصوله الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة من فهم صحيح، وأحيانًا يتهمونه -وقد تلقى العلم عن خيرة العلماء- بأنه وهابي، وهي كلمة افتراها علماء السوء والمنافقون منهم للحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم في الدولة، وبدأ ذلك بعلماء الأتراك المرتزقة في وقتهم، وهكذا لا تنتهي التهم والشبه؛ ولكن الحق

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٩٢-٩٤).

لا بد أن يظهر ويعرفه أهله. فنرجو اللَّه أن يرد كيد الظالمين المخرفين في نحورهم، وأن يجعلهم عبرة للمعاصرين ولمن بعدهم، إنه سميع مجيب.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الفلك: السفينة، يطلق على الجمع والمفرد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[1]، وقال هاهنا: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ فعند ذلك أمره اللَّه تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي من سبق عليه القول من اللَّه بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته واللَّه أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان»[2].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ يقول: قال نوح داعيا ربه مستنصرا به على قومه لما طال أمره وأمرهم وتمادوا في غيهم: ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ على قومي ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يعني بتكذيبهم إياي فيما بلغتهم من رسالتك ودعوتهم إليه من

(١) القمر: الآية (١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨).

توحيدك وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول: فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ وهي السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول: بمرأى منا ومنظر ووحينا: يقول: وبتعليمنا إياك صنعتها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يقول: فإذا جاء قضاؤنا في قومك بعذابهم وهلاكهم»[1].

تنبيه: وفي الآية إثبات صفة العين لله ﷻ، وسيأتي تفصيل الكلام في ذلك عند قوله تعالى من سورة القمر: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٨/ ١٧).

(٢) القمر: الآية (١٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

★ غريب الآية:

مبتلين: الابتلاء: الاختبار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي علوت ﴿أَنتَ﴾ واعتدلت ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ راكبين عليه ﴿فَقُلِ﴾ وكان الظاهر أن يقال: فقولوا أي أنت ومن معك، وإنما أفرد نوحا بالأمر بالدعاء المذكور إظهارا لفضله، وإشعارا في دعائه مندوحة عن دعائهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي حال بيننا وبينهم، وخلصنا منهم كقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].. وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزما، لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب، ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي أنزلني في السفينة. قرئ منزلا بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر، وبفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان، فعلى الأولى التقدير: أنزلني إنزالا مباركا، وعلى الثانية: أنزلني مكانا مباركا»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه نوح ﷺ: وقل إذا سلمك اللّه وأخرجك من الفلك فنزلت عنها ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا﴾ من الأرض ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأنت خير من أنزل عباده المنازل»[3].

---

(١) الأنعام: الآية (٤٥).
(٢) فتح البيان (٩/ ١١٤-١١٥).
(٣) جامع البيان (١٨/ ١٨).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]. وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[2]. فذكر اللّه تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع -وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين- ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي: لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن اللّه تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين»[3].

* * *

---

(١) الزخرف: الآيات (١٢-١٤).

(٢) هود: الآية (٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني عادا ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هودا قاله أكثر المفسرين، وقيل القرن ثمود، والرسول صالح، والأول أصح. ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني هذه الطريقة التي أنتم عليها مخافة العذاب»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح قرنا آخرين فأوجدناهم ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ داعيا لهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يا قوم وأطيعوه دون الآلهة والأصنام، فإن العبادة لا تنبغي إلا له. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ يقول: ما لكم من معبود يصلح أن تعبدوا سواه. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقاب اللَّه بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه»[2].

* * *

(١) اللباب (٣/ ٣٠٤).

(٢) جامع البيان (١٨/ ١٩).

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هيهات : اسم فعل ماض بمعنى : بَعُدَ . قال جرير :

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ وأهلُه ... وهيهاتَ خِلٌّ بالعقيقِ نُواصِلُهْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنى بالرسول في هذا الموضع : صالحا وبقومه : ثمود ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يقول : الذين جحدوا توحيد اللَّه وكذبوا بلقاء الآخرة، وقوله : ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول : ونعمناهم في حياتهم الدنيا بما وسعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق حتى بطروا وعتوا على ربهم وكفروا، ومنه قول الراجز :

وقد أراني بالديار مترفا

وقوله : ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يقول : قالوا : بعث اللَّه صالحا إلينا رسولا من بيننا، وخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا، يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، وكيف لم يرسل ملكا من عنده يبلغنا رسالته؟ قال : ﴿وَيَشْرَبُ

﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ معناه: مما تشربون منه فحذف من الكلام منه لأن معنى الكلام: ويشرب من شرابكم، وذلك أن العرب تقول: شربت من شرابك.

ويقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل الملأ من قوم صالح لقومهم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فاتبعتموه وقبلتم ما يقول وصدقتموه، ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾: يقول: قالوا: إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه. قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ الآية يقول -تعالى ذكره-: قالوا لهم أيعدكم صالح أنكم إذا متم وكنتم ترابا في قبوركم، وعظاما قد ذهبت لحوم أجسادكم وبقيت عظامها، أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم قبل مماتكم؟ وأعيدت ﴿أَنَّكُمْ﴾ مرتين، والمعنى: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون مرة واحدة..

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ هذا خبر من اللّٰه -جل ثناؤه- عن قول الملأ من ثمود أنهم قالوا: هيات هيهات: أي بعيد ما توعدون أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما مخرجون أحياء من قبوركم يقولون ذلك غير كائن.. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يقول: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها نموت ونحيا يقول: تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا فيولدون أحياء، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾: يقول: قالوا: وما نحن بمبعوثين بعد الممات..

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: قالوا ما صالح إلا رجل اختلق على اللّٰه كذبا في قوله ما لكم من إله غير اللّٰه، وفي وعده إياكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون، وقوله: ﴿هُوَ﴾ من ذكر الرسول وهو صالح ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وما نحن له بمصدقين فيما يقول: إنه لا إله لنا غير اللّٰه وفيما يعدنا من البعث بعد الممات»[١].

* * *

(١) جامع البيان (١٨/ ١٩-٢٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

غثاء: الغثاء: ما احتمله السيل من النبات اليابس فألقاه على الجوانب.

بعدًا: هلاكًا. وهي مثل: دَمَارًا وسُحْقًا ونحوها. والبعد ضد القرب. قال النابغة:

فتلكَ تُبْلِغُني النعمان إنَّ له ... فَضْلًا على الناس في الأدْنَى وفي البعدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝﴾ يقول: قال صالح لما أيس من إيمان قومه بالله، ومن تصديقهم إياه بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ رب انصرني على هؤلاء بما كذبون يقول: بتكذيبهم إياي فيما دعوتهم إليه من الحق، فاستغاث صلوات الله عليه بربه من أذاهم إياه وتكذيبهم له، فقال الله له مجيبا في مسئلته إياه ما سأل: عن قليل يا صالح ليصبحن مكذبوك من قومك على تكذيبهم إياك نادمين، وذلك حين تنزل بهم نقمتنا فلا ينفعهم الندم، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ يقول -تعالى ذكره-: فانتقمنا منهم فأرسلنا عليهم الصيحة فأخذتهم بالحق، وذلك أن الله عاقبهم باستحقاقهم العقاب منه بكفرهم به وتكذيبهم رسوله، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ يقول: فصيرناهم بمنزلة الغثاء، وهو ما ارتفع على السيل ونحوه، كما لا ينتفع به في شيء، فإنما هذا مثل. والمعنى: فأهلكناهم فجعلناهم كالشيء الذي لا منفعة فيه»[1].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝﴾

★ غريب الآية:

قرونًا: أي أممًا. قال الشاعر:

تِلْكَ القُرُونُ وَرِثْنَا الأرضَ بَعْدَهُم ... فَمَا يُحِسُّ عليها مِنْهُم أَرِمُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم أحدثنا من بعد هلاك ثمود قوما آخرين، وقوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ يقول: ما يتقدم هلاك أمة من تلك الأمم التي أنشأناها بعد ثمود قبل الأجل الذي أجلنا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي أجلنا لهلاكها. والوقت الذي وقتنا لفنائها، ولكنها تهلك لمجيئه، وهذا وعيد من الله لمشركي قوم نبينا محمد ﷺ، وإعلام منه لهم أن تأخيره في آجالهم مع كفرهم به، وتكذيبهم رسوله ليبلغوا الأجل الذي أجل لهم فيحل بهم نقمته، كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم، وأخرى على سبيل الإجمال كههنا، وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام.

فأما قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝﴾ فالمعنى أنه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا.

أما قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝﴾ فيحتمل في هذا الأجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها، ويحتمل آجال موتها وهلاكها، وإن كان الأظهر

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٣).

في الأجل إذا أطلق أن يراد به وقت الموت، فبين أن كل أمة لها آجال مكتوبة في الحياة والموت، لا يتقدم ولا يتأخر، منبها بذلك على أنه عالم بالأشياء قبل كونها، فلا توجد إلا على وفق العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) نوح: الآية (٤).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تترى: أي متتابعين، بعضهم إِثْرَ بعض.

أحاديث: جمع أحدوثة، وهي الأخبار التي يتحدث بها عجبًا وتسلية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «معنى الآية: ثم بعد تلك القرون أرسلنا رسلا، أي: أرسلناهم إلى أمم أخرى، لأن إرسال الرسول يستلزم وجود أمة، وقد صرح به في قوله: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ والمعنى: كذبه جمهورهم وربما كذبه جميعهم.

وفي حديث ابن عباس عند مسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد..**»[(١)] الحديث»[(٢)].

قال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه اللَّه بالغرق والصيحة فلذلك قال: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي بالهلاك.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يمكن أن يكون المراد جمع الحديث، ومنه أحاديث رسول اللَّه ﷺ، والمعنى أنه سبحانه بلغ في إهلاكهم مبلغا صاروا معه أحاديث، فلا يرى منهم عين ولا أثر، ولم يبق منهم إلا الحديث الذي يذكر ويعتبر به.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١) والبخاري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٥٧٥٢) ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠) والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٣).

ويمكن أيضا أن يكون جمع أحدوثة مثل الأضحوكة والأعجوبة، وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا.

ثم قال: ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على وجه الدعاء والذم والتوبيخ، ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب، وذلك وعيد شديد»[1].

قال الشنقيطي: «أما الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية فهي كثيرة جدا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[4] الآية والآيات بمثل هذا كثيرة جدا.

أما الآية التي بينت استثناء أمة واحدة من هذه الأمم فهي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5] الآية. وظاهر آية الصافات أنهم آمنوا إيمانا حقا، وأن الله عاملهم به معاملة المؤمنين، وذلك في قوله في يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[6] لأن ظاهر إطلاق قوله: فآمنوا، يدل على ذلك. والعلم عند الله تعالى. ومن الأمم التي نص على أنه أهلكها وجعلها أحاديث سبأ، لأنه تعالى قال فيهم: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[7]»[8].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠١).
(٢) سبأ: الآية (٣٤).
(٣) الزخرف: الآية (٢٣).
(٤) الأعراف: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٥) يونس: الآية (٩٨).
(٦) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).
(٧) سبأ: الآية (١٩).
(٨) أضواء البيان (٥/ ٧٩١-٧٩٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم أرسلنا بعد الرسل الذين وصف صفتهم قبل هذه الآية موسى وأخاه هارون، إلى فرعون وأشراف قومه من القبط ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقول: بحججنا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتباعها والإيمان بما جاءهم به من عند اللَّه ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ يقول: وكانوا قوما عالين على أهل ناحيتهم، ومن في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم قاهرين لهم..

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فقال فرعون وملؤه ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ فنتبعهما ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ من بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم ويدينون لهم، والعرب تسمي كل من دان لملك عابدا له، ومن ذلك قيل لأهل الحيرة: العباد لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم»[1].

قال الرازي: «اختلفوا في (الآيات) فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع، وهي: العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات، وقال الحسن قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بديننا، واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطان المبين أيضا هو المعجز، فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه، والأقرب هو الأول، لأن لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات، وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٤-٢٥).

العصا، لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربها بها، وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله: ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[١].

وثانيها: يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات، وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام.

وثالثها: أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة، وأنه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هارون عليه السلام أيضا، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم. أما صفتهم فأمران:

أحدهما: الاستكبار والأنفة.

والثاني: أنهم كانوا قوما عالين، أي رفيعي الحال في أمور الدنيا، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة. وأما شبهتهم فهي قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ قال صاحب «الكشاف» لم يقل مثلينا كما قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[٢] ولم يقل أمثالهم وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[٣] ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار، والشبهة مبنية على أمرين: أحدهما: كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه والثاني: أن قوم موسى وهارون كانوا كالخدم والعبيد لهم، قال أبو عبيدة العرب تسمي كل من دان لملك عابدا له، ويحتمل أن يقال إنه كان يدعي الإلهية، فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة، ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب، وهو المراد من قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾. ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه

---

(١) البقرة: الآية (٩٨).

(٢) النساء: الآية (١٤٠).

(٣) آل عمران: الآية (١١٠).

بفاء التعقيب، فقال وكانوا ممن حكم اللَّه عليهم بالغرق، فإن حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم اللَّه تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠٢-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ربوة: الربوة: ما ارتفع من الأرض فزادت على ما حولها.

معين: أي جار ظاهر يُرَى بالعين. من مَعَنَ الماءُ: إذا جَرى وسالَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ التوراة ليهتدي بها قومه من بني إسرائيل ويعملوا بما فيها ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ حجة لنا على من كان بينهم وعلى قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أصل، كما أنشأنا خلق عيسى من غير أب»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾، وأيَّة آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر، فالآية أمر واحد نسب إليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد فظهرت منه معجزات جمة، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين، وهما كونه -عليه الصلاة والسلام- ابنها وكونها أمه -عليه الصلاة والسلام- للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية، فإن نسبته -عليه الصلاة والسلام- إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له، أي جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب، وأمه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية، وتقديمه -عليه الصلاة والسلام- لأصالته فيما ذكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ، ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ وآويناهما إلى ربوة أي أرض مرتفعة، قيل هي إيليا أرض بيت المقدس فإنها

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٥).

(٢) الأنبياء: الآية (٩١).

مرتفعة وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب، وقيل دمشق وغوطتها، وقيل فلسطين والرملة، وقيل مصر فإن قراها على الربا، وقرئ بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها، وقيل ذات ثمار وزروع لأجلها يستقر فيها ساكنوها، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى، وأصله الإبعاد في المشي، أو من الماعون وهو النفع لأنه نفاع، أومفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون، وصف ماءها بذلك للإيذان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب، وسقي ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة، والتنزه بمنظره المؤنق»[1].

قال ابن عاشور: «أما قوله: ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ فهو إدماج لتسفيه اليهود فيما رموا به مريم عليها السلام، فإن ما جعله اللَّه آية لها ولابنها جعلوه مطعنا ومغمزا فيهما»[2].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المرسلين، -عليهم الصلاة والسلام- أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحا، فجزاهم اللّه عن العباد خيرا»[١].

قال أبو السعود: «﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي عملا صالحا، فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم، ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٞ﴾ أجازيكم عليه»[٢].

قال ابن عاشور: «وعطف العمل الصالح على الأمر بأكل الطيبات إيماء إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣] والمراد به ما تناولوه من الخمر قبل تحريمها وقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة، لأن ذلك يتضمن الوعد بالجزاء عنها، وأنه لا يضيع منه شيء، فالخبر مستعمل في التحريض»[٤].

قال السعدي: «أمر اللّه المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝١٧٢﴾[٥] فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفترقون إلا عصيانا»[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢).
(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٨).
(٣) المائدة: الآية (٩٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٩).
(٥) البقرة: الآية (١٧٢).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٥٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأنبياء أشرف الناس وكانوا يعملون حسب أحوالهم وحاجتهم

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾[1] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[2] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»[3].

★ غريب الحديث:

إن الله طيب: معناه أن الله ﷻ مقدس منزه عن النقائص والعيوب كلها. وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾[4].

والمراد المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها[5].

أشعث أغبر: يقال: شعث الشعر شعثا وشعوثه تغبر وتلبد. ويقال: أشعث فلان وشعث رأسه وبدنه: اتسخ. فهو أشعث وهي شعثاء.

أغبر: أي علاه الغبار وصار لونه كلون الغبار.

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل، ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره: «**إن الله لا يقبل إلا طيبا**» إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) المؤمنون: الآية (٥١). (٢) البقرة: الآية (١٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٨) ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥) والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩) وقال: «حسن غريب».

(٤) النور: الآية (٢٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (١٠٩).

ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٢].

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالا، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولا؟

وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[٣].

وقوله: «ثم ذكر الرجل» الحديث.

قال الطيبي: «وكل هذه الحالات دالة على غاية الاستحقاق الداعي للإجابة، ودلت تلك الخيبة على أن الصارف قوي، والحاجز مانع شديد»[٤].

وقال: «قال الأشرف: فيه إيذان بأن حل المطعم والمشرب مما يتوقف عليه إجابة الدعاء، ولهذا قيل: إن للدعاء جناحين: أكل الحلال وصدق المقال»[٥].

قال المباركفوري: «وفي الحديث الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره. وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحوها ينبغي أن يكون حلالا خالصا لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره»[٦].

وفي الحديث يقول الشنقيطي: «دلالة واضحة أن دعاءه الذي من أعظم القرب لم ينفعه، لأنه لم يأكل من الحلال ولم يشرب منه، ولم يركب منه»[٧].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[٨].

---

(١) المؤمنون: الآية (٥١).
(٢) البقرة: الآية (١٧٢).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).
(٤) الكاشف (٧/ ٢٠٩٦).
(٥) الكاشف (٧/ ٢٠٩٧).
(٦) التحفة (٨/ ٢٦٧).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٧٩٤).
(٨) أخرجه: البخاري (٤/ ٥٥٦/ ٢٢٦٢) وابن ماجه (٢/ ٧٢٧/ ٢١٤٩).

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ نجني الكباث، وإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه**». قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**وهل من نبي إلا وقد رعاها؟**»[1].

★ **غريب الحديث:**

الكباث: بفتح الكاف، ثمر الآراك، ويقال ذلك للنضيج منه.

★ **فوائد الحديثين:**

قال أبو عمر: «في هذا الحديث إباحة التحدث عن الماضين من الأنبياء والأمم لسيرهم وأخبارهم، وفيه أن التحرف في المعيشة ليس في شيء منها إذا لم تنه عنه الشريعة نقيصة.

وفيه أن الأنبياء والمرسلين أحوالهم في تواضعهم غير أحوال الملوك والجبارين، وكذلك أحوال الصالحين والحمد لله رب العالمين»[2].

وقال الخطابي: «وقوله: «**وهل من نبي إلا رعاها**» يريد أن اللَّه عز وجل لم يضع النبوة في المتملكة وأبناء الدنيا والمترفين منهم، وإنما جعلها في رعاء الشاء، وأهل التواضع من أصحاب الحرف، كما روي أن أيوب كان خياطا، وزكريا نجارا، وقد قص اللَّه علينا من نبإ موسى وشعيب، واستئجاره إياه في رعيه الغنم، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته»[3].

قلت: وقد مضى القول في الحكمة من إلهام اللَّه أنبياءه رعي الغنم قبل النبوة فيما مضى من هذا الكتاب فلا معنى لإعادته هنا واللَّه الموفق للصواب.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خفف على داود عليه السلام القرآن. فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده**»[4].

★ **غريب الحديث:**

فتسرج: أي يشد عليها السرج وهو الرحل.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٦) والبخاري (٦/ ٥٤١-٥٤٢/ ٣٤٠٦) ومسلم (٣/ ١٦٢١/ ٢٠٥٠).

(٢) التمهيد (فتح البر ١/ ٢٧). (٣) أعلام الحديث (٣/ ١٥٥٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٦/ ٥٦٠/ ٣٤١٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفة في الأرض كما قال اللَّه تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد»(١).

وقال: «قال ابن المنذر: إنما يفضل عمل اليد سائر المكاسب إذا نصح العامل، كما جاء مصرحا به في حديث أبي هريرة. قلت: ومن شرطه أن لا يعتقد أن الرزق من الكسب بل من اللَّه تعالى بهذه الواسطة، ومن فضل العمل باليد الشغل بالأمر المباح عن البطالة واللهو، وكسر النفس بذلك، والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير»(٢).

وقال: «وقد استدل به على مشروعية الإجارة، من جهة أن عمل اليد أعم من أن يكون للغير أو للنفس، والذي يظهر أن الذي كان يعمله داود بيده هو نسج الدروع، وألان اللَّه له الحديد، فكان ينسج الدروع ويبيعها ولا يأكل إلا من ثمن ذلك، مع كونه كان من كبار الملوك، قال اللَّه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾(٣)، وفي حديث الباب أيضا ما يدل على ذلك، وأنه مع سعته بحيث إنه كان له دواب تسرج إذا أراد أن يركب ويتولى خدمتها غيره، ومع ذلك كان يتورع ولا يأكل إلا مما يعمل بيده»(٤).

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﵄ أن رسول اللَّه ﷺ قال له: «**أحب الصلاة إلى اللَّه صلاة داود** ﵇، وأحب الصيام إلى اللَّه صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما»(٥).

★ **فوائد الحديث:**

«الغرض من إيراد ابن كثير لهذا الحديث بعد حديث أبي هريرة المتقدم تحت

---

(١) الفتح (٤/ ٣٨٤).
(٢) الفتح (٤/ ٣٨١).
(٣) ص: الآية (٢٠).
(٤) الفتح (٦/ ٥٦٢-٥٦٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠) والبخاري (٣/ ٢٠/ ١١٣١) ومسلم (٢/ ٨١٦/ ١١٥٩[١٨٩]) وأبو داود (٢/ ٨٢١/ ٢٤٤٨) والنسائي (٤/ ٥١٢/ ٢٣٤٣) وابن ماجه (١/ ٥٤٦/ ١٧١٢).

هذه الآية التنبيه على أن أكل الحلال أعظم عون على العمل الصالح، وأنه سبب لقبوله عند اللَّه تعالى وأن داود كباقي جملة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قد امتثلوا ما أمروا به من الأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال فقاموا بذلك أتم قيام وجمعوا بين كل خير قولا وعملا ودلالة ونصحا»[١].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما: الإخبار بأن أحب الصيام إليه تعالى صيام داود -عليه الصلاة والسلام-، والآخر: الإخبار بأن أحب الصلاة إلى اللَّه صلاة داود -عليه الصلاة والسلام- أيضا»[٢].

قوله: «**كان ينام نصف**» الحديث، «قال المهلب: هذا يدل أن داود كان يجم نفسه بنوم أول الليل، ثم يقوم في الوقت الذي ينادي فيه اللَّه تعالى: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ ثم يستدرك من النوم ما يستريح فيه من نصب القيام في بقية الليل.

وإنما صارت هذه الطريقة أحب إلى اللَّه من أجل الأخذ بالرفق على النفوس التي يخشى منها السآمة والملل، الذي هو سبب إلى ترك العبادة، واللَّه يحب أن يديم فضله، ويوالي إحسانه أبدا»[٣].

قال الحافظ: «وفيه الإشارة إلى الاقتداء بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في أنواع العبادات»[٤].

قال ابن أبي جمرة: «وفيه دليل على حسن الدعاء إلى الخير، يؤخذ ذلك من إخباره ﷺ بخير الوجوه في الصوم وفي الصلاة بالليل، ولم يقل لهم بعزيمة افعلوا كذا، وساقه في طريق الإخبار عن من تقدم من الأنبياء صلوات اللَّه عليهم أجمعين، فجاء إرشاده ﷺ في هذا الحديث بذكر أحوال من تقدم من الأنبياء عليهم السلام مثل القصص في القرآن، وقد قال علماؤنا إن كانت القصة تدل على عمل خير، فقد طلب منك بالضمن، وإن كانت تدل على ترك شر، فقد طلب منك تركه بالضمن

---

(١) مستفاد من كلام ابن كثير في تفسير: الآية (٥/ ٤٨٩).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٣٩).

(٣) شرح ابن بطال (٣/ ١٢٢-١٢٣).

(٤) الفتح (٤/ ٢٨٣).

أيضا، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها في صفته عليه السلام: (كان خلقه القرآن)[١] أي إنه كان يمشي في جميع شأنه كله على ما دل عليه القرآن وعلى أسلوبه»[٢].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني. قال سفيان: والعاني الأسير**»[٣].

* عن أبي هريرة قال: (ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض)[٤].

* عن أبي هريرة: أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب، فاستقرأته آية من كتاب اللَّه، فدخل داره وفتحها علي، فمشيت غير بعيد فخررت لوجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول اللَّه ﷺ قائم على رأسي فقال: «**يا أبا هريرة، فقلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك، فأخذ بيدي فأقامني وعرف الذي بي، فانطلق بي إلى رحله فأمر لي بعس من لبن فشربت منه، ثم قال: عد فاشرب يا أبا هر، فعدت فشربت، ثم قال: عد فعدت فشربت حتى استوى بطني فصار كالقدح. قال: فلقيت عمر وذكرت له الذي كان من أمري وقلت له: تولى ذلك من كان أحق به منك يا عمر، واللَّه لقد استقرأتك الآية ولأنا أقرأ لها منك. قال عمر: واللَّه لأن أكون أدخلتك أحب إلي من أن يكون لي مثل حمر النعم**»[٥].

⋆ غريب الحديث:

جهد: بالضم والفتح بمعنى والمراد به المشقة وهو في كل شيء بحسبه.

فاستقرأته آية: أي سألته أن يقرأ علي آية من القرآن معينة على طريق الاستفادة.

فدخل داره وفتحها علي: أي قرأ علي وأفهمني إياها.

بعس: بضم العين المهملة بعدها مهملة هو القدح الكبير.

استوى بطني: أي استقام من امتلاء من اللبن.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣-٥٤) ومسلم (١/ ٥١٢-٥١٤/ ٧٤٦) وأبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢) والنسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٠٠) مطولا.

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٤٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٦) والبخاري (٩/ ٥١٧/ ٥٣٧٣) وأبو داود (٣/ ٤٧٩/ ٣١٠٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٤/ ٧٤٩٢).

(٤) أخرجه: البخاري (٩/ ٦٤٦/ ٥٣٧٤) ومسلم (٤/ ٢٢٨٤/ ٢٩٧٦).

(٥) أخرجه: البخاري (٩/ ٥١٧/ ٥٣٧٥).

كالقدح: بكسر القاف وسكون الدال بعدها حاء مهلمة هو السهم الذي لا ريش له.

★ فوائد الأحاديث:

أورد البخاري هذه الأحاديث الثلاثة في كتاب الأطعمة من صحيحه وترجم لها بثلاث آيات من كتاب اللَّه تعالى ومن جملتها قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وغرضه من ذلك واللَّه أعلم بيان أحوال الأطعمة وصفاتها من شبع وجوع وحل وحرمة واستلذاذ واستقباح، وما ينشأ عن ذلك من إطعام وتركه.

قال الحافظ: «ذكر لي محدث الديار الحلبية برهان الدين أن شيخنا سراج الدين البلقيني قال: ليس في هذه الأحاديث الثلاثة ما يدل على الأطعمة المترجم عليها المتلو فيها الآيات المذكورة. قلت: وهو ظاهر إذا كان المراد مجرد ذكر أنواع الأطعمة، أما إذا كان المراد بها ذلك وما يتعلق به من أحوالها وصفاتها فالمناسبة ظاهرة، لأن من جملة أحوالها الناشئة عنها الشبع والجوع؛ ومن جملة صفاتها الحل والحرمة والمستلذ والمستخبث، ومما ينشأ عنها الإطعام وتركه، وكل ذلك ظاهر من الأحاديث الثلاثة. وأما الآيات فإنها تضمنت الإذن في تناول الطيبات، فكأنه أشار بالأحاديث إلى أن ذلك لا يختص بنوع من الحلال ولا المستلذ، ولا بحالة الشبع ولا بسد الرمق، بل يتناول ذلك بحسب الوجدان، وبحسب الحاجة، واللَّه أعلم»[1].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ يقول القرطبي: «أن النبي ﷺ لم يكن يديم الشبع، ولا الترفه في العيش، لا هو ولا من حوته بيوته ولا آله. بل كانوا يأكلون ما خشن من المأكل العلق، ويقتصرون منه على ما يسد الرمق، معرضين عن متاع الدنيا، مؤثرين ما يبقى على ما يفنى. ثم لم يزل كذلك حالهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بحذافيرها لديهم، إلى أن وصلوا إلى ما طلبوا، وظفروا بما فيه رغبوا»[2].

---

(١) الفتح (٩/ ٦٤٩-٦٥٠).

(٢) المفهم (٧/ ١٢٨-١٢٩).

قال ابن بطال: «وفيه -أي حديث أبي هريرة- ما كان السلف عليه من الصبر من التقلل، وشظف العيش، والرضا باليسير من الدنيا، ألا ترى أن أبا هريرة لم يكن له هم إلا سد عمر جوعته فقط، فلما سقاه النبي ﷺ، حتى روي أقنعه ذلك ولم يطلب سواه، ودل على إيثارهم للبلغة من الدنيا وطلبهم للكفاية»[1].

* * *

(١) شرح البخاري (٩/ ٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور، مسوق لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والأمم، وإنما أشير إليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد، وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ملة وشريعة متحدة في أصول الشرائع، التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، وقيل هذه إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل والمعنى: إن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ من غير أن يكون لي شريك في الربوبية، وضمير المخاطب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي في شق العصا، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بي للرسل والأمم جميعا، على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب، والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى، واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما»[1].

قال الرازي: «المعنى أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة، فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية اللَّه تعالى. فإن قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا؟ قلنا: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات اللَّه تعالى وصفاته، وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا ههنا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة اللَّه تعالى واتقاء معاصيه، فلا مدخل للشرائع، وإن اختلفت في ذلك»[2].

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٨).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠٥-١٠٦).

قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾

★ **غريب الآية:**

زُبُرًا: الزُّبُر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة العظيمة. وزُبُرًا معناها: فرقًا وأحزابًا كقطع الحديد في تفرقها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «جيء بفاء التعقيب لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ أن تقطعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة، فصار دينهم متقطعا قطعا، لكل فريق صنم وعبادة خاصة به. فضمير (تقطعوا) عائد إلى الأمم المفهوم من السياق الذين هم المقصود من قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾. وضمير الجمع عائد إلى أمم الرسل يدل عليه السياق، فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجيبا من حالهم. ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي وهم ليسوا بحال من يفرح»[1].

قال الرازي: «وفي قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ معنى المبالغة في شدة اختلافهم، والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين.. أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ فمعناه أن كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى المحق أنه الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٢).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/١٠٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان أن الافتراق المحذر منه إنما هو في أصول الدين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[١].

ومن حديث معاوية: «**كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»[٢].

ومن حديث عبد اللَّه بن عمرو: «**كلها في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وهذا يبين أن الافتراق المحذر منه في الآية والحديث إنما هو في أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مللا، وأخبر أن التمسك بشيء من تلك الملل موجب لدخول النار.

ومثل هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار، قال اللَّه تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤]»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٣٢١/ ٣٩٩١) وصححه ابن حبان (١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧) وصححه الحاكم (١/ ١٢٨) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٢) وأبو داود (٥/ ٥-٦/ ٤٥٩٧) والحاكم (١/ ١٢٨)، وقال عقبه -وقد ساقه كشاهد لحديث أبي هريرة-: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»، وحسن الحافظ إسناده في تخريج الكشاف (١/ ٤٤٩ هامش تخريج الكشاف للزيلعي).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه». والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، وفيه عبدالرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف، والحديث حسن بشاهديه المتقدمين.

(٤) المائدة: الآية (٤٨).

(٥) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

* **غريب الآية:**

ذرهم: اتركهم.

غمرتهم: الغمرة: الحيرة والغفلة والجهل. أصلها الماء الكثير الذي يغمر أي يغطي ويستر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «لما ذكر اللَّه تعالى تفرق هؤلاء في دينهم أتبعه بالوعيد، وقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ الخطاب لنبينا ﷺ يقول: فدع هؤلاء الكفار في جهلهم، والغمرة الماء الذي يغمر القامة، فكأن ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا ساترا لعقولهم. . وذكروا في الحين وجوها: أحدها: إلى حين الموت. وثانيها: إلى حين المعاينة. وثالثها: إلى حين العذاب، والعادة في ذلك أن يذكر في الكلام، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة، وذلك يحصل إذا عرفهم اللَّه بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم، ويحصل أيضا عند المحاسبة في الآخرة، ويحصل عند عذاب القبر والمساءلة، فيجب أن يحمل على كل ذلك.

ولما كان القوم في نعم عظيمة في الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم، فبين سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ قرئ يمدهم ويسارع بالياء والفاعل هو اللَّه سبحانه، وفي المعنى وجهان: أحدهما: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا لهم في المعاصي، واستجرارا لهم في زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات، وبل للاستدراك لقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ يعني بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في ذلك، أهو استدراج أم مسارعة في الخير، وهذه

الآية كقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾[1].. الوجه الثاني: وهو أنه سبحانه إنما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغي البال، متمكنين من الاشتغال بكلف الحق، فإذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه، كان لزوم الحجة عليهم أقوى، فلذلك قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾»[2].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من تهديد الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، جاء موضحا في مواضع أخر. كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾[3] وقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾[4] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[5] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[6]»[7].

* * *

---

(١) التوبة: الآية (٨٥).
(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠٦-١٠٧).
(٣) الحجر: الآية (٣)
(٤) الطارق: الآية (١٧).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٠).
(٦) الزمر: الآية (٨).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٧٩٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب اللّه مشفقون فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادون في طلب مرضاته»[1].

قال الخازن: «المعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية اللّه خائفون من عقابه. قال الحسن البصري: المؤمن جمع إحسانا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنا»[2].

قال ابن كثير: «﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخبارا عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾[3]، أي: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر اللّه وقضائه، وما شرعه اللّه فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيرا فهو حق»[4].

* * *

(١) جامع البيان (١٨/ ٣٠).

(٢) اللباب (٣/ ٣٠٧).

(٣) التحريم: الآية (١٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأنه لا نظير له ولا كفء له»[١].

قال الرازي: «وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى لأن ذلك داخل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي، وهو أن يكون مخلصا في العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم»[٢].

قلت: ما قاله الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تخصيص الشرك الخفي فيه نظر، والصحيح عموم الآية وأن الشرك بكل أنواعه مقصود في الآية، وما علل به رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظر أيضًا، فقد يكون مع الإنسان إيمان ويقع في الشرك، فالمطلوب كمال الإيمان ومفارقة الشرك بكل أنواعه.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من حقق التوحيد دخل الجنة

* عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[٣].

* عن حصين عن عامر عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، فذكرته لسعيد بن جبير فقال: حدثنا ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ١٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦) وأبو داود (٤/ ٢١٣/ ٣٨٨٤) والترمذي (٤/ ٣٤٥/ ٢٠٥٧).

رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل بل هذا موسى وقومه. قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق. ثم قيل لي: انظر ها هنا وها هنا -في آفاق السماء- فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب. ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا ولدنا في الجاهلية. فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون. فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: **سبقك بها عكاشة**»[(١)].

★ غريب الحديث:

حمة: اسم ذوات السموم وقد تسمى إبرة العقرب والزنبور حمة وذلك لأنها مجرى السم.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «قوله: «**لا رقية من عين أو حمة**»، معناه لا رقية أولى وأشفى من رقية العين وكان ﷺ يرقي ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**»[(٢)]. والحمة سم كل شيء يلدغ أو يلسع، وقد ثبت أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ رقى لديغا بفاتحة الكتاب وأخذ عليه جعلا، فطيبه له رسول الله ﷺ وقال: «**ما أدراك أنها رقية**»[(٣)]؟ فإذا كانت الرقية بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة وإنما جاءت الكراهة فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه يكون كفرا أو قولا يدخله شرك.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١) والبخاري (١٠/ ١٩١/ ٥٧٠٥) ومسلم (١/ ١٩٩/ ٢٢٠) والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري (٦/ ٥٠٣/ ٣٣٧١) وأبو داود (٥/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٧٣٧) والترمذي (٤/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٢٠٦٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٠/ ١٠٨٤٤-١٠٨٤٥) وابن ماجه (٢/ ١١٦٤-١١٦٥/ ٣٥٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢) والبخاري (٤/ ٥٧١/ ٢٢٧٦) ومسلم (٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠١) وأبو داود (٣/ ٧٠٣/ ٣٤١٨) والترمذي (٤/ ٣٤٨/ ٢٠٦٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٤-٢٥٥/ ١٠٨٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فأما قوله: «**هم الذين لا يسترقون**» فليس في ثنائه على هؤلاء ما يبطل جواز الرقية التي قد أباحها، ووجه ذلك أن يكون تركها من ناحية التوكل على اللَّه، والرضا بما يقضيه من قضاء، وينزله من بلاء، وهذا من أرفع درجات المؤمنين المتحققين بالإيمان، وقد ذهب هذا المذهب من صالحي السلف أبو الدرداء وغيره من الصحابة، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعبد اللَّه بن مسعود، وقد يحتمل أن يكون الذي كره من الرقية ما كان منها على مذهب التمائم التي كانوا يتعلقونها، والعوذ التي كان أهل الجاهلية يتعاطونها، يزعمون أنها ترفع عنهم الآفات، ويرون معظم السبب في ذلك من قبل الجن ومعونتهم، وهذا النوع من الرقى محظور على أهل الدين، محرم عليهم التصديق بها والاعتقاد لشيء منها»[1].

قال ابن بطال: «قال الطبري: أما قوله ﷺ: «**لا يتطيرون ولا يسترقون**» فمعناه -واللَّه أعلم- الذين لا يفعلون شيئا من ذلك معتقدين أن البرء إن حدث عقيب ذلك كان من عند غير اللَّه، وأنه كان بسبب الكي والرقية، وأن الذي يتطير منه لو لم ينصرف من أجله ومضى كان في مضيه إن أصابه مكروه من قبل مضيه لا من قبل اللَّه.

فأما من انصرف ومضى وهو في كلا حاليه معتقد أنه لا ضار ولا نافع غير اللَّه تعالى، وأن الأمور كلها بيده، فإنه غير معني بقوله: «**لا يكتوون ولا يتطيرون**».

قال أبو الحسن القابسي: معنى لا يسترقون، يريد الاسترقاء الذي كانوا يسترقونه في الجاهلية عند كهانهم، وهو استرقاء بما ليس في كتاب اللَّه ولا بأسمائه وصفاته، وإنما هو ضرب من السحر، فأما الاسترقاء بكتاب اللَّه والتعوذ بأسمائه وكلماته فقد فعله الرسول ﷺ، وأمر به، ولا يخرج ذلك من التوكل على اللَّه، ولا يرجى في التشفي به إلا رضا الله»[2].

قوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**» قال ابن بطال: «قال الطبري: فبان أن معنى الحديث ما قلناه، وأن الصواب في حد التوكل الثقة باللَّه -تعالى-، والاعتماد في الأمور عليه، وتفويض كل ذلك إليه، بعد استفراغ الوسع في السعي فيما بالعبد الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه، على ما أمر به من السعي فيه، لا ما قاله الزاعمون

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ٢١١٥-٢١١٧).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٤٠٤-٤٠٥).

أن حده الاستسلام للسباع، وترك الاحتراز من الأعداء، ورفض السعي للمكاسب والمعاش، والإعراض عن علاج العلل؛ لأن ذلك جهل وخلاف لحكم اللَّه في عباده، وخلاف حكم رسوله في أمته وفعل الأئمة الراشدين»[1].

* * *

(١) شرح ابن بطال (٩/ ٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وجلة: خائفة، من وجل يوجل وجلا: إذا خاف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «يعطون ما أعطوا وقال الطبري: يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة، وروي نحوه عن ابن عمر ومجاهد وإنما ضمهم إلى هذا التخصيص أن العطاء مستعمل في المال على الأغلب، قال ابن عباس وابن جبير: هو عام في جميع أعمال البر، وهذا أحسن كأنه قال: والذين يعطون من أنفسهم في طاعة اللّٰه ما بلغه جهدهم.. وذهبت فرقة إلى أن معناه من المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها وهذا أمدح، وأسند الطبري عن عائشة أنها قالت: يا رسول اللّٰه قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ هي في الذي يزني ويسرق قال: «**لا يا بنت أبي بكر بل هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبه وجل يخاف أن لا يتقبل منه**»[(١)].

قال القاضي أبو محمد: ولا نظر مع الحديث»[(٢)].

قال السعدي: «﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب اللّٰه، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات»[(٣)].

قال ابن عاشور: «ومما يشير إلى معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٤٧-١٤٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٥٩-٣٦٠).

حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فهم عائشة للآية وبيان النبي ﷺ لها

* عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون، قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذي يسارعون في الخيرات**»[3].

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «إن العبد مدة عمله في حياته وإن استقام امتثالا للأوامر، واجتنابا للمناهي، فإنه طول المدة وطول المدى ومهل العيش مع التمادي على صالح العمل لا يثق بالقبول لعمله، ولا بالنجاة من مخاوفه لجهله بالخاتمة، فإنه لا يدري هل يرد عليه ما يحبط عمله أو يعارضه فينقصه، فالأول كالكفر والثاني كالمعصية على اختلاف الأصول والأقوال فيهما، فهو أبدا خائف من ذلك راج فضل اللّه في إدامة العمل له، كذلك حتى يخلص بحسن الخاتمة، وأما الذي يأتي المعاصي، فإما أن يكون غفولا آمنا فهو الهالك، وإما أن يكون مقدما عليها بحكم الشهوة وجلا منها تقية العقوبة، فهي النفس اللوامة التي هي ممدوحة شرعا من جهة لومها لنفسها، وقد أقسم اللّه بها، وقيل النفس اللوامة، التي إذا لامت لم تعد إلى ما لامت نفسها عليه، ولست أرى ذلك فإنها لو لم تعد لكانت مطمئنة، وقول النبي ﷺ لعائشة: «**ليس الذين يعصون وإنما هم الذين يطيعون**» إنما كان كذلك لوصفه لهم بعد ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ والذين يسارعون في الخيرات هم الذين يجتنبون السيئات»[4].

---

(١) الإنسان: الآيات (٨-١٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٩و٢٠٥) والترمذي (٥/ ٣٠٦-٣٠٧/ ٣١٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٤/ ٤١٩٨) والحاكم (٢/ ٣٩٣-٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ٤٠-٤١) بتصرف واختصار.

وقال القاري: «﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي: يعطون ما أعطوه من الزكاة والصدقات، وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر أي: يفعلون ما فعلوه من الطاعات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة أن لا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذون به، وتمامه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي لأن مرجعهم إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: لأجلها فاعلون السبق أو سابقون الناس إلى الطاعات أو الثواب أو الجنة. قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو كذا في نسخ المصابيح وهي القراءة المشهورة، ومعناه يعطون ما أعطوا، وسؤال عائشة رضي اللّه تعالى عنها: (أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون): لا يطابقها، وقراءة رسول اللّه ﷺ: يأتون ما أتوا بغير مد أي: يفعلون ما فعلوا، وسؤالها مطابق لهذه القراءة، وهكذا هو في تفسير الزجاج والكشاف. قلت: مؤدى القراءتين واحد، لأن المراد بالقراءة الشاذة المنسوبة إليه ﷺ قبل قطع طرق التواتر يفعلون ما فعلوه من الطاعة، لا ما ظنت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن المراد به ما فعلوه من المعصية، ولا المعنى الأعم من الخير والشر لعدم مطابقته لقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: أي: النبي ﷺ: لا. أي: ليسوا هم، أو ليس المراد من الآية أمثالهم. «**يا بنت الصديق**»: وفي نسخة يا ابنة الصديق، وفي هذا النداء منقبة عظيمة لها ولأبيها على وجه التحقيق، فكأنه قال: ليس كذلك وأنت الصادقة على ما هو المتعارف من حسن الآداب بين الأحباب، «**ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون**»: فهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ على القراءتين غايته أن في كل نوع منهما تغليب، فالمشهور ظاهرها متعلق بالعبادة المالية، كما أن الشاذة تتعلق بالطاعة البدنية على أن المشهور يمكن أن يقال في تفسيرها: يعطون من أنفسهم ما أعطوا من الطاعات فيشمل النوعين من العبادة، «**وهم يخافون أن لا يقبل منهم**» أي: لا أنهم يخافون مما فعلوا بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: فإنه لا يصح أن يحمل على شربة الخمر وسرقة المال وسائر السيئات»[1].

* * *

(١) المرقاة (٩/ ٢١٠-٢١١).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بها، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم في الفضل، أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي في نيل الخيرات التي من جملها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم، خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم في الخيرات، بل أسند المسارعة إليهم إيماء لكمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[3] الآية»[4].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ كان بعضهم يقول: معناه: سبقت لهم من اللَّه السعادة فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها.. وكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى: وهم إليها سابقون وتأوله آخرون: وهم من أجلها سابقون.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب: القول الذي قاله ابن عباس من أنه سبقت لهم من اللَّه السعادة قبل مسارعتهم في الخيرات، ولما سبق لهم من ذلك سارعوا فيها. وإنما قلت ذلك أولى التأويلين بالكلام لأن ذلك أظهر معنييه، وأنه لا حاجة بنا إذا وجهنا تأويل الكلام إلى ذلك إلى تحويل معنى اللام التي في قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا﴾ إلى غير معناها الأغلب عليها»[5].

---

(١) آل عمران: الآية (١٤٨).
(٢) النحل: الآية (١٢٢).
(٣) آل عمران: الآية (١٣٣).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٠).
(٥) جامع البيان (١٨/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نكلف: التكليف: تحميل ما فيه المشقة بالأمر والنهي. مأخوذ من الكلفة، وهي المشقة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولا نكلف نفسا إلا ما يسعها ويصلح لها من العبادة، ولذلك كلفناها ما كلفناها من معرفة وحدانية اللّه، وشرعنا لها ما شرعنا من الشرائع ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: وعندنا كتاب أعمال الخلق بما عملوا من خير وشر، ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: يبين بالصدق عما عملوا من عمل في الدنيا لا زيادة عليه ولا نقصان، ونحن موفو جميعهم أجورهم المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: وهم لا يظلمون بأن يزاد على سيئات المسيء منهم ما لم يعمله فيعاقب على غير جرمه، وينقص المحسن عما عمل من إحسانه فينقص عما له من الثواب»[(١)].

قال أبو السعود: «جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أي عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من ا لنفوس إلا ما في وسعها، على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار كما مر مرارا، أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم، قال مقاتل: من لم

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٣٥).

يستطع القيام فليصل قاعدا، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء، وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ الخ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الأعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب، والمراد بالكتاب صحائف الأعمال التي يقرءونها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هي عليه، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا، لا أنه أثبت فيه أعمال الأولين وأهمل أعمال الآخرين، ففيه قطع معذرتهم أيضا وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ متعلق بينطق أي يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا، ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع، فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويرتب عليها أجزيتها إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثر بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي لا يظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها، ونطقت بها صحائفها بالحق، وقد جوز أن يكون تقريرا لما قبله من التكليف، وكتب الأعمال، أي لا يظلمون بتكليف ما ليس في وسعهم، ولا بعدم كتب بعض أعمالهم التي من جملتها أعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين، بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها»[2].

* * *

---

(١) الجاثية: الآية (٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

غمرة: أي في غطاء وغفلة. وأصل الغمرة: الستر والتغطية. يقال: غَمَرْتُ الشيء: إذا سترته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1] فلما كانت قلوبهم في غمرة منه عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي فلا تستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن اللّه يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب اللّه وعقابه»[2].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ يريد في ضلال قد غمرها كما يفعل الماء الغمر بما حصل فيه، وقوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾، يحتمل أن يشير إلى القرآن، ويحتمل أن يشير إلى كتاب الإحصاء، ويحتمل أن يشير إلى الأعمال الصالحة المذكورة قبل، أي هم في غمرة من اطراحها وتركها، ويحتمل أن يشير إلى الدين بجملته أو إلى محمد ﷺ، وكل تأويل من هذه قالته فرقة، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾

(١) الإسراء: الآيتان (٤٥و٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٦١).

الإشارة بذلك إلى الغمرة والضلال المحيط، فمعنى الآية بل هم ضالون معرضون عن الحق ولهم مع ذلك سعايات فساد، فوسمهم تعالى بحالتي شر، قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية، وعلى هذا التأويل فالإخبار عما سلف من أعمالهم وعماهم فيه، وقالت فرقة الإشارة بذلك إلى قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ فكأنه قال: لهم أعمال من دون الحق، وقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد: إنما أخبر بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ عما يستأنف من أعمالهم، أي أنهم لهم أعمال من الفساد يستعملونها»[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾

★ **غريب الآية:**

يَجأرون: يستغيثون. وأصل الجؤار: رفع الصوت بالتضرع والدعاء كما تفعل الظباء وغيرها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم﴾ أي متنعميهم وهم الذين أمدهم اللَّه تعالى بما ذكر من المال والبنين، وحتى مع كونها غاية لأعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية، أي لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم بالعذاب، قيل هو القتل والأسر يوم بدر، وقيل هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول اللَّه ﷺ بقوله: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**»[1] فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والأولاد، والحق أنه العذاب الأخروي إذ هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط عن النصر، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾[2] فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتما، وأما عذاب الجوع فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول اللَّه ﷺ لكن لم يرد عليه بالإقناط، حيث روي أنه ﷺ قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ أي فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من اللَّه ﷻ كقوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾[3] وهو جواب الشرط، وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الأخذ بالعذاب، ومفاجأة الجؤار مع

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠) ومسلم (١/ ٤٦٦/ ٦٧٥) وأبو داود (٢/ ١٤٢/ ١٤٤٢) والنسائي (٢/ ٥٤٦-٥٤٧/ ١٠٧٢-١٠٧٣) وابن ماجه (١/ ٣٩٤/ ١٢٤٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) المؤمنون: الآية (٧٦).

(٣) النحل: الآية (٥٣).

عمومه لغيرهم أيضا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم، وكون ذلك أشق عليهم، ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة، فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ على إضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار، وقد جوز كونه جواب الشرط، وأنت خبير بأن المقصود الأصلي في الجملة الشرطية هو الجواب، فيؤدي ذلك إلى أن يكون مفاجأتهم إلى الجؤار غير مقصود أصلي، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه، أي لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم، وقيل لا تغاثون ولا تمنعون منا، ولا يساعده سباق النظم الكريم؛ لأن جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه، فإن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الخ صريح في أنه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفي متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله أو بعزة اللَّه تعالى وقوته»[١].

قال ابن عاشور: «وإنما جعل الأخذ واقعا على المترفين منهم، لأنهم الذين أضلوا عامة قومهم، ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لاتبعت الدهماء الحق؛ لأن العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحق بسبب سلامتهم من جل دواعي المكابرة من توقع تقلص سؤدد وزوال نعيم. وكذلك حق على قادة الأمم أن يؤاخذوا بالتبعات اللاحقة للعامة من جراء أخطائهم ومغامرتهم عن تضليل أو سوء تدبر، وأن يسألوا عن الخيبة أن ألقوا بالذين اتبعوهم في مهواة الخطر، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[٢] وقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٣]»[٤].

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٢-١٤٣).
(٢) الأحزاب: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٣) النحل: الآية (٢٥).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٢).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم -وهم السعداء المنعمون في الدنيا- عذاب اللَّه وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة: أن المنعمين في الدنيا من الكفار، إذا أخذهم اللَّه بالعذاب يوم القيامة، صاحوا مستصرخين مستغيثين، يطلبون الخلاص مما هم فيه، وصراخهم واستغاثتهم المشار له هنا، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾[4] فقوله: يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، مستغيثين يريدون الخروج مما هم فيه، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ فهذا الصراخ المذكور في هذه الآية العام للمترفين وغيرهم، هو الجؤار المذكور عن المترفين هنا، ومن إطلاق العرب الجؤار على الصراخ والدعاء للاستغاثة قول الأعشى:

يراوح من صلوات المليك ... فطورا سجودا وطورا جؤارا

والجؤار المذكور: هو النداء في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾[5] لأن نداءهم نداء استغاثة واستصراخ، وكقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾[6] الآية، لأن القضاء عليهم من أعظم الأمور التي يطلبونها، فيستغيثون بالموت من دوام ذلك العذاب الشديد، أجارنا اللَّه وإخواننا المسلمين منه، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾[7] وذلك الدعاء بالثبور الذي هو أعظم

---

(١) المزمل: الآيات (١١-١٣).
(٢) ص: الآية (٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧).
(٤) فاطر: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٥) ص: الآية (٣).
(٦) الزخرف: الآية (٧٧).
(٧) الفرقان: الآيتان (١٣و١٤).

الهلاك، والويل من أنواع جؤارهم والعياذ باللَّه. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾ يدل على أنهم إن استغاثوا لم يغاثوا، وإن استرحموا لم يرحموا، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٩٧-٧٩٨).

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

★ غريب الآية:

تنكصون: النكوص: رجوع القهقرى، وهو المشي إلى الخلف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين فيما قبل أنه لا ينصر أولئك الكفار، أتبعه بعلة ذلك، وهي أنه متى تليت آيات اللَّه عليهم أتوا بأمور ثلاثة:

أحدها: أنهم كانوا على أعقابهم ينكصون، وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، وهو قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها، كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه.

وثانيها: قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ والهاء في (به) إلى ماذا تعود؟ فيه وجوه: أولها: إلى البيت العتيق أو الحرم، كانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم، والذي يسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وإن لم يكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به، وثانيها: المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد.

وثالثها: أن تتعلق الباء بسامرا، أي يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وهذا هو الأمر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول اللَّه ﷺ ويهجرون»[1].

قلت: هذه الصفات المذكورة في الآية التي رتبها الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ووضحها؛ هي صفة أهل هذا الزمان من المخالفين، الذين لا يألون جهدا في الطعن في السنة والتوحيد، ويصفونهما بأوصاف تنفر سامعها من هذا المنهاج المبارك، فهم يسهرون ويسمرون، ويتآمرون ويدبرون، ويطلبون النصرة من أي جهة يمكن أن تمد لهم يد

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١١١-١١٢).

المساعدة مهما كانت عقيدتها ؛ المهم أن تكون بعيدة عن الإسلام . فما ذكره الله في هذه الآية، وما ذكره الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ واقع تعيشه الدعوة السلفية المتآمر عليها من كل مكان . نسأل الله أن يكفي أهل التوحيد كيد الكائدين، ومكر الماكرين، إنه سميع مجيب .

قال الشنقيطي: «لما بين أن المترفين من الكفار إذا أخذهم ربهم بالعذاب، ضجوا وصاحوا واستغاثوا، وبين أنهم لا يغاثون كما أوضحناه آنفا بين سبب ذلك بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ أي التي أرسلت بها رسلي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: تقرأ عليكم واضحة مفصلة، فكنتم على أعقابكم تنكصون: ترجعون عنها القهقرى. والعقب: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع عن الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[1] ومنه قول الشاعر:

زعموا بأنهم على سبل النجا ... ة وإنما نكص على الأعقاب

وهذا المعنى الذي ذكره هنا: أشار له في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[2] فكفرهم عند الله ذكر الله وحده، من نكوصهم على أعقابهم، وبين في موضع آخر أنهم إذا تتلى عليهم آياته، لم يقتصروا على النكوص عنها على أعقابهم، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم، لشدة بغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾[3] وهذا الذي ذكرنا أن العذاب عذاب يوم القيامة، أظهر عندنا من قول من قال: إنه يوم بدر أو الجوع، ومن قول من زعم: أن الذين يجأرون: هم الذين لم يقتلوا يوم بدر وأن جؤارهم من قبل إخوانهم، فكل ذلك خلاف الظاهر، وإن قاله من قاله»[4].

قال ابن عباس: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قال: مستكبرين بالبيت يقولون: نحن أهله ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قال: كانوا يهجرونه ولا يعمرونه[5].

---

(١) الأنفال: الآية (٤٨).
(٢) غافر: الآيتان (١١و١٢).
(٣) الحج: الآية (٧٢).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٩٨-٧٩٩).
(٥) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٩٤) وقال: «صحيح ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٢/ ١١٣٥١).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل اللَّه وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج اللَّه التي احتج بها عليهم فيه؟ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ يقول: أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم فاستكبروا عن ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسل من قبلهم وأنزلت معهم الكتب، وقد يحتمل أن تكون أم في هذا الموضع بمعنى: بل، فيكون تأويل الكلام: أفلم يدبروا القول؟ بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فتركوا لذلك التدبر وأعرضوا عنه إذ لم يكن فيمن سلف من آبائهم ذلك، وقد ذكر عن ابن عباس في نحو هذا القول.. وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أم لم يعرف هؤلاء المكذبون محمدا وأنه من أهل الصدق والأمانة، ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ يقول: فينكروا قوله أو لم يعرفوه بالصدق، ويحتجوا بأنهم لا يعرفونه يقول -جل ثناؤه-: فكيف يكذبونه وهم يعرفونه فيهم بالصدق والأمانة! ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقول: أيقولون بمحمد جنون، فهو يتكلم بما لا معنى له ولا يفهم ولا يدري ما يقول: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإن يقولون ذلك فكذبهم في ذلك واضح بين، وذلك أن المجنون يهذي فيأتي من الكلام بما لا معنى له ولا يعقل ولا يفهم، والذي جاءهم به محمد هو الحكمة التي لا أحكم منها، والحق الذي لا تخفى صحته على ذي فطرة صحيحة، فكيف يجوز أن يقال: هو كلام مجنون، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما بهؤلاء الكفرة أنهم لم يعرفوا محمدا بالصدق، ولا أن محمدا عندهم مجنون، بل قد علموه صادقا محقا فيما يقول، وفيما يدعوهم إليه، ولكن أكثرهم للإذعان للحق كارهون، ولاتباع

محمد ساخطون، حسدا منهم له، وبغيا عليه واستكبارا في الأرض»[١].

قال الرازي: «ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة:

أحدها: أن لا يتأملوا في دليل ثبوته وهو المراد من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ فبين أن القول الذي هو القرآن كان معروفا لهم، وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ عن التناقض في طول عمره، ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية، فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا إلى الحق.

وثانيها: أن يعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة، وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك لأنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الأمم، وتظهر المعجزات عليها، وكانت الأمم بين مصدق ناج، وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال، أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسول.

وثالثها: أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة، وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ نبه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق، وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين.

ورابعها: أن يعتقدوا فيه الجنون، فيقولون إنما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وهذا أيضا ظاهر الفساد؛ لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس، والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة، ولقد كان من المبغضين له ﷺ من سماه بذلك وفيه وجهان: أحدهما: أنهم نسبوه إلى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له، وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم فنسبوه إلى الجنون لذلك، والثاني: أنهم قالوا ذلك إيهاما لعوامهم لكي لا ينقادوا له، فأوردوا ذلك مورد الاستحقار له.

ثم إنه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه، ونبه على فسادها قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٤١-٤٢).

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ من حيث تمسكوا بالتقليد، ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد ﷺ لزالت مناصبهم، ولاختلت رياساتهم، فلذلك كرهوه، فإن قيل قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه دليل على أن أقلهم لا يكرهون الحق، قلنا كان فيهم من يترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه، وأن يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما حكي عن أبي طالب»[١].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ يتضمن حضهم، على تدبر هذا القول الذي هو القرآن العظيم، لأنهم إن تدبروه تدبرا صادقا، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب، وتصديق من جاء به لازم. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[٢] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾[٣]..

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.. وما نفته هذه الآية الكريمة من دعواهم عليه الجنون صرح الله بنفيه في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[٥] وهذا الجنون الذي افتري على آخر الأنبياء، افتري أيضا على أولهم، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة عن قوم نوح أنهم قالوا فيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ وقد بين في موضع آخر أن الله لم يرسل رسولا إلا قال قومه: إنه ساحر أو مجنون، كأنهم اجتمعوا فتواصوا على ذلك لتواطئ أقوالهم لرسلهم عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[٦] فبين أن سبب تواطئهم على ذلك ليس التواصي به، لاختلاف أزمنتهم، وأمكنتهم. ولكن الذي جمعهم على ذلك هو مشابهة بعضهم لبعض في الطغيان، وقد أوضح هذا المعنى في سورة البقرة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٧] فهذه الآيات تدل على أن سبب تشابه مقالاتهم لرسلهم، هو تشابه

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١١٢-١١٣).
(٢) النساء: الآية (٨٢).
(٣) محمد: الآية (٢٤).
(٤) التكوير: الآية (٢٢).
(٥) الطور: الآية (٢٩).
(٦) الذاريات: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٧) البقرة: الآية (١١٨).

قلوبهم في الكفر والطغيان، وكراهية الحق وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ذكر نحو معناه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾[2] الآية، وذلك المنكر الذي تعرفه في وجوههم، إنما هو لشدة كراهيتهم للحق، ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق. أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه، كما قال تعالى في قصة أول الرسل الذين أرسلهم بتوحيده والنهي عن الإشراك به، وهو نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾[3] وإنما جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم خوف أن يسمعوا ما يقوله لهم نبيهم نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من الحق، والدعوة إليه. وقال تعالى في أمة آخر الأنبياء ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[4] الآية. فترى بعضهم ينهى بعضا عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلبوا الحق بالباطل»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن أدلة النبوة والرسالة العامة متفقة في جميع الأمم والرسالات

* عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق

---

(١) الزخرف: الآية (٧٨).
(٢) الحج: الآية (٧٢).
(٣) نوح: الآية (٧).
(٤) فصلت: الآية (٢٦).
(٥) أضواء البيان (٥/ ٧٩٩-٨٠٢).

هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد اللّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم؛ قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لاهيم اللّه إذا لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما. ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللّه ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه، قالوا: نقول واللّه ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه

إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا اللَّه وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عباة الأوثان من عبادة اللَّه، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن اللَّه من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى واللَّه النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فواللَّه لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد، قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: واللَّه لأنبئنه غدا عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم قالت: فقال له عبد اللَّه بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا، قال: واللَّه لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه لغد، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها. فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول واللَّه فيه ما قال اللَّه وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد اللَّه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت

هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم واللَّه اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، والسيوم الآمنون، من سبكم غرم ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم فما أحب أن لي دبرا ذهبا وإني آذيت رجلا منكم والدبر بلسان الحبشة الجبل- ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فواللَّه ما أخذ اللَّه مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار قالت فو اللَّه إنا على ذلك إذ نزل به يعني من ينازعه في ملكه، قالت: فواللَّه ما علمنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول اللَّه ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر، قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سنا، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا اللَّه للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول اللَّه ﷺ وهو بمكة[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبو سفيان من فيه إلى في، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول اللَّه ﷺ قال: قال: فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من النبي إلى هرقل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، قال: فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي

---

(١) أخرجه مطولا: أحمد (١/ ٢٠٢-٢٠٣) وأخرج طرفًا منه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٣-١٤/ ٢٢٦٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

يزعم أنه نبي؟ قال: أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: وأيم اللَّه، لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت، ثم قال لترجمانه، سله: كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا، يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة، لا ندري ما هو صانع فيها؟ قال: واللَّه ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه -قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا، ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك: هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم، أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على اللَّه، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت: أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت: أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت: أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت: أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله، قال: ثم قال: بما يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف، قال: إن يك ما تقول فيه حقا:

فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، قال: ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ، فقرأه، فإذا فيه بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللَّه، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[١] فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِر أمْر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا بأمر رسول اللَّه ﷺ أنه سيظهر، حتى أدخل اللَّه علي الإسلام.

قال الزهري: فدعا هرقل عظماء الروم، فجمعهم في دار له، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد آخر الأبد، وأن يثبت لكم ملككم؟ قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت، فقال: علي بهم، فدعا بهم، فقال: إني اختبرت شدتكم على دينكم فقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له ورضوا عنه[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

وفي هذين الحديثين من الفوائد غير ما تقدم بيانه في غير هذا الموضع.

«البيان الواضح أن صدق رسول اللَّه ﷺ وعلاماته كان معلوما لأهل الكتاب، ولغيرهم من كفار قريش علما قطعيا، وإنما ترك الإيمان من تركه منهم عنادا، أو حسدا أو خوفا على فوات مناصبهم في الدنيا» قاله العيني[٣].

---

(١) آل عمران: الآية (٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (٨/ ٢٧٠-٢٧٢/ ٤٥٥٣) واللفظ له، ومسلم (٣/ ٣٩٣/ ١٧٧٣) وأبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦) والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤).

(٣) عمدة القاري (١/ ١٦٠-١٦١) بتصرف يسير.

قال ابن القيم: «والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدا . . ومن أعظم هذه الأسباب الحسد فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له، ويكون من أتباعه، وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد، فانه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غص بريقه، واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة . . وهذا السبب وحده كاف في رد الحق، فكيف إذا انضاف إليه زوال الرياسات والمأكل كما تقدم، وقد قال المسور بن مخرمة وهو ابن أخت أبي جهل لأبي جهل يا خالي هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن أختي والله لقد كان محمد ﷺ فينا وهو شاب يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذبا قط قال: يا خال فما لكم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنوا هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي فمتى ندرك مثل هذه، وقال الأخنس بن شريق يوم بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ها هنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش»[١].

قال الخطابي: «إذا تأملت معاني هذا الكلام -أي كلام هرقل- الذي وقع في الفصل الأول من مسألته عن أحوال رسول الله ﷺ، وأطواره وما استقراه من أوصافه، تبينت حسن ما استوصف من أمره، واستبرأه من جوامع شأنه، ولله دره من رجل ما كان أعقله لو ساعد معقوله مقدور»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فمثل هذا السؤال والبحث أفاد هذا العاقل اللبيب علما جازما، بأن هذا هو النبي الذي ينتظره.

وقد اعترض على هذا بعض من لم يدرك غور كلامه وسؤاله كالمازري ونحوه، وقال إنه بمثل هذا لا تعلم النبوة، وإنما تعلم بالمعجزة، وليس الأمر على ما قال،

---

(١) هداية الحيارى (٤١-٤٣).

(٢) أعلام الحديث (١/ ١٣٥).

بل كل عاقل سليم الفطرة إذا سمع هذا السؤال والبحث، علم أنه من أدل الأمور على عقل السائل وخبرته، واستنباطه ما يتميز به هل هو صادق أو كاذب، وأنه بهذه الأمور تميز له ذلك»[١].

وفيهما من الفوائد -يقول العيني-: «أن الرسل لا ترسل إلا من أكرم الأنساب، لأن من شرف نسبه كان أبعد عن الانتقال لغير الحق»[٢].

قال القاضي عياض: «وقول هرقل: (هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل) ثم قوله: (أيكم أقرب نسبا منه): دليل على أن قوم الرجل أعلم به وبما يشينه ويلحق به؛ لقربه منهم»[٣].

قلت: ومما تقدم من كلام الأئمة في توضيح قصة أصحاب رسول اللَّه ﷺ مع النجاشي وقصة أبي سفيان مع هرقل يتبين لنا أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن الحق لا محالة منتصر مهما أخفاه المبطلون وحاولوا صد أصحابه.

ومما يستفاد من قصة النجاشي:

- أن العدو مهما بلغ كيده، ومهما أنفق من مال في صد دعوة التوحيد؛ فإن اللَّه يرد كيده في نحره، كما حصل للذين تتبعوا أصحاب رسول اللَّه ﷺ عند النجاشي.

- الداعي إلى اللَّه تعالى يجعل اللَّه له المخرج والفرج، وكيف لا وهو يعلم أن مع العسر يسرًا.

- المهاجم لدعوة التوحيد يحاول التسلح بالشبه الباطلة، ولا سيما إذا كانت في نظره تخدم علية القوم ورؤوسهم، كما فعل كفار قريش بأصحاب رسول اللَّه ﷺ من ذكر شبهة عيسى عليه السلام، وحسبوا أن النجاشي يعتقد عقيدة المشركين، ولكن اللَّه رد كيدهم في نحرهم، فكان النجاشي من أهل العلم والتوحيد.

- الثبات على التوحيد والسنة هو سبيل النجاة، والتراجع عنهما هو مكمن الخوف والانحراف؛ فإن أصحاب رسول اللَّه ﷺ ثبتوا على توحيدهم، وذكروه للنجاشي ولم يخافوا منه.

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص١٣٢،).

(٢) عمدة القاري (١/ ١٦٠).

(٣) الإكمال (٦/ ١١٨).

- العلم بالدعوة وبأصولها وبأدلتها من أكبر أسباب النصر ؛ فإن جعفر بن أبي طالب شرح للنجاشي دعوة رسول اللَّه ﷺ، فكان لشرحه قبول واضح عند النجاشي .

- ما اتصف به النجاشي من ذكاء وثبات وأمن لأصحاب رسول اللَّه ﷺ فكل ذلك كان سببا لخيره وثبات ملكه .

- الملك لا يدوم إلا بالتوحيد والسنة ونصرته لهما ، وبمخالفته لهذا الأمر تكون الهزيمة ، ومهما كانت قوته فلا شك أنها ستضمحل ، وتاريخ البشرية أكبر شاهد على ذلك .

- من مناقب النجاشي علمه بالنبوات والرسالات ، مما جعله لا يبالي بالشبه ، ولا بما قاله أصحابه وما فعلوه ؛ فإنه ثبت وأمّن أصحاب رسول اللَّه ﷺ .

- يستخلص من هذه القصة كلها صحة نبوة نبينا محمد ﷺ، وأن ما ذكره جعفر رضي الله عنه للنجاشي من الصفات له جعلته يطابق ذلك على ما عنده ، فيثبت على ما هو عليه .

وفي القصة فوائد أخرى .

وأما قصة هرقل مع أبي سفيان فكلها فوائد وصفات للنبي ﷺ، وأدلة عقلية وفطرية تثبت بها نبوة نبينا محمد ﷺ، وأن نبوته متواترة عند أهل الكتاب ، وكان هرقل من أعلم الناس بها ، ولذا كانت أسئلته في دلائل النبوة ، ولهذا عرض على أصحابه الإسلام ، وأمرهم بالدخول فيه ، وبين لهم الوعد والغنائم التي تترتب على ذلك ؛ لكنهم أبوا إلا الكفر والفساد .

وقصة النجاشي وهرقل وقصة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مع ورقة بن نوفل كافية لمن أراد دراسة صفات النبوة والرسالة . فنرجو اللَّه أن يفقهنا في ديننا وأن يمن علينا بالهداية .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو عمل الرب -تعالى ذكره- بما يهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحق لم تقر السماوات والأرض ومن فيهن من خلق اللّه لأن ذلك قيام بالحق.. وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل الذكر في هذا الموضع فقال بعضهم: هو بيان الحق لهم بما أنزل على رجل منهم من هذا القرآن.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: بل أتيناهم بشرفهم وذلك أن هذا القرآن كان شرفا لهم؛ لأنه نزل على رجل منهم، فأعرضوا عنه وكفروا به، وقالوا ذلك نظير قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] وهذان القولان متقاربا المعنى، وذلك أن اللّه -جل ثناؤه- أنزل هذا القرآن بيانا، بين فيه ما لخلقه إليه الحاجة من أمر دينهم وهو مع ذلك ذكر لرسوله ﷺ وقومه وشرف لهم»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو اللّه ﷻ، والمراد: لو أجابهم اللّه إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

(١) الزخرف: الآية (٤٤).

(٢) جامع البيان (١٨/ ٤٢-٤٣).

رَبِّكَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[٢] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾[٣]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ولهذا قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني: القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾»[٤].

* * *

(١) الزخرف: الآيتان (٣١و٣٢).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٠).

(٣) النساء: الآية (٥٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

★ غريب الآية:

خَراج: الخراج والخرج واحد، وهو ما يؤخذ من كراء الأرض ونحوها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند اللَّه جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[2]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نظرا إلى أن بعض المخلوقين يرزق بعضهم كقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾[7] الآية. ولا شك أن فضل رزق اللَّه خلقه، على رزق بعض خلقه بعضهم كفضل ذاته وسائر صفاته على ذوات خلقه، وصفاتهم»[8].

* * *

(١) سبأ: الآية (٤٧).
(٢) ص: الآية (٨٦).
(٣) الشورى: الآية (٢٣).
(٤) يس: الآيتان (٢٠و٢١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩).
(٦) النساء: الآية (٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٣٣).
(٨) أضواء البيان (٥/ ٨٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإنك يا محمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى دين الإسلام وهو الطريق القاصد والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حرصه ﷺ على خير أمته

* عن عمر ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إني ممسك بحجزكم، هلم عن النار، وأنتم تهافتون فيها، أو تقاحمون فيها تقاحم الفراش في النار والجنادب -يعني في النار- وأنا ممسك بحجزكم، وأنا فرط لكم على الحوض، فتردون علي معا وأشتاتا، فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الفرس، وقال غيره: كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله، فيؤخذ بكم ذات الشمال فأقول إلي يا رب أمتي أمتي، فيقول أو يقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، كانوا يمشون بعدك القهقرى، فلا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي يا محمد فأقول: لا أملك لك من اللّه شيئا قد بلغت، ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة ببعير له رغاء ينادي يا محمد فأقول: لا أملك لك من اللّه شيئا قد بلغت، ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قشعا فيقول: يا محمد يا محمد فأقول: لا أملك لك من اللّه شيئا قد بلغت**»(٢).

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٤).

(٢) أخرجه: البزار (كشف الأستار ١/ ٤٢٦/ ٩٠٠) وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٨٥) وقال: «رواه أبو يعلى في الكبير والبزار إلا أنه قال يحمل قشعا مكان سقاء ورجال الجميع ثقات». وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٦٥/ ١٢) وعزاه لأبي يعلى والبزار وقال: «إسنادهما جيد إن شاء الله».

قال ابن كثير (٥/ ٣٠): «وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد اللّه الأشعري القمي. قلت -يعني ابن كثير-: بل قد روى عنه أيضا=

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على هذا المعنى في سورة التوبة الآية (١٢٨) وباللَّه التوفيق.

* * *

= أشعث بن إسحاق وقال فيه يحيى بن معين: صالح ووثقه النسائي وابن حبان». وقال فيه الحافظ في التقريب: «لا بأس به». والحديث حسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٨٢/ ٧٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ناكبون: من نَكَبَ عن الشيء ينكب نكبًا: إذا مالَ عنه وعدل إلى غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين لا يصدقون بالبعث بعد الممات، وقيام الساعة ومجازاة اللَّه عباده في الدار الآخرة ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ﴾ يقول: عن محجة الحق وقصد السبيل، وذلك دين اللَّه الذي ارتضاه لعباده لعادلون، يقال منه: قد نكب فلان عن كذا: إذا عدل عنه ونكب عنه: أي عدل عنه.. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يقول تعالى: ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب وضر الجوع والهزال ﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ يعني في عتوهم وجرأتهم على ربهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون»[(١)].

قال السعدي: «﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ﴾ متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى اللَّه، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفا في جميع أموره، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لإنكارهم البعث والجزاء، ناكبون عن الصراط، والمراد بالصراط، الذي

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٤).

(٢) القصص: الآية (٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٦٧).

هم ناكبون عنه: الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة المذكور في قوله قبله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ ومن نكب عن هذا الصراط المستقيم، دخل النار بلا شك.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾[1] ومعنى قوله: لناكبون: عادلون عنه، حائدون غير سالكين إياه وهو معنى معروف في كلام العرب»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾: يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أراح عللهم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾[4]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون»[5].

* * *

(١) الروم: الآية (١٦).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٨٠٧).
(٣) الأنفال: الآية (٢٣).
(٤) الأنعام: الآيات (٢٧-٢٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠-٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

استكانوا: الاستكانة: الخضوع التذلل. أصله من السكون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يقول: فما خضعوا لربهم فينقادوا لأمره ونهيه، وينيبوا إلى طاعته. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يقول: وما يتذللون له.

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول اللَّه ﷺ حين أخذ اللَّه قريشا بسني الجدب، إذ دعا عليهم رسول اللَّه ﷺ»[1].

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن اللَّه ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه، بالذل والاستسلام. فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد.

﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك، ثم زال كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم. ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب اللَّه الشديد، الذي لا يرد.

بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب اللَّه بها عباده. قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]»[3].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٤).

(٢) الروم: الآية (٤١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٦٨-٣٦٩).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أخذ الكفار بالعذاب، والظاهر أنه هنا: العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب، والأمراض والشدائد، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي ما خضعوا له، ولا ذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ما يبتهلون إليه بالدعاء متضرعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب لشدة قسوة قلوبهم، وبعدهم من الاتعاظ، ولو كانوا متصفين بما يستوجب ذلك من إصابة عذاب اللَّه لهم. وهذا المعنى الذي ذكره هنا جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1] وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قال ابن عاشور: «هذه الآية في معنى قوله في سورة الدخان: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾[4]. والمعنى فلم يكن حظهم حين أخذناهم بالعذاب إلا العويل والجؤار دون التوبة والاستغفار»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في عاقبة المعاندين للنبوة والوحي والسنة والكتاب

* عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد: أنشدك اللَّه والرحم قد أكلنا العلهز -يعني الوبر والدم-. فأنزل اللَّه ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[6].

---

(١) الأنعام: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٢) الأعراف: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٣) أضواء البيان (٥/ ٨٠٨-٨٠٩).
(٤) الدخان: الآيات (١٣-١٥).
(٥) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠١).
(٦) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٣/ ١١٣٥٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٠/ ١٢٠٣٨) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٣): وقال: «رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد وثقه النسائي وغيره وضعفه أبو حاتم».

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: إن نبي اللَّه ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال: «**اللهم سبعا كسبع يوسف. فأخذتهم سنة حصت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك تأمر بطاعة اللَّه وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع اللَّه لهم. قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ -إلى قوله- ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾**[1] **فالبطشة يوم بدر، وقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم**»[2].

★ غريب الحديث:

سنة: بفتح المهملة بعدها نون خفيفة أي أصابهم القحط.

حصت: استأصلت النبات حتى خلت الأرض منه.

★ فوائد الحديث:

تقدمت الفوائد في سورة يوسف عند قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[3].

* * *

(١) الدخان: الآيات (١٠-١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣١و٤٤١) والبخاري (٢/ ٦٢٦/ ١٠٠٧) ومسلم (٤/ ٢١٥٥-٢١٥٦/ ٢٧٩٨) والترمذي (٥/ ٣٥٣-٣٥٤/ ٣٢٥٤) وقال: «حسن صحيح».

(٣) يوسف: الآية (٤٨).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

★ **غريب الآية:**

مبلسون: الإبلاس: اليأس والتحير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب، والوصف بالشدة وقرئ فتحنا بالتشديد. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي متحيرون آيسون من كل خير أي محناهم بكل محنة من القتل والأسر والجوع وغير ذلك، فما رؤي منهم لين مقادة وتوجه إلى الإسلام قط، وأما ما أظهره أبو سفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع إليه تعالى في شيء، وإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم غرضه، فحاله كما قيل إذا جاع ضغا وإذا شبع طغا، وأكثرهم مستمرون على ذلك إلى أن يروا عذاب الآخرة، فحينئذ يبلسون، وقيل المراد بالباب الجوع، فإنه أشد وأعم من القتل والأسر، والمعنى أخذناهم أولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم، فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع، الذي هو أطم وأتم، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاءك أعتاهم، وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك والوجه هو الأول»[1].

قال ابن كثير: «أي: حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم»[2].

* * *

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢).

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : واللّٰه الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يوجد ذلك كله إذا شاء، ويفنيه إذا أراد ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول : تشكرون أيها المكذبون خبر اللّٰه من عطائكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يقول -تعالى ذكره- : واللّٰه الذي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون من بعد مماتكم، ثم تبعثون من قبوركم إلى موقف الحساب .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ يقول -تعالى ذكره- : واللّٰه الذي يحيي خلقه : يقول : يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفا أمواتا ، بنفخ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها ، ﴿وَيُمِيتُ﴾ : يقول : ويميتهم بعد أن أحياهم ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول : وهو الذي جعل الليل والنهار مختلفين كما يقال في الكلام : لك المن والفضل بمعنى : إنك تمن وتفضل، وقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول : أفلا تعقلون أيها الناس أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه»[١] .

قال ابن كثير : «ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٦).

والأفئدة، وهي العقول والفهوم، التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية اللَّه تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما بدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[2].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ذرأكم معناه: خلقكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقكم وبثكم في الأرض، عن طريق التناسل، كما قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[5] الآية وقال: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[6] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إليه وحده، تجمعون يوم القيامة أحياء بعد البعث للجزاء والحساب.

وما تضمنته هذه الآية، من أنه خلقهم، وبثهم في الأرض. وأنه سيحشرهم إليه يوم القيامة. جاء معناه في آيات كثيرة كقوله في أول هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) يوسف: الآية (١٠٣).
(٢) يس: الآية (٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢).
(٤) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٥) النساء: الآية (١).
(٦) الروم: الآية (٢٠).

ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وذكر - جل وعلا - أيضا هاتين الآيتين في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] والآيات في هذا المعنى كثيرة»[2].

* * *

(١) الملك: الآيات (٢٣-٢٥).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٨٠٩).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول في دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ في إنكار البعث مع وضوح الدلائل، ونبه بذلك على أنهم إنما أنكروا ذلك تقليدا للأولين، وذلك يدل على فساد القول بالتقليد، ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين: أحدهما: قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهو مشهور، وثانيهما: قولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا إن هذا الوعد كما وقع منه -عليه الصلاة والسلام- فقد وقع قديما من الأنبياء، ثم لم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا، ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الأولين»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج والدلالة على قدرته، على فعل كل ما يشاء، ولكن قالوا مثل ما قال أسلافهم من الأمم المكذبة رسلها قبلهم ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ يقول: أئذا متنا وعدنا ترابا، قد بليت أجسامنا وبرأت عظامنا من لحومنا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يقول: إنا لمبعوثون من قبورنا أحياء كهيئتنا قبل الممات؟ إن هذا لشيء غير كائن.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: قالوا: لقد وعدنا هذا الوعد الذي تعدنا يا محمد، ووعد آباءنا من قبلنا قوم ذكروا أنهم لله رسل من قبلك، فلم نره حقيقة أن هذا يقول: ما هذا الذي

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/١١٦).

تعدنا من البعث بعد الممات ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: ما سطره الأولون في كتبهم من الأحاديث والأخبار التي لا صحة لها ولا حقيقة»[1].

قال ابن كثير: «﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يعنون: أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[3]»[4].

قال السعدي: «وكذبوا -قبحهم الله- فإن الله أراهم، من آياته أكبر من البعث، ومثله ما قاله الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[5] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[6] الآيات. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[7] الآيات»[8].

* * *

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٦-٤٧).
(٢) النازعات: الآيات (١١-١٤).
(٣) يس: الآيات (٧٧-٧٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣).
(٥) غافر: الآية (٥٧).
(٦) يس: الآية (٧٨).
(٧) الحج: الآية (٥).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٧١).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي: من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره»[2].

قال السعدي: «﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم اللَّه به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات. والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل»[3].

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد من رب السماوات السبع ورب العرش المحيط بذلك؟ سيقولون ذلك كله لله وهو ربه فقل لهم: أفلا تتقون عقابه على كفركم به وتكذيبكم خبره وخبر رسوله»[1].

قال ابن كثير: «قال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الحسن البهي. فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو، والحسن الباهر»[2].

قال القنوجي: «فيه تنبيه على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان، والاعتراف بجواز الإعادة»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤).

(٣) فتح البيان (٩/ ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يجير: أي يحمي ويمنع من استجار به واستغاث. يقال: أجرت فلانا: إذا أَمَّنْتُهُ وحَمَيْتُه ممن يؤذيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[(١)]، أي: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «**لا والذي نفسي بيده**»[(٢)]، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «**لا ومقلب القلوب**»[(٣)]، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا، لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(٤)]، أي: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٥)].

---

(١) هود: الآية (٥٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٣) والبخاري (١١/ ٦٤١-٦٤٢/ ٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦) والبخاري (١١/ ٦٢٨/ ٦٦١٧) وأبو داود (٣/ ٥٧٦-٥٧٧/ ٣٢٦٣) والترمذي (٤/ ٩٦/ ١٥٤٠) والنسائي (٧/ ٢/ ٣١٧٠) وابن ماجه (١/ ٦٧٦-٦٧٧/ ٢٠٩٢) من حديث عبد الله بن عمر.

(٤) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٥) الحجر: الآيتان (٩٢و٩٣).

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه، هو اللَّه تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك»[١].

قال السعدي: «﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزما لهم، ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي -بلا شك- قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون بالله، من أن الملائكة بنات الله، وأن الآلهة والأصنام آلهة دون الله ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ اليقين، وهو الدين الذي ابتعث الله به نبيه ﷺ، وذلك الإسلام، ولا يعبد شيء سوى الله، لأنه لا إله غيره ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يقول: وإن المشركين لكاذبون فيما يضيفون إلى الله وينحلونه من الولد والشريك.

وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما لله من ولد ولا كان معه في القديم، ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم، أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته ﴿مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ﴾ يقول: إذن لاعتزل كل إله منهم ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ من شيء فانفرد به، ولتغالبوا فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منه الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقل وتدبر! وقوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ﴾ جواب لمحذوف وهو: لو كان معه إله إذن لذهب كل إله بما خلق، اجتزئ بدلالة ما ذكر عليه عنه، وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- تنزيها لله عما يصفه به هؤلاء المشركون، من أن له ولدا، وعما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القدم إلها يعبد تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هو عالم ما غاب عن خلقه من الأشياء، فلم يروه ولم يشاهدوه، وما رأوه وشاهدوه، إنما هذا من الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين: اتخذ الله ولدا، وعبدوا من دونه آلهة،

إنهم فيما يقولون ويفعلون مبطلون مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قول في ذلك عن غير علم؛ بل عن جهل منهم به، وإن العالم بقديم الأمور وبحديثها، وشاهدها وغائبها عنهم، اللَّه الذي لا يخفى عليه شيء فخبره هو الحق دون خبرهم»[١].

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا اللَّه، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع اللَّه غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال اللَّه عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٢].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف في العبادة، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكنا؛ لأنه لا يليق بصفة

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٩-٥٠).
(٢) الزخرف: الآية (٢٣).
(٣) الملك: الآية (٣).

الواجب أن يكون مقهورا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعَزَّ وجَلَّ عما يقول الظالمون والجاحدون»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٥-٣٦).

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: رب إن تريني في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك، فلا تهلكني بما تهلكهم به، ونجني من عذابك وسخطك، فلا تجعلني في القوم المشركين، ولكن اجعلني ممن رضيت عنه من أوليائك»(١).

قال القنوجي: «ذكر الرب مرتين قبل الشرط وبعده مبالغة في التضرع والابتهال، وأمره اللّه أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين، مع أن الأنبياء لا يكونون معهم أبدا، تعليما له ﷺ من ربه كيف يتواضع ويهضم نفسه، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٢)»(٣).

قال القرطبي: «وكان عليه السلام يعلم أن اللّه تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب، ومع هذا أمره الرب بهذا الدعاء والسؤال، ليعظم أجره وليكون في كل الأوقات ذاكرا لربه تعالى»(٤).

قال ابن عطية: «هذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المعذب من أجله، ثم نظيره لسائر الأمة دعاء في جودة الخاتمة»(٥).

قال الشنقيطي: «أمر جلا وعلا نبيه في هاتين الآيتين الكريمتين أن يقول: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: أن ترني ما توعدهم من العذاب، بأن تنزله بهم، وأنا

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٥٠).
(٢) الأنفال: الآية (٢٥).
(٣) فتح البيان (١٠/ ١٤٦).
(٤) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١٤٧).
(٥) المحرر الوجيز (٤/ ١٥٥).

حاضر شاهد أرى نزوله بهم ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تجعلني في جملة المعذبين الظالمين، بل أخرجني منهم، ونجني من عذابهم، وقد بين تعالى في مواضع أخر: أنه لا ينزل بهم العذاب، وهو فيهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1] الآية، وبين هنا أنه قادر على أن يريه العذاب، الذي وعهدهم به في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وبين في سورة الزخرف، أنه إن ذهب به قبل تعذيبهم، فإنه معذب لهم ومنتقم منهم لا محالة، وأنه إن عذبهم وهو حاضر فهو مقتدر عليهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِىٓ وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في: التعوذ من الفتن ما ظهر منها وما بطن

* عن عبد اللّه بن عباس قال رسول اللّه ﷺ: «**وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير مبينا العلاقة بين الآية والحديث: «يقول تعالى آمرا نبيه محمدا ﷺ أن يدعو هذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن عاقبتهم - وإني شاهد ذلك-فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي -وصححه-: «**وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون**»»[5].

قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**وإذا أردت بعبادك فتنة**» أو «**بقوم**» في رواية معاذ دليل على أن كل خير وشر وفتنة وطاعة لا يكون شيء من ذلك إلا بإرادة الباري، حسب ما بينا في أصول الدين وصح من اعتقاد المسلمين، وقد نفر قوم من

(١) الأنفال: الآية (٣٣). (٢) الزخرف: الآيتان (٤١و٤٢).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٨١٧).

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٨) والترمذي (٥/ ٣٤٢/ ٣٢٣٣) وقال: «وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلا. وقد رواه قتادة عن أبي قلابة عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنه مرفوعا». وصححه الألباني في الإرواء (٣/ ١٤٧/ ٦٨٤). وانظر تفصيل القول فيه: في كتابنا فتح البر (١٢/ ٦١٧-٦١٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٦).

هذا اللفظ، إما لبدعة أضمروها، وإما لجهالة غمرتهم، فقرؤا هذا الحرف، وإذا أردتُّ والأول أصح رواية واعتقادا، مع أنه في حديث ابن عباس يبعد من جهة اللفظ، وإذا أدركت بعبادك فتنة. . قوله: «**فاقبضني إليك غير مفتون**» كان النبي ﷺ قد علم عاقبته، وتحقق سلامته من البدع والباطل وإماتته، وأنه في الفردوس الأعلى معصوم من النار، ولكنه كان يدعو في النجاة من ذلك كله؛ لأنها علامة كونه من أهل ذلك له ولسواه على اختلاف المراتب»[1].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١١١-١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِنَّآ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ﴾ في هؤلاء المشركين ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ من تعجيل العذاب لهم ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ فلا يحزننك تكذيبهم إياك بما نعدهم به، وإنما نؤخر ذلك ليبلغ الكتاب أجله»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أولأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة، ولا يخفى بعده، فإن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا، لا يظهر على يديه ﷺ للحكمة الداعية إليه»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٥٠).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

الأول: ادفع بالإغضاء والصفح إساءة المسيء.

الثاني: ادفع المنكر بالموعظة الحسنة.

الثالث: ادفع سيئتك بالحسنة بعدها»[1].

قال السعدي: «هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا وتكذيبهم لنا»[4].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٣٢٢).

(٢) الشورى: الآية (٤٠).

(٣) فصلت: الآيتان (٣٤و٣٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٧٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: نحن أعلم بما يصفون اللَّه به، وينحلونه من الأكاذيب والفرية عليه، وبما يقولون فيك من السوء، ونحن مجازوهم على جميع ذلك، فلا يحزنك ما تسمع منهم من قبيح القول»[١].

قال ابن العربي: «وفقه الآية: اسلك مسلك الكرام، ولا تلحظ جانب المكافأة، ادفع بغير عوض، ولا تسلك مسلك المبايعة، ويدخل فيه: سلم على من لم يسلم عليك، وتكثر الأمثلة، والقصد مفهوم، فاسلكوه»[٢].

قال ابن عاشور: «والتخلق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوض أمر المعتدين عليه إلى اللَّه، فهو يتولى الانتصار لمن توكل عليه، وأنه إن قابل السيئة بالحسنة كان انتصار اللَّه أشفى لصدره وأرسخ في نصره، وماذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالق، وهو الذي هزم الأحزاب بلا جيوش ولا فيالق»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العفو عند المقدرة هو منهاج الإسلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول اللَّه، إن لي قرابة أصلهم ويقطعون، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي فقال: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من اللَّه ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»[٤].

★ **غريب الحديث:**

المل: بفتح الميم الرماد الحار.

تسفهم: بضم التاء وكسر السين وتشديد الفاء أي تطعمهم.

ظهير: المعين والدافع لأذاهم.

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٥١). (٢) أحكام القرآن (٣/ ١٣٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٢٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٤) ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٨)،

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته، وإدخالهم الأذى عليه، وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم، وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك، وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف المل: وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم، واللَّه أعلم»[1].

قال ابن علان: «وفي الحديث أن ما ذكر من الخصال سبب بإعانة صاحبها وتأييده وتوقيره وتسديده، فإن المعنى فيه هو التأييد الإلهي واللطف الرباني»[2].

* * *

(١) شرح مسلم (١٦/ ٩٤).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

همزات: جمع همزة، وهي الدفع الشديد. وهمزات الشيطان: نزغاته ووساوسه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أي وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة، وأصل الهمز النخس، ومنه مهماز الرائض، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدواب على الإسراع أو الوثب، والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أمر ﷺ بأن يعوذ به تعالى من حضورهم، بعد ما أمر بالعوذ من همزاتهم، للمبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء أي: أعوذ بك من أن يحضروني ويحوموا حولي في حال من الأحوال، وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحال حلول الأجل كما روي عن عكرمة رحمه الله، لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها»[١].

قال ابن كثير: «أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف»[٢].

قال الشنقيطي: «والظاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أن المعنى:

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٩-١٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٧).

أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائنا ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾[١] أو عند حضور الموت أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات. والعلم عند اللّٰه تعالى»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الاستعاذة من شر إبليس حصن وحرز يتحصن به المسلم

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّٰه ﷺ قال: **«إذا فزع أحدكم في النوم فليقل: «أعوذ بكلمات اللّٰه التامات من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» فإنها لن تضره»**[٣].

* عن الوليد بن الوليد أنه قال: يا رسول اللّٰه إني أجد وحشة. قال: **«إذا أخذت مضجعك فقل أعوذ بكلمات اللّٰه التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فإنه لا يضرك وبالحرى أن لا يقربك»**[٤].

⋆ غريب الحديث:

وبالحرى: قال السندي: بفتحتين وقصر الألف بمعنى: اللياقة.

⋆ فوائد الحديثين:

قوله: **«أعوذ بكلمات اللّٰه التامات»** قال في تيسير العزيز الحميد: «هذا ما شرعه اللّٰه لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع اللّٰه للمسلمين أن يستعيذوا به أو بصفاته. قال القرطبي في «المفهم»: قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل:

---

(١) النحل: الآية (٩٨).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٨١٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١) وأبو داود (٤/ ٢١٨-٢١٩/ ٣٨٩٣) والترمذي (٥/ ٥٠٦/ ٣٥٢٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والحاكم (١/ ٥٤٨) وقال: «صحيح الإسناد متصل في موضع الخلاف».
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٧) وابن أبي شيبة (٨/ ٦٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣٨). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٣) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن يحيى بن حبان لم يسمع من الوليد بن الوليد. وقال الألباني في الصحيحة (٦/ ٥٣٦): «رجال إسناده ثقات رجال الشيخين لكنه منقطع».

معناه الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا: هي القرآن، فإن اللَّه أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[١]، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفات اللَّه تعالى والالتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغب فيه. وعلى هذا فحق المتعوذ باللَّه تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يصدق اللَّه في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه. وقال غيره: وقد اتفق العلماء على أن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، واستدلوا بحديث خولة، وقالوا: فيه دليل على أن كلمات اللَّه غير مخلوقة، وردوا به على الجهمية والمعتزلة في قولهم بخلق القرآن، قالوا: فلو كانت كلمات اللَّه مخلوقة لم يأمر النبي ﷺ بالاستعاذة بها، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك»[٢].

قوله: «**ومن همزات الشياطين**» قال في المرقاة: «أي: خطراتهم ووساوسهم وإلقائهم الفتنة والعقائد الفاسدة في القلب، وهو تخصيص بعد تعميم، أو إيماء إلى أنهم ليسوا بعباده المخصوصين، أو على الإطلاق مبالغة للتنفير عن جنسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[٣].

«**وأن يحضرون**» بحذف الياء وإبقاء الكسرة دليلا عليها أي: ومن أن يحضروني في صلاتي وقراءتي وذكري ودعوتي وموتي.

قوله: «**فإنها**» أي: الهمزات «**لن تضره**» أي: ظاهرا وباطنا إذا دعا بهذا الدعاء، وفيه دليل على أن الفزع إنما هو من الشيطان»[٤].

* عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول اللَّه ﷺ يصلي صلاة، قال عمرو: لا أدري أي صلاة هي؟ فقال: «**اللَّه أكبر كبيرا، اللَّه أكبر كبيرا، اللَّه أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، والحمد لله كثيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان اللَّه بكرة وأصيلا. ثلاثا: أعوذ باللَّه من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه**» قال: نفثه: الشعر ونفخه: الكبر،

---

(١) فصلت: الآية (٤٤).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٢١٠).
(٣) فاطر: الآية (٦).
(٤) المرقاة (٥/ ٣٣٣).

وهمزه: الموتة[١].

★ **فوائد الحديث:**

انظر الفاتحة فقد مر شرح هذا الحديث هناك.

* عن أبي اليسر أن رسول اللَّه ﷺ كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغم والغرق والحرق والهرم وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا، وأعوذ بك أن أموت لديغا**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

أعوذ بك من الهدم: الهدم بالسكون: سقوط البناء ووقوعه على الشيء، وروي بالفتح وهو اسم ما انهدم منه.

أعوذ بك من التردي: (التردي) السقوط من عال، كالتدهده من شاهق جبل، والسقوط من بئر.

أعوذ بك من الغرق: (الغرق) بالتحريك مصدر غرق في الماء.

والحرق: (الحرق) بالتحريك النار.

والهرم: الهرم: الكبر، وقد هرم يهرم فهو هرم. جعل الهرم داء تشبيها به، لأن الموت يتعقبه كالأدواء.

★ **فوائد الحديث:**

قال في شرح الطيبي: «وإنما استعاذ من الهلاك بهذه الأسباب مع ما فيه من نيل الشهادة؛ لأنها مجهدة مقلقة لا يكاد الإنسان يصبر عليها ويثبت عندها، فلعل الشيطان ينتهز منه فرصة فيحمله على ما يخل بدينه، ولأنه بعد فجأة، وهو أخذة

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠، ٨٥) وأبو داود (١/ ٤٨٦/ ٧٦٤) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٢٦٥/ ٨٠٧) والحاكم (١/ ٢٣٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢٧) وأبو داود (٢/ ١٩٤/ ١٥٥٢) والنسائي (٨/ ٦٧٧-٦٧٨/ ٥٥٤٦-٥٥٤٧) والحاكم (١/ ٥٣١) وصححه وقال الذهبي: أخرجه أبو داود والنسائي بطرق وليس فيه عن جده.

الأسف على ما مر في كتاب الجنائز. أقول: ولعله ﷺ استعاذ منها لأنها في الظاهر مصائب ومحن وبلاء كالأمراض السابقة المستعاذ منها، وأما ترتب الثواب -ثواب الشهادة- عليها، فللتنبيه على أن اللَّه تعالى يثيب المؤمن على المصائب كلها حتى الشوكة التي يشاكها، ولأن الفرق بين الشهادة الحقيقية وبين هذه أنها متمنى كل مؤمن ومطلوبه، وقد يجب عليه توخي الشهادة والتحري فيها بخلاف التردي والغرق والحرق ونحوها، فإنها يجب الاحتراز عنها ولو سعى فيها عصى. قوله: «**من أن يتخبطني**» الأصل في التخبط أن يضرب البعير الشيء بخف يديه فيسقط، والمعنى: أعوذ بك أن يمسني الشيطان عند الموت بنزغاته التي تزل الأقدام وتصارع العقول والأحلام. قوله: «**لديغا**» فعيل بمعنى مفعول، واللدغ يستعمل في ذوات السموم من حية وعقرب وغير ذلك. قوله: «**أن أموت في سبيلك مدبرا**» عبارة عن الفرار عن الزحف حيث لا يجوز الزحف، هذا وما أشبه ذلك تعليم للأمة، وإلا فرسول اللَّه ﷺ لا يجوز له الفرار وكذا تخبط الشيطان، وغير ذلك من الأمراض المزمنة المشوهة للخلق»[1].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٩١٩-١٩٢٠).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

من ورائهم: هنا بمعنى: من أمامهم وقدامهم. قال الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: حتى إذا جاء هؤلاء المشركين الموت، وعاين نزول أمر اللَّه به، قال لعظيم ما يعاين مما يقدم عليه من عذاب اللَّه تندما على ما فات، وتلهفا على ما فرط فيه قبل ذلك من طاعة اللَّه، ومسئلته للإقالة ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا، فردوني إليها ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ يقول: كي أعمل صالحا فيما تركت قبل اليوم من العمل فضيعته وفرطت فيه»[(١)].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدهما الإخبار المؤكد بأن هذا الشيء يقع ويقول هذه الكلمة، والآخر أن يكون المعنى إنها كلمة لا تغني أكثر من أن يقولها، ولا نفع له فيها ولا غوث، والثالث أن تكون إشارة إلى أنه لو رد لعاد، فتكون آية ذم لهم»[(٢)].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، أو المفرطين في أمر اللَّه تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا

(١) جامع البيان (١٨/ ٥٢-٥٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٥٦).

فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾[8]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله: هاهنا: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾: كلا حرف ردع وزجر، أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾: قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أي: لأنها كلمة، أي: سؤاله

---

(١) المنافقون: الآيتان (١٠و١١).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٣) الأعراف: الآية (٥٣).
(٤) السجدة: الآية (١٢).
(٥) الأنعام: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٦) الشورى: الآية (٤٤).
(٧) غافر: الآيتان (١١و١٢).
(٨) فاطر: الآية (٣٧).

الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

وقال عمر بن عبد اللَّه مولى غفرة: إذا سمعت اللَّه يقول: ﴿كَلَّآ﴾ فإنما يقول: كذب.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة اللَّه ﷻ.

وقال قتادة: واللَّه ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة اللَّه، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا باللَّه. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه»[2].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٧-٣٨).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾[1].

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر»[2].

قال القاسمي: «﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي لشدة الهول من هجوم ما شغل البال حتى زال التعاطف والتآلف، إذ ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ ونفي نفع النسب، إذا دهم مثل ذلك معروف. كما قال:

لا نسب اليوم ولا خلة ... اتسع الخرق على الراقع

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضا، لعظم الفزع وشدة ما يهم من

---

(١) عبس: الآيات (٣٣-٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١١٤٧) طبعة دار ابن الجوزي.

الأهوال، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال، فتنقطع العلائق والوصل التي كانت بينهم، وجلي أن نفي التساؤل إنما هو وقت النفخ، كما دل عليه قوله: ﴿فَإِذَآ﴾ أي: فوقت القيام من القبور، وهول المطلع يشتغل كل بنفسه. وأما ما بعده فقد يقع التساؤل، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1] لأن يوم القيامة يوم ممتد. ففيه مشاهد ومواقف. فيقع في بعضها تساؤل وفي بعضها دهشة تمنع منه»[2].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة، سؤالان معروفان يحتاجان إلى جواب مبين للمقصود مزيل للإشكال.

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية: أنه إذا نفخ في الصور، والظاهر أنها النفخة الثانية، أنهم لا أنساب بينهم يومئذ، فيقال: ما وجه نفي الأنساب بينهم، مع أنها باقية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[3] ففي هذه الآية ثبوت الأنساب بينهم.

السؤال الثاني: أنه قال: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون، كقوله في سورة الطور: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[4] وقوله في الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ذكرنا الجواب عن هذين السؤالين في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»[6] بما حاصله:

إن الجواب عن السؤال الأول: هو أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها، التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا، من التفاخر بالآباء، والنفع والعواطف والصلات. فكل ذلك ينقطع يوم القيامة، ويكون الإنسان لا يهمه إلا نفسه، وليس المراد نفي حقيقة الأنساب، من أصلها بدليل قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[7] الآية.

---

(١) الصافات: الآية (٢٧).
(٢) محاسن التأويل (١٢/ ١٠١-١٠٢).
(٣) عبس: الآيات (٣٣-٣٦).
(٤) الطور: الآية (٢٥).
(٥) الصافات: الآية (٥٠).
(٦) (ص١٨٧).
(٧) عبس: الآيتان (٣٤و٣٥).

وإن الجواب عن السؤال الثاني من ثلاثة أوجه:

الأول: هو قول من قال: إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معا. وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر.

الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة، والجواز على الصراط وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسؤول أبا أو ابنا أو أما أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتقان»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه

* عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«فاطمة مضغة مني يقبضني ما قبضها ويبسطني ما بسطها، وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري»**[2].

★ **غريب الحديث:**

يقبضني ما قبضها: أي: أكره ما تكرهه وأتجمع مما تتجمع منه.

يبسطني ما يبسطها: أي: يسرني ما يسرها، لأن الإنسان إذا سر انبسط وجهه واستبشر.

* عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول على المنبر: **«ما بال أقوام يقولون: إن رحمي لا ينفع، بلى واللَّه إن رحمي موصولة**

---

(١) الأضواء (٥/ ٨٢٢-٨٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣) والحاكم (٣/ ١٥٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقد وهما رحمهما اللَّه تعالى: لأن أم بكر هذه لا تعرف بشهادة الذهبي نفسه، فإنه أوردها في فصل النسوة المجهولات وقال: «تفرد عنها ابن أخيها عن عبد اللَّه بن جعفر» كما أفاد ذلك الشيخ ناصر في الصحيحة (١٩٩٥). والحديث ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٣) وقال: «رواه الطبراني وفيه أم بكر بنت المسور ولم يجرحها أحد ولم يوثقها، وبقية رجاله وثقوا».

في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرطكم على الحوض، فإذا جئت قام رجال، فقال هذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، فأقول قد عرفتكم، ولكنكم أحدثتم بعدي ورجعتم القهقرى»[١].

★ غريب الحديث:

فرطكم: أي: أنا أمامكم وأنتم ورائي تتبعوني.

★ فوائد الحديثين:

فيه من الفوائد أن «من لقي اللَّه بعمل لا ينجيه هلك، وإن كان حسيبا نسيبا، فالحسب لا يوزن مع الأعمال ولا ينفع عند الحساب، وإنما الذي ينفع ويثقل في الميزان وينجو به العبد من النيران هو العمل الصالح فحسب»[٢].

وفيه: «الترهيب من ترك العمل اتكالا على النسب»[٣].

وفيه: «أنه إذا حدثت النفخة الثانية ليوم القيامة شغل كل امرئ بنفسه، ولم يلتفت إلى أحد من أقربائه ولو كانوا من الوالدين والأولاد والزوجات ولا تنفع أحدا روابط الدم والنسب، التي كانت تربط الأسر فيما بينهم في الدنيا، لكن جاء في الحديث الثابت كما تقدم استثناء صلة النسب والقرابة بالنبي ﷺ»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨) والحاكم (٤/ ٧٤-٧٥) وصححه ووافقه الذهبي. وأبو يعلى (٢/ ٤٣٣-٤٣٤/ ١٢٣٨) وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٤) وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد اللَّه بن محمد بن عقيل وقد وثق».

(٢) إهداء الديباجة (١/ ١٤٣).

(٣) الفتح الرباني (١٩/ ٢٥٦).

(٤) التفسير المنير (١٨/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تلفح: تصيب وتضرب. يقال: لفحت وجهه النار ونَفَحَتْهُ: إذا أصابته. واللفح: أشد من النفح.

كَالِحُونَ: الكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو. قال الأعشى:

وله المقدم لا مثل له ساعة الشدق عن الناب الكلح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرا، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه»[١].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار تلفح وجوههم النار: أي تحرقها إحراقا شديدا، جاء موضحا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾[٢] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾[٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾[٥] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٦] وقوله: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾[٧] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[٨].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٨٠-٣٨٢).
(٢) الأحزاب: الآية (٦٦).
(٣) النمل: الآية (٩٠).
(٤) الأنبياء: الآية (٣٩).
(٥) إبراهيم: الآية (٥٠).
(٦) الزمر: الآية (٢٤).
(٧) الكهف: الآية (٢٩).
(٨) أضواء البيان (٥/ ٨٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا تقريع من اللَّه تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٢)]، وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[(٣)]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ردنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[(٤)] أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون باللَّه إذا وحده المؤمنون»[(٥)].

---

(١) النساء: الآية (١٦٥).
(٢) الإسراء: الآية (١٥).
(٣) الملك: الآيات (٨-١١).
(٤) غافر: الآيتان (١١و١٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢).

قال السعدي: «يقال لهم -توبيخا ولوما-: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ظلما منكم وعنادا، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[1] ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[2] ولم يبق اللّه لهم حجة، بل قطع أعذارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه المتذكر، ويرتدع فيه المجرم»[3].

قال أبو السعود: «وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية، فمع أنه باطل في نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم اللّه تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم يرده قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي، فإنا متجاوزون الحد في الظلم، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وعدوا الإيمان والطاعة»[4].

قال الشنقيطي: «وقوله هنا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الظاهر أن معنى قولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أن الرسل بلغتهم، وأنذرتهم وتلت عليهم آيات ربهم، ولكن ما سبق في علم اللّه من شقاوتهم الأزلية، غلب عليهم، فكذبوا الرسل، ليصيروا إلى ما سبق في علمه -جل وعلا- من شقاوتهم.

---

(١) الملك: الآية (١٠). (٢) الأنعام: الآية (٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٨٢).

(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ١٥١-١٥٢).

ونظير الآية على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾[1] وقوله عن أهل النار: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات، ويزيد ذلك إيضاحا قوله ﷺ: «كل ميسر لما خلق له»[3] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[5] على أصح التفسيرين وقوله عنهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ اعتراف منهم بضلالهم، حيث لا ينفع الاعتراف بالذنب ولا الندم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾[6] ونحو ذلك من الآيات»[7].

قال أيضا: «وهذا الخروج من النار الذي طلبوه قد بين تعالى أنهم لا ينالونه كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾[8] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[9] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[10] الآية، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[11] إلى غير ذلك من الآيات»[12].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٢) الزمر: الآية (٧١).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١) والبخاري (١٣/ ٦٣٧/ ٧٥٥١) ومسلم (٤/ ٢٠٤١/ ٢٦٤٩) وأبو داود (٥/ ٨٣/ ٤٧٠٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٧/ ١١٦٨٠) عن عمران.
(٤) التغابن: الآية (٢).
(٥) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).
(٦) الملك: الآية (١١).
(٧) أضواء البيان (٥/ ٨٢٥).
(٨) المائدة: الآية (٣٧).
(٩) البقرة: الآية (١٦٧).
(١٠) الحج: الآية (٢٢).
(١١) السجدة: الآية (٢٠).
(١٢) أضواء البيان (٥/ ٨٢٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اخسأوا: يقال: خسأته أخسأه: إذا زجرته ليبتعد. فمعنى: اخسأوا: ابعدوا وانزجروا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا جواب من اللَّه تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي»(١).

قال السعدي: «﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا القول -نسأله تعالى العافية- أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم»(٢).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار يدعون ربهم فيها فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا إلى ما لا يرضيك بعد إخراجنا منها، فإنا ظالمون، وأن اللَّه يجيبهم بقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي امكثوا فيها خاسئين: أي أذلاء صاغرين حقيرين، لأن لفظة اخسأ إنما تقال للحقير الذليل، كالكلب ونحوه. فقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي ذلوا فيها ماكثين في الصغار والهوان.. وقد جاء في القرآن أجوبة متعددة لطلب أهل النار فهنا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فأجيبوا ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وفي السجدة قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢-٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٨٣).

نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾[١] فأجيبوا ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[٢] الآية، وفي سورة المؤمن: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾[٣] فأجيبوا: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[٤] وفي الزخرف: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾[٥] فأجيبوا: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[٦] وفي سورة إبراهيم: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ يجابون: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾[٧] وفي سورة فاطر: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ﴾[٨] فيجابون ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مثل هذه الأجوبة»[١٠].

قال الرازي: «ما قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فليس هذا نهيا لأنه لا تكليف في الآخرة، بل المراد لا تكلمون في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، والعواء كعواء الكلاب، لا يفهمون ولا يفهمون»[١١].

* * *

(١) السجدة: الآية (١٢).
(٢) السجدة: الآية (١٣).
(٣) غافر: الآية (١١).
(٤) غافر: الآية (١٢).
(٥) الزخرف: الآية (٧٧).
(٦) الزخرف: الآية (٧٧).
(٧) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٨) فاطر: الآية (٣٧).
(٩) فاطر: الآية (٣٧).
(١٠) أضواء البيان (٥/ ٨٢٦-٨٢٧).
(١١) التفسير الكبير (٢٣/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كانت الشماتة أسر السرور للشامت وأخزى الخزي للمشموت به، علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي كونا ثابتا ﴿فَرِيقٌ﴾ أي ناس استضعفتموهم فهان عليكم فراقهم لكم وفراقكم لهم، وظننتم أنكم تفرقون شملهم ﴿مِّنْ عِبَادِى﴾ أي الذين هم أهل للإضافة إلى جنابي لخلوصهم عن الأهواء ﴿يَقُولُونَ﴾ مع الاستمرار: ﴿رَبَّنَآ﴾ أيها المحسن إلينا بالخلق والرزق ﴿ءَامَنَّا﴾ أي أوقعنا الإيمان بجميع ما جاءتنا به الرسل لوجوب ذلك علينا لأمرك لنا به.

ولما كان عظم المقام موجبا لتقصير العابد، وكان الاعتراف بالتقصير جابرا له قالوا: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي استر بسبب إيماننا عيوبنا التي كان تقصيرنا بها ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ أي افعل بنا فعل الراحم من الخير الذي هو على صورة الحنو والشفقة والعطف.

ولما كان التقدير: فأنت خير الغافرين، فإنك إذا سترت ذنبا أنسيته لكل أحد حتى للحفظة، عطف عليه قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنك تخلص من رحمته من كل شقاء وهوان، بإخلاص الإيمان، والخلاص من كل كفران»[1].

قال السعدي: «﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم»[2].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاتخذتم أيها القائلون لربهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ في الدنيا القائلين فيها ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ سخريا.. ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ يقول: لم يزل استهزاؤكم بهم أنساكم ذلك من فعلكم بهم ذكري فألهاكم عنه ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾»[1].

قال ابن كثير: «أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2] أي: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار»[3].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ إدماج للتنويه بالصبر والتنبيه على أن سخريتهم بهم كانت سببا في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء. وفي ذلك زيادة تلهيف للمخاطبين بأن كانوا هم السبب في ضر أنفسهم، ونفع من كانوا يعدونهم أعداءهم»[4].

قال القرطبي: «ويستفاد من هذا: التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٦٠-٦١).

(٢) المطففين: الآيتان (٢٩و٣٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٣٠).

والمساكين والاحتقار لهم، والإزراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يغني، وأن ذلك مبعد من الله ﷻ»[١].

قال الشنقيطي: «وما ذكره تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أشار له في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٢] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[٣] الآية، وكل ذلك احتقار منهم لهم، وإنكارهم أن الله يمن عليهم بخير، وكقوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾[٤] الآية. وقوله تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[٥] وكل ذلك احتقار منهم لهم.. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه جزى أولئك المؤمنين المستضعفين في الدنيا بالفوز بالجنة في الآخرة. وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي بسبب صبرهم في دار الدنيا، على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخريا، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن أولئك المستضعفين الذين كان الكفار يستهزئون بهم، جزاهم الله يوم القيامة الفوز بجنته، ورضوانه، جاء مبينا في مواضع أخر مع بيان أنهم يوم القيامة يهزؤون بالكفار، ويضحكون منهم، والكفار في النار. والعياذ بالله كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٧] وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات»[٩].

* * *

---

(١) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١٥٥).
(٢) المطففين: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٣) الأنعام: الآية (٥٣).
(٤) الأعراف: الآية (٤٩).
(٥) الأحقاف: الآية (١١).
(٦) المطففين: الآيات (٣٤-٣٦).
(٧) الأعراف: الآية (٤٩).
(٨) البقرة: الآية (٢١٢).
(٩) أضواء البيان (٥/ ٨٢٧-٨٢٨).

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة اللَّه تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣﴾ أي: الحاسبين. ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من اللَّه سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة اللَّه وعبادته -كما فعل المؤمنون- لفزتم كما فازوا»[١].

قال الرازي: «الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ، فقد كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلا، ولا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا، ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء، ولا إعادة فلما حصلوا في النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيها لهم على أن ما ظنوه دائما طويلا فهو يسير بالإضافة إلى ما أنكروه، فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا من حيث أيقنوا خلافه، فليس الغرض السؤال بل الغرض ما ذكرنا. فإن قيل فكيف يصح في جوابهم أن يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولا يقع من أهل النار الكذب؟ قلنا: لعلهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الأهوال، وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنساهم ما كانوا فيه من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤).

العذاب بين النفختين، وقيل: مراده بقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن السؤال عن أي لبث وقع، فقال بعضهم: لبثهم إحياؤهم في الدنيا ويكون المراد أنهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل، فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرا بناء على أن الله تعالى أعلمهم أن الدنيا متاع قليل، وأن الآخرة هي دار القرار، وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة سواها، فلما أحياهم الله تعالى في النار وعذبوا سألوا عن ذلك توبيخا لأنه إلى التوبيخ أقرب، وقال آخرون بل المراد اللبث في حال الموت، واحتجوا على قولهم بأمرين: الأول: أن قوله في الأرض يفيد الكون في القبر ومن كان حيا فالأقرب أن يقال إنه على الأرض وهذا ضعيف لقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2] ثم بين سبحانه أنهم كذبوا في ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[3]»[4].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في المعني بالعادين فقال بعضهم: هم الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصون عليهم ساعاتهم.. وقال آخرون: بل هم الحساب.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال كما قال الله -جل ثناؤه-: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ وهم الذين يعدون عدد الشهور والسنين وغير ذلك، وجائز أن يكونوا الملائكة، وجائز أن يكونوا بني آدم وغيرهم، ولا حجة بأي ذلك من أي ثبتت صحتها، فغير جائز توجيه معنى ذلك إلى بعض العادين دون بعض»[5].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية سؤال معروف: وهو أنهم لما سئلوا يوم القيامة عن قدر مدة لبثهم في الأرض في الدنيا، أجابوا بأنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، مع أنه قد دلت آيات أخر على أنهم أجابوا بغير هذا الجواب كقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾[6] والعشر أكثر من يوم أو بعضه، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ

(١) الأعراف: الآية (٥٦).
(٢) الروم: الآية (٥٥).
(٣) الروم: الآية (٥٦).
(٤) التفسير الكبير (٢٣/ ١٢٨).
(٥) جامع البيان (١٨/ ٦٣).
(٦) طه: الآية (١٠٣).

تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾[١] والساعة: أقل من يوم أو بعضه، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[٢] وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤].

وقد بينا الجواب عن هذا السؤال في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام على هذه الآية بما حاصله: أن بعضهم يقول لبثنا يوما أو بعض يوم، ويقول بعض آخر منهم: لبثنا ساعة ويقول البعض الآخر منهم: لبثنا عشرا.

والدليل على هذا الجواب من القرآن أنه تعالى بين أن أقواهم إدراكا، وأرجحهم عقلا، وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يوما واحدا، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾[٥] فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال والعلم عند الله تعالى»[٦].

* * *

(١) الروم: الآية (٥٥).
(٢) النازعات: الآية (٤٦).
(٣) يونس: الآية (٤٥).
(٤) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٥) طه: الآيتان (١٠٣و١٠٤).
(٦) أضواء البيان (٥/ ٨٢٩-٨٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[1]، يعني هملا.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تقدس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «أظننتم أنا خلقناكم عبثا لا لحكمة، وأنكم لا ترجعون إلينا يوم القيامة، فنجازيكم على أعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا شر، ثم نزه -جل وعلا- نفسه، عن أن يكون خلقهم عبثا، وأنهم لا يرجعون إليه للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ أي تعاظم وتقدس، وتنزه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، ومنه خلقكم عبثا ﷻ، عن ذلك علوا كبيرا.

وما تضمنته هذه الآية من إنكار الظن المذكور جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ

---

(١) القيامة: الآية (٣٦).

(٢) لقمان: الآية (١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٤).

(٤) ص: الآية (٢٧).

إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) الدخان: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) القيامة: الآيات (٣٦-٣٩).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٨٣١).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ﴾ أي الملك الذي لا كفؤ له لإحاطته بجميع صفات الكمال ﴿إِلَٰهًا﴾، ولما كانوا لتعنتهم ينسبون الداعي له سبحانه باسمين أو أكثر إلى الشرك، قيد بقوله: ﴿ءَاخَرَ﴾ ثم أيقظ من سنة الغفلة، ونبه على الاجتهاد والنظر في أيام المهلة، بقول لا أعدل منه ولا أنصف فقال: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ ولما كان المراد ما يسمى برهانا ولو على أدنى الوجوه الكافية، عبر بالباء سلوكا لغاية الإنصاف دون على المفهمة للاستعلاء بغاية البيان فقال: ﴿بِهِۦ﴾ أي بسبب دعائه ذلك فإنه إذا اجتهد في إقامة برهان على ذلك لم يجد، بل وجد البراهين كلها قائمة على نفي ذلك، داعية إلى الفلاح باعتقاد التوحيد والصلاح هذا المراد، لا أنه يجوز أن يقوم على شيء غيره برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ أي جزاؤه الذي لا تمكن زيادته ولا نقصه ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ الذي رباه، ولم يربه أحد سواه، وغمره بالإحسان، ولم يحسن إليه أحد غيره، الذي هو أعلم بسريرته وعلانيته منه نفسه، فلا يخفى عليه شيء من أمره.

ولما أفهم كون حسابه عند هذا المحسن أحد أمرين: إما الصفح بدوام الإحسان، وإما الخسران بسبب الكفران، قال على طريق الجواب لمن يسأل عن ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ ووضع ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ موضع ضميره تنبيها على كفره وتعميما للحكم، فصار أول السورة وآخرها مفهما لأن الفلاح مختص به المؤمنون»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين أنه هو الملك الحق لا إله إلا هو أتبعه بأن من ادعى إلها آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه، ونبه بذلك على أن كل

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٩٧-١٩٩).

ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد، ثم ذكر أن من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ كأنه قال إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا اللَّه تعالى وقرىء أنه لا يفلح بفتح الهمزة، ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة وخاتمتها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»[1].

قال الشنقيطي: «البرهان: الدليل الذي لا يترك في الحق لبسا، وقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ كقوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[2] الآية. والسلطان: هو الحجة الواضحة وهو بمعنى: البرهان وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قد بين أن حسابه الذي عند ربه، لا فلاح له فيه بقوله بعده: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأعظم الكافرين كفرا هو من يدعو مع اللَّه إلها آخر، لا برهان له به، ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار، وقد حذر اللَّه من دعاء إله معه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾[3] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾[4] وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾[5] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مفهوم مخالفة له، فلا يصح لأحد أن يقول: أما من عبد معه إلها آخر له برهان به فلا مانع من ذلك، لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه، بل البراهين القطعية المتواترة، دالة على أنه هو المعبود وحده -جل وعلا- ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره ألبتة. وقد تقرر في فن الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة، كون تخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع، فيرد النص ذاكرا للوصف الموافق للواقع ليطبق عليه الحكم، فتخصيصه بالذكر إذا ليس لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق، بل لتخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع.

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ١٢٩).
(٢) الحج: الآية (٧١).
(٣) الذاريات: الآية (٥١).
(٤) القصص: الآية (٨٨).
(٥) الإسراء: الآية (٢٢).

ومن أمثلته في القرآن هذه الآية لأن قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصف مطابق للواقع، لأنهم يدعون معه غيره بلا برهان، فذكر الوصف لموافقته الواقع، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق.

ومن أمثلته في القرآن أيضا قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] لأنه نزل في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر لموافقته للواقع لا لإخراج المفهوم، عن حكم المنطوق ومعلوم أن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، ممنوع على كل حال»[٢].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٢٨).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٨٣٢-٨٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «أمر رسول اللّه ﷺ بالاستغفار والاسترحام فقيل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾ إيذانا بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بمن عداه»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد رب استر علي ذنوبي بعفوك عنها وارحمني بقبول توبتك وتركك عقابي على ما اجترمت ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يقول: وقل أنت يا رب خير من رحم ذا ذنب فقبل توبته ولم يعاقبه على ذنبه»[٢].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في خاتمة هذه السورة الكريمة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾ فيه الدليل على أن ذلك الفريق الذين كانوا يقولون: ربنا آمنا، فاغفر لنا، وارحمنا، وأنت خير الراحمين. موفقون في دعائهم ذلك ولذا أثنى اللّه عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك، ومعمول اغفر وارحم حذف هنا، لدلالة ما تقدم عليه في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾[٣] والمغفرة: ستر الذنوب بعفو اللّه وحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، والرحمة صفة اللّه التي اشتق لنفسه منها اسمه الرحمن، واسمه الرحيم: وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم، وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأن المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضا، ولا شك أن رحمة اللّه تخالف رحمة خلقه، كمخالفة ذاته وسائر صفاته لذواتهم، وصفاتهم»[٤].

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٥٤).
(٢) جامع البيان (١٨/ ٦٥).
(٣) المؤمنون: الآية (١٠٩).
(٤) أضواء البيان (٥/ ٨٣٣-٨٣٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعليم الرسول ﷺ لأبي بكر دعاء جامعا سابغا

* عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول اللّه ﷺ علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» قال الحافظ: «فيه أن الإنسان لا يعرى عن تقصير ولو كان صديقا»[٢].

وقال: «فيه إقرار بالوحدانية واستجلاب للمغفرة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[٣] الآية، فأثنى على المستغفرين، وفي ضمن ثنائه عليهم بالاستغفار لوح بالأمر به كما قيل: إن كل شيء أثنى اللّه على فاعله فهو آمر به، وكل شيء ذم فاعله فهو ناه عنه»[٤].

قوله: «**فاغفر لي مغفرة من عندك**» قال الطيبي: «قوله: «**مغفرة**» أي غفرانا، ودل التنكير على أنه غفران لا يكتنه كنهه، ثم وصفه بقوله: «**من عندك**» مزيدا لذلك التعظيم؛ لأن ما يكون من عند اللّه ومن لدنه لا يحيط به وصف واصف، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٥]»[٦].

قال الحافظ: «وقال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين، أحدهما: الإشارة إلى التوحيد المذكور كأنه قال: لا يفعل هذا إلا أنت فافعله لي أنت، والثاني: وهو أحسن أنه إشارة إلى طلب مغفرة متفضل بها، لا يقتضيها سبب من العبد من عمل حسن ولا غيره انتهى. وبهذا الثاني جزم ابن الجوزي فقال: المعنى هب لي المغفرة تفضلا وإن لم أكن لها أهلا بعملي»[٧].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣-٤و٤و٧) والبخاري (٢/ ٤٠٤/ ٨٣٤) ومسلم (٤/ ٢٠٧٨/ ٢٧٠٥) والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣١) وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٣/ ٦٠-٦١/ ١٣٠١) وابن ماجه (٢/ ١٢٦١/ ٣٨٣٥).

(٢) الفتح (٢/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٣) آل عمران: الآية (١٣٥).

(٤) الفتح (٢/ ٤٠٧).

(٥) الكهف: الآية (٦٥).

(٦) شرح الطيبي (٣/ ١٠٥١).

(٧) الفتح (٢/ ٤٠٧).

قوله: «وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» قال في شرح المرقاة: «قال ميرك: وهذا الدعاء من الجوامع لأن فيه الاعتراف بغاية التقصير وطلب غاية الإنعام، فالمغفرة ستر الذنوب ومحوها، والرحمة إيصال الخيرات، ففي الأول طلب الزحزحة عن النار، وفي الثاني طلب إدخال الجنة مع الأبرار، وهذا هو الفوز العظيم والنعيم المقيم، رزقنا اللّه بفضله الكريم»[١].

وقال الحافظ: «وفي هذا الحديث من الفوائد أيضا استحباب طلب التعليم من العالم، خصوصا في الدعوات المطلوب فيها جوامع الكلم»[٢].

قال ابن بطال: «في حديث أبي بكر من الفقه أن للمصلي أن يدعو اللّه في جميع صلواته بما بدا له من حاجات دنياه وآخرته، وذلك أنه ﷺ علم أبا بكر مسألة ربه المغفرة لذنوبه في صلاته، وذلك من أعظم حاجات العبد إلى ربه، فكذلك حكم مسألته إياه سائر حاجاته»[٣].

وقال: «قال الطبري: وفي حديث أبي بكر الدليل الواضح على تكذيب مقالة من زعم أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من كان لا خطيئة له ولا جرم، لأن أهل الإجرام زعموا غير مؤمنين، وزعموا أن كبائر الذنوب وصغائرها كبائر، وذلك أن أبا بكر كان من الصديقين من أهل الإيمان، وقد أمره ﷺ أن يقول: **«اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا فاغفر لي»**.

وفيه دليل أن الواجب على العبد أن يكون على حذر من ربه في كل أحواله، وإن كان من أهل الاجتهاد في عبادته في أقصى غاياته، إذ كان الصديق مع موضعه من الدين لم يسلم مما يحتاج إلى استغفار ربه منه»[٤].

* * *

---

(١) شرح المرقاة (٣/ ٢٨).

(٢) الفتح (٢/ ٤٠٧).

(٣) شرح ابن بطال (١٠/ ٩٢).

(٤) شرح ابن بطال (١٠/ ٩٣).



فهرس الموضوعات

سورة الحج

سورة المؤمنون

* * *